إذا هبت ريح الإيمان

تأليف

العلامة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

لإحياء المعارف الإسلامية

كل الحقوق محفوظة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢ء

Rs.140/-

الناشر

مجمع الإمام أحمد بن عرفان الشهيد

لإحياء المعارف الإسلامية

لمحة موسعة عن حياة الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمة الله عليه
من المولد إلى الشهادة

١٢٠١ هـ - ١٢٤٦ هـ

١٧٨٦م - ١٨٣١ م

[إعداد وتلخيص: السيد محمد الثاني الحسني رئيس تحرير مجلة «رضوان» الصادر من «لكهنؤ»، الهند. نقل وتعريب: واضح رشيد الحسني الندوي].

• **الهند في القرن الثالث عشر:**

كانت الهند في القرن الثالث عشر للهجرة (أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر للميلاد) قد وصلت إلى الحضيض بالانحطاط السياسي، والديني، والخلقي، وقد تفرقت عصا المغول؛ فكانت الهند كلها خاضعة، إما لشركة الهند الشرقية أو حلفائها أما الأجزاء المتبقية المنعزلة منها، فكانت خاضعة لسلطة الإقطاعيين، والراجاوات، والنواب الذين كانوا ينقادون بدورهم طوعاً أو كرهاً للإنجليز، ويسلّمونهم مناطقهم، ولم يكن آخر الملوك المغول: الشاه عالم (الذي ولد السيد أحمد الشهيد في عهده) إلا ملكاً بالاسم، لا حول له ولا طول، وكانت سائر المناطق الواقعة بين الجنوب الذي كانت فيه حكومة

«حيدر آباد» إلى «دلهي» تحت رحمة المرهتيين، أما السيخ فكانوا يحكمون المناطق الواقعة بين «بنجاب» إلى «أفغانستان» ولا يأمن استبدادهم الجزء الشمالي، والمركزي للهند، وكانت «دلهي» وضواحيها عرضة لغارات السيخ والمرهتيين حيناً بعد حين، وكانت هيبة المسلمين السياسية قد خرجت عن القلوب، ولم يكن لهم قائد يؤلف شملهم، ويوحد صفوفهم، فعمّت الفتن والاضطرابات، وتوالت عليهم المحن التي كانت تضعفهم وتزيد وهنهم، وتؤلب عليهم أعداءهم.

سبّب تدهور الحالة الخلقية للمسلمين في البلاد، في تفشي حياة الخلاعة والمعاصي، ودخلت عادات قبيحة كثيرة في حضارتهم وثقافتهم، وكانوا يتباهون ويعتزون بها فكان شرب الخمر عادياً بسيطاً، لا يأنف منه المسلمون، وعمّت الملاهي ونوادي الطرب والغناء والرقص، واصطبغ الناس من الأغنياء ورجال الطبقة المتوسطة حتى الفقراء بهذه الصبغة، وأصبحوا عرضة للفساد الخلقي، ويمكن أن يقاس مدى انغماس الناس في الانحلال الخلقي، والشرود الفكري، والفتور القومي، بأن عدداً من النساء المسلمات كنّ في دور التجار والحكام الأوروبيين قبل أن ترسخ قدم الإنجليز كلياً في أرض الهند، وعمّ الشرك والبدع في المسلمين، فاتخذوا لهم شريعة خاصة لتقديس القبور والموتى، وحلّ المشائخ ورجال الدين في قلوبهم محل كهنة النصارى واليهود، وبلغ تقديسهم لهم مبلغ تقديس المشركين العرب لأربابهم، ودخلت طقوس وعادات للهنادك والشيعة في حياة أهل السنّة، وصارت جزءاً لا يتجزأ منها، وأصبحت السنّة والشريعة درساً منسياً، وانصرف الناس عن الشعائر الإسلامية، وكاد العمل بالقرآن والحديث يبطل، وتضاءل الاهتمام والعناية بهما، وكره الناس زواج الأرامل، وإشراك البنات في الإرث، وتركوا السلام بطريق السنّة في كثير من الأماكن، كما أن طائفة من العلماء أسقطت فرضية الحج، وهو من أهم أركان الإسلام، بعذر أخطار السفر واضطراب النظام، وأصبح القرآن لهم لغزاً يقتصر فهمه ودراسته على العلماء والراسخين في العلم، لا يقصده أحد غيرهم.

ولكن رغم هذه الظروف السائدة، لا يصح أن يقال: إن الهند كان يسود عليها الظلام المطبق، وأنها تجردت عن النشاط السياسي، والحرارة الإيمانية، في

القرن الثالث عشر تجرداً كلياً؛ فكانت آثار الحياة وإشعاعات النور تتخلل الانحطاط الذي قد أحاط بالهند؛ فكان مستهل القرن الثالث عشر من أهم العصور في تاريخ الهند الإسلامي ، بالنظر إلى شخصيات بارزة ، كانت تمتاز بخدماتها عمّا أنجبته القرون السالفة من شخصيات؛ فأنجب هذا القرن عدة شخصيات تمتاز بعلو كعبها في العلم ، والدين ، والذوق السليم ، والمعرفة الواسعة عن الكتاب والسنّة ، والذكاء ، والصلاحية ، والملكة الراسخة ، والسليقة العلمية ، والدرس والتدريس ، والتصنيف والتأليف ، والتبحّر العلمي ، والشعر والأدب، والربّانية وتهذيب النفس ، والعلوم الأخرى التي كانت تتفرّد فيها ، ولم يكن هذا العهد رغم الفقر في الرجال والنوابغ يخلو من طلب الدين وتقديره؛ فكانت توجد في أماكن مختلفة ، شبكة للمدارس ومعاهد للتعليم الديني ، ومراكز التربية الروحانية ، وكان العلماء في مختلف مدن البلاد يقومون بعمل نشر العلم والدين ، والتصنيف والتأليف ، ينهمكون فيها كل الانهماك ، منصرفين عن الأعمال الأخرى ، وكانت المدارس عامرة بطلبة العلوم الدينية ، ومراكز التربية الروحانية ، والزوايا ، بالقلوب الدفاقة ، والمتعطشين إلى التربية الروحانية ، وكان يكوّن كبار رجال التدريس والسلوك ، كلٌ بمفرده مدرسة عامرة ، وزاوية مستقلة ، وقد يجتمع المركزان العلمي والروحاني ، في مكان واحد.

لا شك أن هذه المراكز العظيمة ، والثروة العلمية والدينية ، التي قامت بمساعي السلف ، بدأت تنكمش بمرّ الأيام وتفنى ، لأنها كانت تحتاج إلى دم جديد ، ومد جديد؛ فقد كان باب الدعم والإنعاش مغلقاً رغم وجود صلاحيات بارزة ، وكفاءات هائلة ، ولكنها لم تكن تجد منفذاً لإشعاعها وبسط نورها ، وكانت الصفات العالية مثل الشجاعة ، والجلد ، وعلو العزيمة ، وقوة الشكيمة والغيرة والحمية الدينية والأنفة ، تستخدم لتحقيق مقاصد تافهة حقيرة ، لأن الحياة كانت بلا هدف سام ، ولم يكن هناك اتجاه سليم لصرف الهمم ، وتوجيه الكفاءات ، فكانت العواطف والطموح تتجه إلى اتجاه خاطىء ، غير بنّاء.. أفراد ولا مجتمع ، أوراق ولا كتاب يؤلفها ، فكانت عجلة الحياة منحرفة عن الخط السليم ، والجادة المستقيمة ، لم يكن هناك سمط لنظم الدرر واللآلي ، فصارت الحياة بلا حركة نافعة ومجدية.

في مثل هذا الوضع المضطرب كانت الحياة تتعطش إلى شخص أو جماعة تحوّلها إلى المجرى الصحيح ، وتستغل الثروة الدينية ، والكفاءات العلمية استغلالاً صحيحاً ، ونافعاً مثمراً ، ويحيي روح الزوايا وعلم المدارس ، وحرارة الأولى ونور الآخرة ، ويعممها في سائر أنحاء البلاد ، والذي يضم في حضنه مثل الزوايا ، ونماذج المدارس المتنقلة ، فيكون على متن الفرس عالماً ، وفي المحاريب مجاهداً ، يلهب جذوة الإيمان من جديد ، ويعيد الحرارة إلى القلوب الفاترة مرة أخرى ، وينفخ الروح في الجسد الميت ، ويحيي الحرص على نيل علم الدين ، والحمية الدينية من أدنى الأرض إلى أقصاها ، ويصرف السليقة الطبيعية والكفاءة المرهوبة للمسلمين إلى الاتجاه السليم ، ببصيرته وتشخيصه الصميم ، فلا يستهين بشيء ولو كان مهيناً ، ويستغل كل حبة من ذخيرة الأمة ، وكل ذرة من صحرائها لبناء صرحها من جديد ، وكل من يتصف بهذه الصفات السامية يعدّ إماماً في المعجم الإسلامي ، واحتل هذه المرتبة السامية في رجال القرن الثالث عشر بين مشاهير العلماء وكبار القادة السيد أحمد الرائي بريلوي الذي يشتمل هذا الكتاب على نبذة من أحواله ، وقصصه ، ووقائع عزيمته ، وجهاده ، وتأثيره ، وقوة تربيته ، وحياته التي لا تعرف الهدوء والاستقرار .

● أسرته :

كان شيخ الإسلام قطب الدين محمد المدني بن رشيد الدين الذي كان جده الثاني عشر محمد (ذو النفس الزكية) بن عبد الله المحض بن حسن (المثنى) بن حسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عالماً وعارفاً بالله ، وشيخاً عالي الهمة ، وهبه الله تعالى مع علمه وتقواه ، صفات الشجاعة وعاطفة الجهاد ، وقد وصل إلى الهند بطريق «غزنين» مع جماعة كبيرة من المجاهدين ، وبعد تعريجه على أماكن مختلفة فتح «كَرَهْ» في ولاية «إله آباد» واستوطنها بعد فتحها ، وتوفي فيها ، وبها قبره ، رزق الله تعالى أولاد السيد قطب الدين مع السيادة والإمارة ، العلم ، والفضل ، والزهد ، والورع ، وكان في أخلاق السيد قطب الدين الشيخ علم الله ، أحد كبار المربين في عهد الإمبراطور «عالم كير» له أتباع وتلاميذ يكثر عددهم ، وقد أجازه السيد آدم البنوري أحد كبار خلفاء الشيخ أحمد السرهندي

المعروف بـ «مجدد الألف الثاني» وكان متورعاً للغاية ، ومتبعاً للسنة ، وزاهداً ربانياً ، توفي في ١٠٩٦ هـ ١٦٨٤ م ، ودُفن في زاويته التي أنشأها في «رائي بريلي».

● مولده:

ولد السيد أحمد بن السيد محمد عرفان بن السيد محمد نور ، والشيخ علم الله جده الخامس في صفر ١٢٠١ هـ ١٧٨٦ م ، ودخل الكُتاب وهو لم يناهز أربع سنوات من العمر ، ولكنه رغم جهده لم يرغب في التعلم ، فلم يحرز أي سبق في الدراسة ، وقد كان ولوعاً منذ صباه بالألعاب ، والفروسية ، والرياضة ، فلما بلغ أشدّه جعل خدمة الخلق نصب عينه ، فكان مغوفاً بها ، وكان يأتي بأعمال يعجز عنها حتى كبار الرجال الصالحين ، فلا يترك فرصة لخدمة الأرامل ، ولكن لا يقف ذلك في انهماكه في العبادة فيقضي ساعات في تأملاته وذكر الله ، والتسبيح له بكرةً وأصيلاً ، ثم ينصرف إلى التمرينات الرياضية المختلفة للتربية الجسمانية ، وكان يتقن السباحة فكان يقضي وقتاً طويلاً في الماء.

● السفر إلى «لكهنؤ» في طلب الرزق:

توفي والده الشيخ محمد عرفان وهو في الثانية عشرة من عمره ، فاقتضت الظروف أن يتولى مسؤوليات منزله ، ويفكر في طلب الرزق ، فخرج مع سبعة من أقاربه إلى «لكهنؤ» سعياً وراء الرزق في السادسة عشرة من عمره ، وتبعد «لكهنؤ» بنحو ٧٢ كيلو متراً عن «رائي بريلي» ، ولم يكن هناك نظام للمواصلات ، وكان لديهم مركب واحد ، يركبه كل شخص بالتناوب ، وإذا أتى دور الشيخ أحمد منحه لأحد أقاربه ، وأصر على إركابه ، وسار مشياً على الأقدام ، وقطع المسافة كلها خادماً يحمل أمتعتهم ، فوصل إلى «لكهنؤ» وكانت «لكهنؤ» عندئذ تحت حكم النواب سعادة علي خان خلف النواب شجاع الدولة ، وكان النواب ذا همّة عالية ، وقدرة إدارية فائقة ، ولكن كان الناس رغم ذلك يعانون بطالة ، وبؤساً عاماً باستثناء بعض الإقطاعيين ورجال التجارة

وتفرق جميع الرفقاء سعياً وراء كسب العيش ، وانهمكوا في أعمالهم ، وكان العيش غالياً وفرص العمل غير متوفرة ، فلم يكونوا يكسبون بعد جد وكد ،

وشغل شاغل طول النهار سوى ما يسدون به الرمق ، أما السيد أحمد نفسه ، فقد كان ضيفاً على أحد الأثرياء ، الذي كان يكنّ لأسرته احتراماً ، وينظر إليه بعين التقدير والإجلال ، وكان السيد أحمد كلما ورد إليه غذاؤه ، آثر به رفقاءه ، واكتفى هو بما تيسر من الطعام الخشن .

• في حضرة الشيخ عبد العزيز :

قضى السيد أحمد أربعة شهور في هذه الحال ، وذات يوم توّجه والي «الكهنؤ» المصيد إلى منطقة جبلية ، ورافقه كذلك مضيف السيد أحمد؛ فصحبه السيد أحمد مع رفقائه ، وقطع هذه الرحلة أيضاً خادماً يقوم بأعمالهم ، ويريح بالهم ، ويخفف عنهم وطأة السفر ، وقد كابدو في هذه الرحلة متاعب وصعوبات شديدة ، وكان السيد أحمد طول الطريق يرغب رفقته في السفر إلى «دلهي» ويحبّب إليهم الاستفادة من الشيخ عبد العزيز ، ثم توجه إلى «دلهي» وحده .

قطع المسافة بكاملها راجلاً ، يخدم المسافرين ، جائعاً عطشان ، حتى نقبت قدماه بالمشي الطويل على الأقدام ، ووصل إلى «دلهي» بعد أيام ، وحضر مجلس الشيخ عبد العزيز ، وقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوي يرتبط بعلاقات روحانية ، وصلات علمية مع مشايخ وأجداد السيد أحمد ، فأبدى سروره البالغ بعد أن تعرّف عليه فعانقه وصافحه ، وأنزله في منزل شقيقه الشيخ عبد القادر .

• التكميل الباطني ، والإجازة والخلافة :

كانت إقامة السيد أحمد عند الشيخ عبد العزيز والشيخ عبد القادر فرصة غالية لكسب الرقي الباطني ، فارتقى خلالها إلى منازل ودرجات عالية ، لا يصل إليها كبار المشايخ إلا بعد جهد جهيد ، ومجاهدات مضنية ، وترويض نفس طويل ، ونال بعد مدة إجازة الشيخ عبد العزيز الدهلوي وخلافته ، وعاد إلى وطنه «رائي بريلي» ، وأقام عامين في وطنه ، ثم تزوج .

• في جيش أمير خان :

كان السيد أحمد كما عرف من أول نشأته ، قد هيأه الله تعالى لأمر عظيم ، وقد عجن طينته بحبه والاهتمام به ، وهو الجهاد في سبيل الله ، وإعلاء شأن المسلمين ، ونفض غبار الذل والهوان عن الإسلام ، فكانت نفسه تتوق إلى مجال

يُرضي فيه هذه الغريزة ، ويربي فيه ملكاته العسكرية ، ليقوم بدوره الذي وكل إليه.

فقام برحلة أخرى إلى «دلهي» في ١٢٢٦ هـ ١٨١١ م ، وأقام برهة من الزمان لدى الشيخ عبد العزيز ، ثم انضمّ بتوجيه شيخه إلى جيش النواب أمير خان (الذي كان يقوم بقتال في «راجبوتانه» و«مالوه» واختار صحبته ورفقته للتربية العسكرية ، والجهد العملي ، ومقاومة خطر الزحف الإنجليزي ، وكان النواب أمير خان قائداً أفغاني الأصل ، ذا همّة عالية ، من سكان «سنبهل» (روهيلكهند) وقد التف حوله عدد كبير من المغامرين من أصحاب الطموح ، والفتوة ، والفروسية ، والرفقاء الأوفياء المتحمسين ، ذاع صيته كقائدٍ عسكري وفارس ، وأصبح يخشى ويرجى في مناطق الأمراء الذين كانوا في صراع دائم ، ومعارك حربية مع الإنجليز ، حتى أصبح بمر الأيام تحدّياً لم يكن الإنجليز ليتغاضوا عنه ، ويستهينوا به.

مكث السيد أحمد في جيش أمير خان ست سنوات ، وواصل أعماله ووظائفه للإصلاح ، والتربية الروحانية ، بجانب اشتغاله بالأمور العسكرية ، والعبادة والمجاهدة ، وبفضل جهده ودعوته ، تحول الجيش إلى مجال واسع لأعمال الدعوة والإرشاد ، وتحسنت حالة الجنود ، وصلحت حياتهم إلى حد كبير ، وحدث انقلاب في حياة أمير خان نفسه.

● **العودة إلى «دلهي» وجولات الدعوة:**

قضى السيد أحمد ست سنوات في هذا المعسكر ، وعندما اضطر أمير خان لبعض الظروف ، ومنها خيانة عدد من أقرب رفقائه إلى التصالح مع الإنجليز ، عارضه السيد أحمد معارضة شديدة ، ولكنه دخل في صفقة مع الإنجليز رغم معارضته ، وقبل ولاية «تونك» فيئس منه السيد أحمد ورجع إلى «دلهي».

التفت إليه الناس هذه المرة لدى وصوله إلى «دلهي» التفاتاً كبيراً غير عادي ، وبايعه خلال هذه الفترة اثنان من كبار علماء أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي ، وهما: الشيخ عبد الحي ، والشيخ محمد إسماعيل ، وكان لبيعتهما أثر عميق على سكان «دلهي» عامة ، فأقبل عليه العلماء والشيوخ ، وانضم إلى حلقته عدد

لا يوجد له نظير ، فكانت سمعته ، والإقبال عليه يزداد يوماً بعد يوم ، وبدأ جولات الدعوة ، فاختار أولاً مديرية «مظفرنكر» و«سهارنفور» الآهلة بالسكان ، والحافلة بالأماكن التاريخية ، وزار مراكز أشراف المسلمين ، و«كده منكتيس» ، ومناطق واقعة بين النهرين: «جمنا» و«كنكا» و«رام بور» و«بريلي» و«شاه جهان بور» وهي مراكز الفروسية ، والحياة الإسلامية وأماكن أخرى ، وبايعه في هذه المناطق آلاف من الأسر والأفراد ، وتابوا من الشرك والبدع ، وانضم إليه بالبيعة كبار العلماء والشيوخ ، وبايعه في «سهارنفور» الشيخ عبد الرحيم ، وكان شيخاً مرموقاً له مركز كبير ، في تربية النفوس مع آلاف من مديريه ، ومتبعيه ، فكانت الجولة هذه رحمة واسعة ، وفيضاً عاماً خلّف الخصب واليمن ، كلما مر بوادٍ أو سهلٍ ، ويتفق من شهد زياراته على أن بضع ساعات قضاها في مكان غيرت الجو وعمّرت المساجد ، وأحيت السنّة ، ونضرت الحياة والإيمان ، وأعادت الشوق إلى اتباع السنّة ، وجدّدت الحمية الإسلامية ، وأحدثت النفور والاشمئزاز من الشرك والبدع ، وقضت على رواسب الرفض والشيعية ، وكان الشيخ محمد إسماعيل والشيخ عبد الحي في سائر هذه الجولات ، وكان لخطبهما تأثير عميق من القلوب فأحدثت انقلاباً ، وغيرت مجرى الحياة.

● في الوطن:

عاد بعد هذه الجولات إلى وطنه «رائي بريلي» وكانت أيام جدب ، وجفاف شديد ، يعم الفقر والبؤس ، والمعاناة والجوع في كل مكان ، وكانت نفسه تأبى أن يأكل ويجوع جيرانه ، فتحمل بنفسه تغذية مئة شخص كل يوم ، ولكن لم يحدث بذلك أي تغير باد عليه ، كان يسود جو التوكل والثقة بالله والسكينة ، وكان يحضره في ذلك الحين كبار علماء الهند ، والصوفية ، والزهاد ، كل يغترف من منهله العذب ، ويقتبس من نوره ، رغم امتياز كل منهم في علومه وفنونه واختصاصه ، وكان السيد يشارك الناس في همومهم وأفراحهم ، ويشترك معهم في أعمالهم ، ويخدم المعتز ، وذوي الحاجة ، فتحوّلت هذه القرية الصغيرة المنعزلة إلى مدرسة دينية ، ومركز للتربية الروحانية ، ومسرح للجهاد في آن واحد ، وكان ذلك العهد ، عهد ذوق وشوق ، وحلاوة واهتزاز النفس ، ونشوة روحانية ، ومجاهدة ورياضة ، وقام السيد خلال هذه الإقامة القصيرة

بوطنه ، بجولات في مدن مهمة في الولايات الشمالية الغربية ، كـ «إله آباد» و«بنارس» و«كانفور» و«سلطانبور». فكان يقابله الناس في كل مكان ينزل به ، جماعات ووحداناً ، ويدخلون في حلقته ويبايعونه.

● جولة الدعوة والإصلاح في «لكهنؤ»:

كان للأفغان مستعمرة في معسكر «لكهنؤ» ، وكانوا من محبي السيد وشيوخه ، وقد بايع عدد كثير منهم مشايخ أسرته ، وأخصهم النواب فقير محمدخان قائد قواد الجيش في إمارة «أوده» ،فقامت على طلب منهم جماعة تتكون من ١٧٠ شخصاً بزيارة «لكهنؤ» بغرض الإصلاح والدعوة إلى الخير ، ورافقه في هذه الرحلة الشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ عبد الحي ، وكان العهد عهد حكم النواب غازي الدين حيدر ، وكان النواب معتمد الدولة آغامير وزيراً له ، وقد عمّت في عهده الفوضى ، وحب المال وسوء النظام ، والظلم العام ، وحياة الترف والتبذير ، واللهو والمجون ، والمزاح والهزل ، وعدم المبالاة ، ولكن سكان المدينة كانوا رغم هذه الظروف القاسية والعاتية ، ميالين إلى قبول الخير ، يرغبون في الصلاح ، والرشد ، يوقرون الدين ، ويعظمونه ، لكثرة العلماء والمشايخ ، ومراكزهم العامرة في «لكهنؤ» حيث انتقل سعياً وراء الرزق ، والسعادة في الحياة ، وتقدير العلم ، نخبة من الأشراف ، من الأسر ، والمناطق المجاورة ، فكان في خضم هذا البحر الهائل للإنسانية مئات من الدرر واللآلي ، التي كانت كأنها تنتظر من يعرف قدرها ومحلها.

فأقام السيد ورفقاؤه على شاطىء نهر «الجومتي» على تل الشاه بير محمد ، ولم يكد ينتشر خبر وصوله إلا وتدفق الناس من كل مكان ، وتزاحموا عليه ، فما كانوا يبرحونه حتى المساء ، وقد أحدثت خطب الشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ عبد الحي المؤثرة والمتواصلة حركة قوية في المدينة ، فتغيرت أحوال ألوف من الناس ، فكان الناس ينهضون من المجلس إليه للتوبة ، والإنابة إلى الله ، والبراءة من أعمالهم ، ويدخلون في دين الله أفواجاً ، وقد انتفعت «لكهنؤ» وسكانها بقدوم السيد وجماعته المباركة ، خلال هذه المدة القصيرة ، انتفاعاً عظيماً ، واكتسب الخير الكثير ، ولم تكن تخلو حلقة من حلقاته من العلماء

والمشايخ ، الذين كانوا يحضرون للبيعة ، والتشرّف به ، وكان الشيخان عبد الحي ومحمد إسماعيل يلقيان كل يوم الجمعة خطباً ، وبايع السيد عدّة أسر وقبائل ، وتابت عن الشرك والبدع ، وأقيمت له ولائم كبيرة ، وظهرت في هذه الولائم كراماته التي حيّرت أهل السنّة ، وحتى الشيعة وغير المسلمين ، ورجال الحكم ، وأثرت فيهم ، فكسدت سوق الشرك والبدع ، وتاب المنغمسون في الجرائم والآثام ، وحياة المجون.

ولكن هذا الالتفات العظيم ، والإقبال العام على السيد ، وخاصة توبة الناس عن الشيعية ، وكثرة دخول الناس في مذهب أهل السنّة ، سبّب قلق الحكومة ورجالها؛ فلم يحتملوا ذلك ، فأبدوا أولاً عدم ارتياحهم بالكناية ، ولكن لم يلتفت إليهم السيد ورفقاؤه من العلماء ، فلم يكفوا عن عمل الدعوة إلى الدين الصحيح خوفة لائم ، وواصلوا مجهودهم بثبات وعزم وهمّة.

عاد السيد بعد شهر إلى الوطن ، وشعر بعد عودته بأهمية الجهاد ، أكثر مما كان يشعر بها من قبل ، اشتد الحرص عليه لما علم الاضطهاد والظلم الذي كان يعاني منه المسلمون في «بنجاب» فأقلقته هذه الأنباء ، وأثارت فيه حميّته رغيرته ، فكان لا يرى شاباً سليم الجسم ، وقوي البنية ، إلا ويقول: إنه يصلح لعملي ، فكان يتقلد السلاح أحياناً كثيرة ، لكي يعرف الآخرون أهمية الجهاد ، ويقيم تمرينات عسكرية ، ويمارس أعمال الرماية والفروسية بصورة منتظمة ، ويخصّص لها أوقاتاً معينة.

● الحـــج:

كان الحج إلى بيت الله الحرام من الشعائر الإسلامية الأخرى ، التي كادت تكون مهجورة في ذلك العهد ، فتركه المسلمون إما عن تعمد لما كان يلتمس له العلماء من أعذار فقهية ، ومبررات أخرى ، وإما عن تهاون في تأدية هذه الفريضة العظيمة التي هي ركن من الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام ، وقد أفتى بعض العلماء بسقوط فرضيته عن مسلمي الهند ، فتصدّى له السيد أحمد الشهيد ، وصدع بفرضيته ، ودعا إلى القيام به ولم يكتف بمجرّد توجيه الدعوة إليه ، بل استلزم اتخاذ خطوة عملية لإحيائه ، فصمم على أن يؤدي الحج

مصحوباً بجماعة كبيرة من العلماء والأشراف ، وأرسل إلى جهات مختلفة رسائل تحث على الحج ، وتؤكد أهميته ، فأحدثت نيته للحج وإعلانه له ، ومكاتباته في هذا الشأن ، ودعوته العلنية له تحوّلاً ثورياً في الناس؛ فتدفق الناس للحج من كل صوب إليه ليرافقوه في هذا السفر السعيد ، وغادر وطنه في غرّة شوال ٢ من يوليو ١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م بعد صلاة العيد السعيد برفقة ٤٠٠ عازم للحج.

توجه من «رائي بريلي» إلى «دلمئو» ومنها ركب مراكب شراعية إلى «كلكتا» وكان الشيخ محمد إسماعيل والشيخ عبد الحي ، وعلماء آخرون تضمهم القافلة ، يلقون خطباً لرد الشرك والبدع ، فانكشفت الظلمات عن القلوب ، وصلحت المعتقدات والأعمال ، وبايعه آلاف من الناس رجالاً ونساء في «إله آباد» في الطريق ، وقدر بعض الناس أنه لم يبق مسلم في بعض البلدان إلا وبايعه في هذا السفر ، وكذلك حدث في «مرزابور» حيث بايعه جميع سكان المدينة تقريباً ، وبايع ألوف من الناس في «بنارس» ودخل العلماء والمشايخ في حلقته ، وأصيبت البدع وأعمال الشرك بضربة قاسية ، وصل إلى «بتنه» ومكث في «بتنه» أسبوعين ، وقام خلال هذه المدة بأعمال التعليم الديني ، والتوعية الإسلامية ، ونشر تعاليم الإسلام ، وإحياء السنّة ، وقمع البدع والشرك ، بحماس بالغ ، وبعث من «عظيم آباد» خلال إقامته بها عدداً من التبتيين إلى «التبت» لعمل الدعوة والإصلاح ، وامتدت جهودهم إلى «الصين» وصل بعد «عظيم آباد» إلى «كلكتا» وأقام هناك ثلاثة شهور ، وكان لإقامته بـ «كلكتا» أثر فعال في سكان «كلكتا» التي كانت كبرى مدن الهند ، وعاصمة للحكم الإنجليزي ، فأحدث ثورة في الفكر ، وتحولاً في الحياة ، ورجوعاً إلى الدين ، فأعلن أعيان البلد وأشراف القبائل والأسر ، ورؤساء التنظيمات الاجتماعية في أسرهم وطوائفهم أنه من لم يدخل في بيعة السيد أحمد ، ولم يتمسك بأهداب الدين ، ولم يحتفظ بشروطه وحدوده ، تنقطع عنه العلاقات القائمة للأخوة ، وروابط الأسرة ، فاصطف آلاف من الناس تائبين ، وأقفرت حوانيت الخمر ، ومراكز اللهو والخلاعة ، ودور التسلية والبغاء ، واستفاد أحفاد السلطان «تيبو» أيضاً ، الذين كانت بين آبائهم وآباء وشيوخ السيد أحمد صلات الاستفادة والإفادة ، والتربية الدينية. وغادر «كلكتا» بعد ثلاثة أشهر ، وكان معه إذ ذاك سبعمئة وخمسة وخمسون شخصاً من

عازمي الحج ، واجتمع جمّ غفير من المسلمين والمسيحيين والهنادك «لزيارة السيد ورفقائه ، وازدحموا حتى لم يبق مجال للمرور» كانوا يعرجون في الطريق على الموانىء ، والأماكن الساحلية ، ويلقون الخطب والمواعظ ، ووصلوا إلى «جدة» في ٢٣ من شعبان يوم الأربعاء ، ١٢٣٧ هـ ، المصادف ١٦ من مايو ١٨٢٢ م ، ودخلوا المسجد الحرام في ٢٨ من شعبان.

استمرت إفادته أثناء هذا السفر الميمون أيضاً ، فدخل في بيعته إمام الحرم ومفتي «مكة» وعلماء آخرون ، كما استفاد به كبار العلماء ، والأشراف ، والأعيان القادمون من الدول الإسلامية بهذه المناسبة ، وقضى شهر رمضان في مكة المكرمة وبايع رفقاؤه على الجهاد في أيام الحج في العقبة الأولى ، حيث بايع النبي ﷺ الجماعة الأولى من الأنصار ، وكانت هي بداية للهجرة.

توجه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، وأقام بها ، وكان هناك أيضاً مرجع العلماء والأعيان والمشايخ ، وعامة الناس وخاصتهم ، ثم رجع إلى مكة المكرمة ، وقضى شهر رمضان في السنة الثانية أيضاً في مكة المكرمة ، وكانت له حجة ثانية ، وعاد إلى وطنه بـ «رائي بريلي» في غرة رمضان ١٢٣٩ هـ ١٨٢٤ م.

● في الوطن:

أقام بوطنه «رائي بريلي» عاماً وعشرة شهور من أول رمضان ١٢٣٩ هـ ، المصادف ٣٠ من أبريل ١٨٢٤ م ، إلى ٧/ جمادى الآخرة (١٢٤١ هـ ـ ١٧/ يناير ١٨٢٦ م) وكان ذلك آخر عهد له بوطنه في حياته ، وكان من أهمّ أشغال هذه الأيام التي قضاها في وطنه : الترغيب في الجهاد ، والدعوة إلى الدين ، وتربية رفقائه الإيمانية والعملية ، وانقضت هذه المدة في جو كانت تسوده العواطف الدينية ، والأحاسيس والانفعالات الإيمانية ، وترقيتها وتنشيطها ، وإنعاش روح العمل من جهة ، والمجاهدة ، وترويض النفس ، وقضاء حياة بسيطة عسكرية ، وتعليم التواضع من جهة أخرى ، وظلت قريته (دائرة الشاه علم الله) خلال هذه المدة بكاملها مركزاً للتربية العملية والروحانية.

● الحاجة إلى الهجرة:

كان السيد أحمد ببصيرته ، ونظره الثاقب ، وإدراكه الديني الحاد ينظر بأم

عينيه ، ما كان يقاسيه الإسلام من جفوة ، وغربة ، وعجز علماء الدين ، وأهل العلم ، ومحنتهم في تأدية فرائضهم ، كان يرى غلبة القوى المعادية للإسلام ، وحالة بؤس المسلمين ، وشقائهم في «بنجاب» ، والاضطهاد المفرط ، والاستبداد الذي كانوا يلاقونه بأيدي السيخ ، فكانوا يقضون فيها حياة الذل والاستكانة.

وقد أصيبت الأمة بكاملها بعدم الثقة ، والشعور بالحرمان والذلة ، كانت تصادر ممتلكات المسلمين وعقارهم ، بأعذار بسيطة لا قيمة لها ، وأسس مزورة ، وحوّلت غرف المسجد الشاهي في «لاهور» المعروف بفن العمارة ، وأهميته التاريخية إلى إصطبل ، وفرض الحظر في أماكن متعددة على الأذان ، وحرمت عدة شعائر إسلامية ، فثارت في المسلمين بهذه الحياة الذليلة الوضيعة آثار القلق والتبرّم ، وهاجت فيهم حميتهم الدينية والاضطراب النفسي الذي يخامره الشعور بالخيبة ، وكيف كان يمكن احتمال ذلة المسلمين واحتقارهم ، وتسلط قوة معادية للإسلام عرفت بحقدها للإسلام والمسلمين ، وإرصادها لهم في هذه المنطقة الواسعة الواقعة على الثغور ، التي كانت دائماً مركزاً لأجيال المسلمين الأكفاء للخدمة العسكرية.

كانت هذه الطغمة الحاكمة خطراً دائماً على مركز الهند بـ «دلهي» وسائر أجزاء الهند الشمالية الغربية ، ومناطق الثغور ، و«أفغانستان» على الأخص فأدرك السيد أحمد ورفقاؤه بنظرهم الثاقب ، وفراستهم البالغة هذه الأخطار الكامنة ، فمنح «البنجاب» الأولوية لأعماله ونشاطه الجهادي.

أقلقت السيد أحمد سلطة الإنجليز على الهند ، والحروب الأهلية القائمة بين المسلمين ، ومناظر انحطاط الإسلام ، وأثارت حفيظته ، وحميت بها حميته ، وغيرته الدينية ، أدرك أن إعلاء كلمة الله ، وإنقاذ الدول الإسلامية وحمايتها تطالب كل مسلم غيور يشعر بالمسؤولية بالجهاد؛ فكان يعتقد أن الجهاد من أهم شعب الدين ، وخطوة إكمالية لها ، وكان يعتبر الهجرة مقدمة للجهاد ، لأن الجهاد في تلك الظروف لم يكن ميسراً بدون الهجرة؛ فأثارته الآيات الصريحة التي وردت في القرآن ، والأحاديث الواضحة على اتخاذ الخطوة ، وكان الشوق

إلى الحصول على رضا الله وحبه رائده ، فوطدت الحقائق والمشاعر التي كانت تتغلغل في أعماق قلبه وأغوار فكره ، العزم على الجهاد ، والخروج في سبيل الله

كان السيد أحمد يهدف رئيسياً إلى تحرير الهند من حيث المجموع ، كما يتضح من رسائله العديدة التي بعث بها ولاة الأمر ، والحكام في الولايات الهندية ، والأمراء وحكام الدول الأخرى خارج الهند ، ولكن «بنجاب» كانت تقتضي الأولوية والإسعاف العاجل نظراً لاستقرار حكومة «رنجيت سنكه» فيها ، ورسوخها عملياً ، وتعرّض المسلمين بسببها للظلم والاستبداد ، ثم إن المصالح العسكرية ، والوعي السياسي كان يقتضي أن يبدأ هذه الحركة من الثغور الغربية للهند ، باعتبارها مركز قبائل الإفغان الأقوياء والبسلاء المتحمسين الغيازي الذين كانت تقوم مع أفراد أسرهم وأقاربهم علاقات البيعة ، والاسترشاد مع السيد أحمد ، وكان كثيرون منهم يشتركون في جيشه ، وأكدوا أن هذه القبائل ستنصره ، وتساعده في نيل هذا المرام ، ثم إن المنطقة كانت متصلة بحزام للحكم الإسلامي الممتد إلى «تركيا» ، فكان السيد أحمد يعد نفسه وجماعته لهذا الهدف السامي منذ بداية حركاته .

● الهجرة:

ودع السيد أحمد وطنه «رائي بريلي» يوم الإثنين ، ٧ من جمادى الآخرة ١٢٤١ هـ ١٧/ يناير ١٨٢٦ م ، واجتاز للوصول إلى ثغور الهند الشمالية الغربية ولايات «مالوه» و«بلوخستان» و«أفغانستان» وصحراء ولاية الثغور ، وسهولها ، وجبالها ، ومضايقها ، وغاباتها ، وأنهارها ، ومستنقعات ، كانت عسيرة العبور ، فكانت في حد ذاتها نوعاً من الجهاد؛ فواجه في بعض الأماكن نقص الماء ، وقلة التموينات الغذائية ، ووعورة الطريق ، وعسر المرور ، وخطر النهاب ، وقطاع الطريق ، وشدة الجوع والعطش ، وغربة البلاد والأقوام ، ولغات جديدة غير معروفة ، واختلاف الطباع بالإضافة إلى الشبهة ، والمخاوف والريب ، والتحقيق والتجسس ، وكانت جماعته تتكوّن من أفراد يرجع أصلهم إلى «دلهي» و«أوده» ومنطقة النهرين ، من أشراف ، أعيان ، وعلماء ومشايخ ،

ونخباء أسر غنيّة ، وربائب النعيم ، وأ د أنهكتهم متاعب الحياة وضعف الصحة ، ولكن كانت تنعشهم نشوة الجهاد ، والشوق إلى الشهادة ، وكان عددهم يبلغ ٦٠٠ شخص.

عرّج السيد أحمد أولاً على «دلمئو» ثم «فتح بور» فـ «باندة» ثم «جالون» و«مالوه» و«جوالیار» ، ثم توجه إلى «تونك» وفي كل مكان ومقام توقف السيد ، قوبل بحفاوة بالغة ، ورحب به المسلمون ، وتشرفوا بالبيعة والإرشاد ، وتشرف في «جوالیار» أميرها على دعوة منه باللقاء ، فقدم إليه الأمير هدية ، ثم ذهب السيد أحمد إلى «تونك» فرحب به أمير «ونك» أميرخان (الذي كان قضى السيد أحمد في جيشه ست سنوات) ترحيباً ـ اراً وشايعه إلى مسافة بعيدة في رحلته التالية ، ثم توجه من «تونك» إلى «أجمير» و«بالي» ماراً بصحراء «ماروار» العسيرة المرور ، ووصل إلى «حيدرآباد» بـ «السند» وبايعه في الطريق ألوف من الناس رجالاً ونساء ، وصاحبه عدد كبير من الـ س ، وكانت السند في ذلك العهد منطقة مستقلة بالسيادة تحكمها أسرة واحـ ة ، وكان يسكنها مئات الألوف من المحاربين ، والأبطال المجرّبين في فنون الحرب ، وكان مع ذلك عدد كبير من المشايخ الذين كان أتباعهم منتشرين ، في «السند» كلها ، فرحب جميعهم بالسيد أحمد ، ووعدوا له بكل مساندة ومساعدة ، فقابله والي «حيدرآباد» مير محمد ، والأشراف ، والمشايخ الآخرون ، بحفاوة بالغة ، وأنزلوه منزل إكرام وشرف.

أقام بـ «حيدرآباد» مدة أسبوع ، ثم ذهب إلى «بيركوت» وأقام فيها أسبوعين ، ثم توجه إلى «شكاربور» ، وقابل المشايخ وصلحاء «السند».

ومن «شكاربور» توجه إلى «جهتر بهاك» و«دهادر» ماراً بأماكن مختلفة ، قضى فيها بضعة أيام ، ليدعو الناس إلى الجهاد ، والخروج في سبيل الله ، وفي جميع هذه الأماكن تشرف بزيارته والاستفادة منه عدد كبير من المشايخ والعلماء ، ورجال الحكم ، فاختار لهذه القافلة طريق مضيق «بولان» الضيّق والخطير ، ومضيق «بولان» هو نفق طويل في الجبل ، فتحه الله تعالى بقدرته لأولي العزم من الفاتحين والمسافرين المخاطرين في هذه السلسلة الطويلة للجبال ، التي تفصل

بين «الهند» و«أفغانستان» فوصل إلى «كوئته» ماراً بـ «بولان» ، وأبدى أميرها حبه ، وأكرمه ، وبايعه العلماء.

● في «أفغانستان»:

وصل إلى «قندهار» قادماً من «كوئته» ، وكان يحكم «أفغانستان» أخوة بارك زئي ، المعروفون بـ «دارنيين» ، فكان يحكم «قندهار» بردل خان ، وكان والي «غزنين» مير محمد خان ، و«كابل» دوست محمد خان والسلطان محمد خان ، و«بشاور» يار محمد خان ، وكان بين هؤلاء الأخوة صراع شديد ، وتنافس في الملك ، وكانت بينهم شحناء وأحقاد عميقة قديمة ، فكانوا يخوضون معارك بينهم ، وتنشب حروب أهلية ، فكان من أهم أهداف السيد أحمد وثمار جهوده أن يجمع الأخوة المتحاربين بينهم ، على رصيف واحد ، ويوحّد صفوفهم ويؤلف بينهم على كلمة الإسلام ، والجهاد مع أعداء الإسلام.

ولما وصل إلى «قندهار» استقبله حاكم «قندهار» وخرج ألوف من العلماء ، وأعيان البلد راجلين لاستقباله ، وازدحمت الشوارع بالمرحبين به ، وتوقف المرور عليها بسببها ، وأقام أربعة أيام في «قندهار» فكان كل شخص تواقاً إلى الجهاد معه ، وحريصاً على الخروج معه في سبيله ، وتوجّه إلى «غزنين» من «قندهار» فرافقه أربعمئة تقريباً ، من العلماء والفضلاء ، وطلبة المدارس ، وشيوخ الزوايا ، في نشوء الجهاد ، والحنين إلى الشهادة في سبيل الله ، فاختار منهم مئتين وسبعين شخصاً ، واستصحبهم ، وبعث عن طريق «غزنين» رسائل إلى مير محمد خان حاكم «غزنين» والسلطان محمد خان حاكم «كابل» وأخبرهم بقدومه ، وبيّن لهم أهدافه ، وأغراضه ، وأبدى رغبته في تعاونهم معه في هذا الغرض السامي ، فلما وصل إلى «غزنين» استقبله أعيان البلد ، ورجال العلم والفضل ، وعدد لا يحصى من الراكبين والراجلين خارج المدينة على مسافة ميلين ، ونصب خيمته بجوار ضريح السلطان محمود الغزنوي ، وبايعه في هذا المكان عدد كبير من الناس.

وأقام بغزنين يومين ، ثم ذهب إلى «كابل» فخرج كبار الأمراء والأشراف ، وألوف من الناس إلى خارج البلد لاستقباله ، فكان يتصاعد الغبار لازدحام

الناس ، وأظلم الطريق ، وكان السلطان محمد خان والي «كابل» مع ثلاثة من أخوته ، وحرس يتكون من خمسين شخصاً ، ينتظر وصوله ، فاستقبله ، وقابله ، وأكرمه ، وأقام بـ «كابل» شهراً ونصف شهر ، فكانت أيام دعوة وإصلاح بين الناس ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والاستعداد للجهاد ، وانتفع بصحبته عامة الناس وخاصتهم ، وانضموا إلى جماعة المجاهدين بتأثير رفقائه ، وأحوالهم وحنينهم للجهاد ، ومبادرتهم إلى الخير ، والشوق إلى الشهادة.

وحاول السيد أحمد بما كان في وسعه من مجهود للإصلاح بين أخوة بارك زئي ، ومدّد إقامته لهذا الغرض ، ولكن مساعيه الطيبة لم تكلل كلياً بالنجاح ، فاضطر إلى مغادرته إلى «بشاور» وكان المسلمون في الطريق يستقبلونه بحماس ، وعواطف وُدّية مماثلة ، جرّبها أثناء السفر كله ، فمكث في «بشاور» ثلاثة أيام ، ثم أقام في «هشت نكر» بضعة أيام ، وأعدّ المسلمين للجهاد ، وتوجه إلى «نوشهره» حيث استهل مهمته الحبيبة وعبادته العظمى ، وهي الجهاد ، الذي كان لب تعاليمه ، وجوهر دعوته ، وخلاصة جهوده منذ سنوات ، وقطع من أجلها هذه المسافة الطويلة ، وتحمّل من أجل هذه الصعاب التي تصرف همم أولي العزم.

● حرب «أكـــوره»:

بعث من «نوشهره» رسائل إلى حكومة «لاهور» وجه فيها الدعوات إلى الإسلام ، وإلا إلى دفع الجزية ، وطالب بالطاعة ، وهدّد بالحرب ، إذا رفضت المطالبتان ، وكتب في ختام رسالته : «إنكم لا تحبون الخمر مثلما نحب الشهادة» فلما بلغت حكومة «لاهور» رسالة السيد أحمد ، أرسلت الحكومة جيشاً كبيراً من جنود السيخ لمواجهته ، فلما علم السيد أحمد بذلك ، بدأ استعدادات الحرب ، وسرت نشوة الجهاد في المجاهدين ، وحدث انتعاش وهزة ، كأن اليوم الذي كانوا يحلمون به قد حان ، وكان الشوق إلى الشهادة يطير بهم ويهزهم ، كانت جماعة السيد أحمد تتكون من سبعمئة جندي ، بينما كان جيش الأعداء يضم سبعة آلاف جندي مسلح ، وواجهت فئة قليلة جيشاً يساوي عشرة أضعافها يوم

الأربعاء في ٢٠/ جمادى الأولى ١٢٤٢ هـ (٢٠ من ديسمبر ١٨٢٦ م) لدى منتصف الليل ، وقاتل المجاهدون بجراءة وشجاعة بالغة ، وبدأ العدو ينسحب من المعركة منهزماً ، ولم ينقض نصف الليل إلا وانسحب العدو ، وخلت ساحة المعركة ، فازداد المسلمون قوة بعد قوة ، وارتفعت روحهم المعنوية ، والتفت رؤساء مختلف القبائل ، والعلماء ، والأشراف إلى السيد أحمد للبيعة ، وزادت ثقتهم به ، فأصلح بين الرؤساء والشيوخ ، وبايعه أيضاً قائد قلعة «هند» السردار خادي خان ، وبناء على طلبه أقام السيد أحمد مع رفقائه في قلعته ثلاثة أشهر .

● غارة «حضرو» والبيعة والإمامة :

بعد النصر الذي تحقق في حرب «أكوره» طلب «الأفغان» من السيد أحمد بأن يبيّت على «حضرو» التي كانت سوقاً كبيراً خاضعة لحكم السيخ ، فأذن له السيد أحمد ، ولكنه لم يشترك فيه بنفسه ، وقد اعتدى في هذه الغارة الليلية الجنود المحليون ، والأفغان ، وخرقوا القوانين ، فلم يتمسكوا بأوامر السيد أحمد وتعاليمه ، وقاموا بكل ما حلا لهم من عمل؛ فاتخذ العلماء في الجيش قراراً بالإجماع أن أهم أمر ، وأرجحه اختيار إمام وأمير للقيام بالجهاد في ظله ، وحسب توجيهاته .

فبايع السيد أحمد بالإمامة والخلافة بالإجماع في «هند» في ١٢ من جمادى الأخرة ١٢٤٢ هـ (١٣/ يناير ١٨٢٧ م) وبايعه خادي خان ، وأشرف خان ، وفتح خان ، وبهرام خان ، وجميع القواد والرؤساء علاوة على عدد كبير من العلماء من الهند الذين كانوا معه ، فقبلوه إماماً لهم ، وأرسل السيد أحمد رسائل إلى سائر ولاة الأمر في البلاد ، والعلماء ، والمشايخ ، والرؤساء ، يدعوهم فيها إلى البيعة ، ويفيدهم علماً بها ، فلما سمع السردار يار محمد خان «والسلطان محمد خان» من ولاة «بشاور» شعبيته والإقبال عليه ، وربانيته ، قدموا إليه بجماعة كبيرة ، وبايعوه ، ونفذ السيد أحمد بعد انتخابه أميراً النظام الشرعي الإسلامي في سائر المنطقة ، وطبّق سائر قوانين الإسلام ، فبدأت المحاكم تسوّي سائر الأمور والقضايا في ضوء السنّة ، وكان من أثر المحاسبة أن خلت البلاد كلها من تاركي الصلاة .

● حرب «شيدو» والتسميم:

أصبحت المنطقة بعد إمامة السيد أحمد وخلافته بلداً متحداً ، ولما انتهت السيادات الإقليمية والحكم الذاتي ، والإقطاعية لقادة ورؤساء قبائل مختلفة صغيرة وكبيرة بتوحيد البلاد ، دبّت في قلوبهم المخاوف والأحقاد ، والحسد ، ولو أنهم كانوا يبدون انقيادهم وخضوعهم لحكم السيد أحمد ، وبايعوه بجراء الثيار الجديد للطاعة والانقياد والحب السائد ، لكنهم كانوا يكنون في قلوبهم نوايا شريرة ، يحيكون له المكائد والدسائس ، فبدؤوا يتآمرون سرياً مع بلاط «لاهور».

أبدى هؤلاء السادة والقادة ، الذين كانت أفواههم مع السيد أحمد ، وأفئدتهم مع بلاط «لاهور» بعد اشتباكات عديدة ، ومناوشات مع السيخ ، رغبة أن تقوم حرب حاسمة ومدمرة ضد السيخ ، لتسوية المسألة كلياً ، فاختير بإشارة من هؤلاء السادة ميدان «شيدو» وبدأت الاستعدادات للحرب ، إذ دسّ هؤلاء المنافقون السمّ في طعام السيد أحمد ليلة ، وكان جيش المسلمين عندئذ يتكوّن من المحليين وغير المحليين ، وكان جميع الرؤساء والقادة مع جنودهم وكتيبتهم ، وكانت كفة الحرب ترجح في صالح المسلمين ، وإذا بقادة «بشاور» ينحازون إلى السيخ ، وفر السلطان يار محمد خان مع رفقائه من ميدان الحرب ، فلم يعد السيد أحمد بعد هذه الحرب يواجه السيخ فحسب ، بل كان ضده قادة ورؤساء «بشاور» أيضاً ، و«الخوارج» ثم وقف جيش مسلح كامل للمنافقين ضد السيد أحمد.

● في «بنجتار»:

وفي الوضع الجديد الذي حدث إثر هذه التطورات انتقل السيد أحمد على طلب من فتح خان وإلى «بنجتار» من «هند» إلى «بنجتار» وجعلها مقراً له ، وتقع «بنجتار» بالقرب من «سوات» في وسط الجبال ، وهي منطقة محمية ، وظلت «بنجتار» إلى مدة طويلة مقراً للمجاهدين ، وتشرّفت أن تكون ثكنة إسلامية ، ومركزاً للإصلاح ، والتربية الدينية ، فكانت هذه الهضبة الصغيرة ثكنة عامرة للمجاهدين كانت كل ناحية منها آهلة بالمجاهدين والعباد ، تذخر بالذكر التلاوة

والجهاد والمجاهدات ، والحب والأخوة ، والخدمة والإيثار.

لم تكن إقامة السيد بـ «بنجتار» وعمرانها به ممّا يسوغ والي «هند» وثار في قلبه الحسد ، وحقد على السيد أحمد ، فدبّر للإساءة إليه ، وعلى الجهة الأخرى ، لم تؤثر الهزيمة المفاجئة التي لقيها السيد أحمد في «شيدو» أي فتور في همة السيد أحمد ، أو عدول عن دعوته ، وجهاده ، فقام بجولة في «بنير» و«سوات» ثم «هزاره» وكانت هذه الجولة ناجحة للغاية في الدعوة ، والنفع الديني ، والإرشاد ، والجهاد ، والدعوة إليه وتوجه من «بنجتار» إلى «خهر» وهي مركز لـ «سوات» وأقام بها عاماً كاملاً. وفي هذا المكان توفي الشيخ عبد الحي ، وكان شيخ الإسلام في جيش السيد أحمد ، وكان يحترمه السيد أحمد غاية الاحترام.

● مواجهة القائد الفرنسي رنجيت سنكة:

أغار وينتورا القائد الفرنسي في جيش رنجيت سنكة على المجاهدين بجيش مكوّن من أكثر من عشرة آلاف جندي ، وساعده فيه خادي خان والي «هند» ولكن الجنرال وينتورا انهزم ، وانسحب لما عاين من الشوق إلى الشهادة ، والحماس للجهاد في المجاهدين ، ورجع إلى «لاهور» ثم زحف جيشه من جديد بعد عدة شهور ، وتوجه إلى «سمّة» واستقبله خادي خان ، وساعده سرّياً ، فلما علم السيد أحمد بقدوم جيش وينتورا ، أخبر به رفقاءه ، وبعث برسائل ، ثم شيّد جداراً دفاعياً ، وبايعه المجاهدون بيعة الموت ، وشاهد وينتورا أن المجاهدين منتشرون على هضبات الجبال ، والممرات الجبلية ، ومضايقها ، فرجع خوفاً ورعباً ، وقذف الله في القُلوب الخوف ، ورعب المجاهدين ، وذاع صيتهم في سائر الضواحي ، وبدأ الناس يتدفقون إليه ، ويبايعونه ، فقام السيد أحمد بجولات في القرى والمدن ، وشدد النظام الشرعي للحكم ، ولكن خادي خان ظل على مكيدته وحقده ، ومؤامرته مع الأعداء ، رغم جميع وسائل الإفهام ، والشرح ، والإقناع ، التي اتخذت لترضيته ، فلم يبق أمام السيد أحمد بديل إلا أن يغير على قلعة «هند» ويفتحها ، وقتل خادي خان في هذه الغارة.

● حرب «زيده» ومقتل يار محمد خان:

انحاز أمير خان الأخ الأكبر لخادي خان ، إلى السردار يار محمد خان الذي كان قد دسّ السمّ في طعام السيد أحمد في حرب «شيدو» وتآمر معه ، وأجرى السيد أحمد محادثات معه ، ليمنعه عن الفرقة ، والاضطراب والفساد ، والفتنة ، لكنه شن حرباً ضد المجاهدين في منطقة «زيده» ولم يقبل نصحه ، فواجه المجاهدون هذا التحدي بثبات وحزم وقوة ، وحصدوا الجيش الدراني ، واستولوا على مدافعه ، فلاذ الجنود كلهم إلى الفرار ، وقتل يار محمد خان ، وهاجم الدرانيون على قلعة «هند» التي كان المجاهدون يحتلونها ، ولم يكن عدد المجاهدين يزيد عن ستين ، ولكنهم قاوموا هذه الغارة بثبات ومثابرة ، وخيبوها.

أشيع في هذه الفترة أن المجاهدين يعتزمون الهجوم على «بيشاور» التي كانت تحت سلطة الدرانيين ، فانحرف الدرانيون عن «هند» والتفتوا إلى «بيشاور» وفي نفس الأثناء احتل المجاهدون «عشره» و«أمب».

كان يريد السيد أحمد أن يتوّجه إلى «كشمير» وكان يقتضي ذلك احتلال «بهولره» فوجّه جماعة من المجاهدين بقيادة ابن أخته السيد أحمد علي وهجم السيخ على هذه الجماعة بغتة ، فاستشهد عدد كبير من المجاهدين نتيجة لهذه الغارة المباغتة ، واستشهد السيد أحمد علي نفسه في هذه المعركة.

● حرب «مايار»:

أقام السيد أحمد بـ «أمب» ونفذ نظام القضاء والإصلاح الاجتماعي ، والخلقي ، فعزم السلطان محمدخان على أن يخوض معركة حاسمة ، فقاد جيشاً عظيماً ، للدرانيين ، ومر بـ «جمكني» ووصل إلى «حارسده». فتصدى له السيد أحمد مع رفقائه ، ونصب خيمته في «تورو» وحاول أن يمنع شيوخ «بيشاور» عن الصراع الذاتي والحرب الأهلية ، لكنهم لم يقدروا هذه العاطفة ، والمساعي الجميلة ، فحلف السلطان محمد خان ، وأبناء أخيه وأخوه حاملين المصحف بأيديهم فمر الجيش بكامله من الباب الذي كان قد علق عليه المصحف ، فنشب قتال عنيف بين «تورو» و«هوتي» في ميدان «مايار» واستولى الشيخ محمد

إسماعيل والشيخ ولي محمد علي المدافع ، فانهزم الدرانيون ، وتراجعوا وانتصر المجاهدون ، وقد سجل المجاهدون في هذه المعركة آيات من البطولة ، والثبات ، والجراءة ، وقوة الإيمان ، والانقياد والطاعة ، والشوق إلى الآخرة ، وشوهدت مناظر لنصرة الله ، جدّدت ذكريات القرن الأول .

● فتح «بيشاور» وتسليمها :

عمد السيد أحمد بعد النصرة في حرب «مايار» إلى «بيشاور» التي كانت ثانية أهم المدن في الشمال الغربي بعد «لاهور» و«كابل» وكانت عاصمة لولاية الثغور ، ومركزها منذ القديم ، وقد اقتضت الظروف الآن أن يتولى المجاهدون نظام هذه المنطقة وإدارتها مباشرة ، فلما رأى سلطان محمد خان أن المجاهدون ينوون الاستيلاء على «بيشاور» فخرج مع أفراد أسرته ورفقائه من «بيشاور» ، وبدأ من هناك التراسل مع السيد أحمد ، فلما دخل السيد أحمد في «بيشاور» استقبله سكانها ، وأبدوا سرورهم بقدومه ، ورحبوا به ، وأقاموا سقايات في الطريق ، وأضاؤوا المصابيح والقناديل ابتهاجاً بقدومه واحتفالاً به وأظهر الجيش اقتداء بالجيوش الإسلامية في القرون الأولى ، السيرة الإسلامية ، والتربية الدينية ، ومشاهد التقوى والورع ، والزهد في الحياة ، والأمانة ، وعرض السلطان محمد خان الصلح ، وعاهد على الطاعة ووعد حلفاً شرعياً ، أنه إذا أعيدت «بيشاور» إليه فإنه سينفذ النظام الشرعي ، ويحوّل هذه البلاد إلى حكومة إسلامية ، ولم يكن لدى السيد أحمد أي مانع في قبول هذا العرض ، لأنه لم يكن يطمعُ في الحكم ، أو القوة ، وإنما كان حريصاً على إقرار نظام إسلامي ، وتنفيذ حكم شرعي ، وكان ذلك هو الهدف الوحيد لهجرته لوطنه ، ووصوله إلى هذه المنطقة النائية ، ولم يكن لذلك يؤثر نفسه على أحد؛ فقبل عرضه ، وأتاح له فرصة أخرى ، فأعيدت «بيشاور» إلى سلطان محمد خان ، وعاد هو نفسه من «بيشاور» إلى «بنجتار» .

● اغتيال العمال والقضاة :

كان إقرار النظام الشرعي ، وتعيين العمال ومحصلي الصدقة ، وتنفيذ الأحكام الشرعية عقبة في سبيل رؤساء القبائل ، وخاصة سلطان محمد خان ،

وعلماء السوء المغرضين ، فلم تبق لهم فرصة لاستغلال الناس ، وتحقيق أغراضهم ومصالحهم المادية ، فعزموا على إزالة هذه العقبة من طريقهم ، والتخلص من هذه القيود.

ولم ينقض على تسلم «بيشاور» إلا مدة يسيرة إلا ودبر السلطان محمد خان مؤامرة لتضليل الناس ، وتشويه سمعة المجاهدين في عامة الناس وخاصتهم ، ولتحقيق هذا الغرض أعدّوا بياناً وقع عليه علماء السوء ، أن السيد أحمد والمجاهدين فرقة ضالة ذات معتقدات وأفكار فاسدة ، ثم أعدّوا خطة لاغتيال العمال ، والقضاة ، والآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، والغزاة ، ورجال الحكومة الشرعية الذين كان السيد أحمد قد عينهم في سائر منطقة «بيشاور» و«سمه» سوى «بنجتار» في آن واحد ، وتمت هذه الخطة الخبيثة باغتيالهم فجأة بدون رأفة ، وبوحشية ، فقتل أحدهم أثناء الصلاة ، وآخر أثناء لجوئه بالمسجد ، ومنهم من قتل محارباً ، ولم يقبلوا في ذلك شفاعة أحد من العلماء والسادة ، وحتى النساء وغير المسلمين للرحمة ، فذبحوهم ذبح النعاج.

كانت هذه مآساة إنسانية ، منقطعة النظير ، وخسارة نخبة مختارة نشأت بعد عشرات السنين لتربية وتعليم ، وتثقيف طويل ، وخلاصة بشرية نقية ، تعلق بها الآمال ، وجوهر الهند ، ولبها الذي يفنى في لمح من البصر.

الهجرة الثانية:

تحطم قلب السيد أحمد لهذه المجزرة الوحشية التي تعرّض لها رفقاؤه ، وخيرة عماله ، وقد أقلقه جفاء المحليين ، ونكران الجميل ، والظلم والوحشية التي أبدوها ، فقرر الهجرة من هذا المكان ، وباستشارة رفقائه جمع العلماء والسادة في «بنجتار» ، وأجرى تحقيقاً على المأساة ، وذكر لهم أهداف قدومه ، ومجهوداته ، فلما تأكد أن رفقاءه كانوا أبرياء من هذه الجريمة ، وأن السكان المحليين هم الذين لا يصفو ودّهم ، ولا تؤمن نواياهم ، فعزم على الرحيل ، فلما انتشر خبر هجرته ، قلق له العلماء والسادة المحليّون ، وجماعة من المخلصين والرؤساء المتبعين الذين كانوا في «بنجتار» ، وحزنوا كثيراً ، وتدفق الناس على السيد أحمد ليطلبوا منه إعادة النظر في قراره ، وأن لا يهاجر ، لكنه

لم يقبل طلبهم ، لأنه كان يدري أن لفتح خان ورجال قبيلته يداً في خطة سلطان محمد خان ، واغتيال العمال والقضاة ، وأنه لم يقدم بنفسه أيّ طلب بإقامة في هذه المنطقة ، بل إنه أيدّ هذا القرار سرياً ، ولكن السيد أحمد لم ينتقم منه ، بل عفا عنه وأعرض ، وعامله معاملة الامتنان ، والاعتراف بالجميل ، وأنعم عليه بالهدايا ، ولم يتزحزح في إرادته للهجرة ، فسلّم «بنجتار» إلى فتح خان ، وأقام بـ «راج دواري» وجاء إليه في «سمه» في الطريق (حيث قتل القضاة ، والغزاة ، والمخلصون) رجال يلتمسون منه العودة ، لكنه قال: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

● إلى «كشمير»:

واختار الآن منطقة «كشمير» لمواصلة أعماله ، وحركاته الدعوية والجهادية ، وتوجه إلى «كشمير» مع ما تبقى من الثروة البشرية معه ، والمخلصين من الرفقاء ، الذين عزموا على أن يرافقوه في ساعة العسرة ، وفي حالة مريبة عسيرة ، فلم يقبلوا أن يتركوه في أيّ حال ، توجه إلى «كشمير» وهي وادٍ واسع آمن ، يتمتع بتحصنات طبيعية هائلة ، تستطيع أن تستغلها قيادة واعية ، ذات بصيرة لأغراضها ، وتستطيع كذلك أن تؤثر منها على الهند من جهة ، ومن جهة أخرى يمكن بها إنشاء علاقات وروابط مع تلك الدول الإسلامية في آسيا الوسطى من الناحية العسكرية ، والسلالية ، والتي أنشأت في الماضي حكومات إسلامية قوية ذات شأن.

● في «بالاكوت»:

كانت إمارة رؤساء «بكهلي» و«وادي كاغان» ورجال المنطقة الآخرين ، تتزحزح ، وتتأرجح ، إما بسبب هجمات السيخ ، وإما بسبب الصراع الداخلي ، والاضطراب الذاتي ، فكانوا جميعاً يستنجدون السيد أحمد ، وكانت إمارتهم تقع في الطريق إلى «كشمير» التي كان السيد أحمد ينوي جعلها مركزاً له ، وكانت هي هدف هجرته الثانية ، ووجهتها ، فكانت «بالاكوت» أنسب محل لخدمة جميع هذه الأغراض من مساعدة من يطلب النجدة ، وحمايتهم ، والدعم العسكري ، والتقدم إلى «كشمير» والاستعداد له ، وكانت «بالاكوت» تقع على الناحية

الجنوبية لـ «وادي كاغان» ، وقد صدّ هذا الوادي في هذا المحل جدار جبلي ، فليس هناك طريق سوى منفذ نهر «كنهار» ويقع الوادي بين جدارين جبليين متوازيين ، يبلغ عرضه أقل من نصف ميل ، ويجري في هذا المكان نهر «كنهار» ويقع في شرق «بالاكوت» تل «كالوخان» العالي ، وفي غربها يقع تل «منى كوت» .

كانت هذه الرحلة الثانية للهجرة كذلك شاقة ومتعبة ، ومليئة بالخطر ، وكانت قمم الجبال ، والأودية مغطاة بالجليد من كل جانب ، والطرق وعرة معقدة ، ذات مرتفعات ومنحدرات ، لا يوجد فيها أيّ سبيل لإرسال المؤن والحمل ، فلم يكن هذا السفر إلا عبارة عن مغامرة عسيرة تدل على علو همته ، وقوة ثباته وعزمه ، ومثابرة رفقائه ، وقوتهم الإيمانية وصبرهم وأناتهم ، وتحمل كل مكروه في سبيل تحقيق هدفهم ، فوصل السيد أحمد إلى «سجون» قادماً من «بنجتار» عابراً عدة أماكن شاقة ثم توجه منها إلى «بالاكوت» وغادر «سجون» في ٥ من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (١٧ من أبريل ١٨٣١ م) ودخل في «بالاكوت» .

● **الحرب الأخيرة والشهادة :**

لما علم المير «شيرسنكه» الذي عهد إليه والده مهاراجه «رنجيت سنكه» بأن يحارب المجاهدين حرباً نهائية حاسمة ، أن السيد أحمد وغزاته يقيمون في «بالاكوت» فقاد جيشاً ضخماً للسيخ ، وعسكر على بعد ثلاثة أميال تقريباً من «بالاكوت» على الشاطىء الشرقي لنهر «كنهار» وبدأ هذا الجيش تدريجياً يدنو من «بالاكوت» .

فلما اتضح أن جيش السيخ سيهاجم «بالاكوت» نازلاً عن «منى كوت» اتخذت إجراءات مؤثرة وحاسمة لخوض المعركة المصيرية ، وكان موقع البلد ، ووضع ساحة القتال الطبيعي يلائمان المجاهدين .

كان الموقع الجغرافي لـ «بالاكوت» مخيباً لشيرسنكه ؛ فأراد شيرسنكه أن يعود يائساً خائباً ، لكن السكان المحليين أرشدوه الطريق الجبلي الذي يؤدي إلى وادي «بالاكوت» الذي يقيم به السيد أحمد ورفقاؤه فوصل جيش شير سنكه إلى «منى كوت» في ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (٦/ مايو ١٨٣١ م) وأحاط بها من

كل مكان كالسحاب ، وهاجم جيش شيرسنكه الغزاة نازلاً من «منى كوت» وكان السيد أحمد يتقدم رفقاءه والمجاهدون يتبعونه ، يمطر عليهم السيخ وابلاً من الرصاص ، فكبر السيد أحمد ، وتقدم نحو الأعداء ، فكان يمشي إليهم مشية الليث يهاجمهم كالضرغام على فريسته ، وكان حجر ضخم بارزاً في حقل يرتفع طوله ٢٥ أو ٣٠ قدماً فجعله سداً بينه وبين أعدائه ، وموقعاً لشن الغارات عليهم ، فكان يوجه منه إليهم الطلقات النارية ، فأصابت عدداً لا يحصى من الأعداء ، وقضت عليهم ، وأحدث ذلك ضجة في صفوف الأعداء ، أجبرتهم على التراجع ، فبدأ العدو ينسحب ، ويحل التلاع والجبال مخافة ، وطاردهم المجاهدون إلى مخارم الجبل وجرّوهم بأقدامهم ، وقتلوهم بسيوفهم.

في هذا الصخب واللجب ، اختفى السيد أحمد ، وأيقن المجاهدون أنه لقي ربه شهيداً ، فجعلوا يبحثون عنه ، وفي نفس الأثناء أصيب الشيخ محمد إسماعيل برصاصة في رأسه فقضى نحبه ، واستشهد ، وأدرك الأعداء أن المجاهدين قد زحزحوا وفقدوا أعصابهم بشهادة قادتهم ، فشنوا هجوماً جديداً عليهم ، وصوبوا إليهم بنادقهم ، وواصلوا قصفهم بالنار ، فسقط كثير من المجاهدين شهداء ، وانقلب ظهر المجن ، ورجحت كفة ميزان الحرب في صالحهم ، وسقى الله كبار العلماء والمشايخ ، والمجاهدين كأس الشهادة ، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وقضوا نحبهم ، وبذلوا أرواحهم في سبيله ، وسجلوا أروع أمثال البطولة والفداء ، وما بدّلوا تبديلاً ، وقد استشهد في هذه التربة أكثر من ثلاثمئة مجاهد.

انتهى في هذه القطعة من أرض «بالاكوت» سفر تلك القافلة المباركة التي بدأ رحلتها السيد أحمد في ٧ جمادى الآخرة ١٢٤١هـ (١٧/ يناير ١٨٢٦م) صباحاً ، مع رفقائه من الغزاة المجاهدين في وطنه «رائي بريلي» فوصلت إلى غايتها النهائية في ٢٤/ من ذي القعدة ١٢٤٦ هـ (٦ مايو ١٨٣١ م) وضحّى للوصول إليه بشعبيته ، والإقبال عليه ، ورجوع الناس إليه ، وحبهم له ، وقطع في سبيلهم الصحارى ، والأودية ، وعبر الأنهر ، وتسلّق الجبال ، وقطع الغابات ، والأدغال ، وقاسى جفاء الدرانيين ، وفتورهم ، ونفورهم ، وواجه الغدر والخيانة ، والطغيان ، والعصيان في هذه المعركة التي جرت في «بالاكوت»

شرب السيد أحمد ، والشيخ محمد إسماعيل كأس الشهادة مع عدد كبير من أولئك الصالحين والأتقياء ، الذين كانت قلوبهم تتدفق بمحبة الله ، وتتوقد فيها جذوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، التي جعلت لهم أنفسهم وأموالهم هباءً منثوراً ، ورؤوسهم وجلودهم عبئاً عليهم.

* * * *
* * *
* *
*

مقدّمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد!

فإذا هبت ريح الإيمان جاءت بالأعاجيب في العقيدة ، والأعمال ، والأخلاق ، ورأى الناس روائع من الشجاعة واليقين ، والعفة والأمانة ، والإيثار وهضم النفس ، وروح التطوع والاحتساب ، والتواضع في المظاهر ، وكبر النفس وسمو النظر ، ورأوا آيات من العدل والرحمة ، والمحبة والوفاء كادوا ينسونها ويقطعون منها الرجاء.

وقد هبت هذه الريح المباركة في فترات تاريخية ، قصرت أحياناً وطالت أحياناً ، وهي معلومة مسجلة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، والتجديد الإسلامي.

وقد هبت هذه الريح في الهند في فجر القرن الثالث عشر الهجري ، وتجددت ذكريات القرون الأولى يوم قام الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بدعوة التوحيد ، والتجديد والجهاد.

ودعا إلى الدين الخالص ، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان ، والحماسة الإسلامية ، والجهاد في سبيل الله ، ونظم جماعة كبيرة ، وأحسن تربيتها الدينية والحربية ، وهاجر معها من طريق بلوجستان ، وأفغانستان إلى حدود الهند الشمالية ، واتخذها مركزاً لدعوته ، ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة ، وقد هزم هؤلاء المجاهدون السيخ (Sikhs) (الذين احتلوا بنجاب ، وأذاقوا المسلمين سوء العذاب) في معارك كثيرة.

وأسس هؤلاء المجاهدون دولة شرعية في الحدود الهندية الشمالية الغربية تشتمل على «بشاور» ، وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود الشرعية ، وطبقوا النظام الإسلامي المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً ، ولكن ثارت عليهم القبائل التي تقطن الحدود لمصادمة هذا النظام لمآربهم الشخصية وعاداتهم الجاهلية ، فقلبوا هذا النظام ، ثم اصطدم المجاهدون بجيش السيخ في وادي «بالاكوت» فاستشهد الإمام أحمد وصاحبه الشيخ إسماعيل ، وكبار أصحابهما في ٢٤/ من ذي القعدة/ عام ١٢٤٦ هـ (٦/ من مايو/ عام ١٨٣١ م) ، ولجأ القَلُّ إلى الجبال ، ولم يزل هؤلاء وأصحابهم في الهند قائمين على الحق ، باذلين في ذلك النفس والنفيس ، والإنجليز يطاردونهم ، ويطاردون أملاكهم وأموالهم ، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة[١] ، وهم صابرون محتسبون ، لا يضطربون ولا يتزعزعون ، ولا يلينون ولا يستكينون ، حتى كانت ثورة ١٨٥٧ م ، التي تزعمها المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون ، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها ، وقويل زعماؤها بصفة خاصة ، والمسلمون بصفة عامة بوحشية نادرة[٢] ، واستتب الأمر للإنجليز ، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورة عامة ، وبقي هذا الوضع إلى ١٩٤٧ م ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التقسيم ، وقامت الجمهورية الهندية ، وقامت دولة باكستان الإسلامية وهي تشتمل على أكثر المناطق التي كانت مركز نشاط المجاهدين وكفاحهم ، وكانت في مقدمة مخطط هذه الحركة الإصلاحية الجهادية وهدفها الأول.

وقد شرح الله صدري في سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٣ م) لأن اختار روايات من هذا التاريخ العجيب ، فأصوغها في العربية في أسلوب أدبي ، قصصي شائق ، لا يشوبه شيء من المبالغة فضلاً عن الكذب ، تدل على مكانة قائد هذه الحركة العبقري . وما أوتي من مواهب عظيمة ، وعناصر قوية ، وعلى مدى نجاحه في

---

(١) اقرأ كتاب The Great Wahabi Case وكتاب Indian Mussalmans لوليم هنتر W. W. Hanter.

(٢) اقرأ كتاب المؤلف «المسلمون في الهند» فصل «الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند».

تربية النفوس وتزكيتها ، وعلى إخلاصه وتجرده للغاية التي كان يسعى لها ، وتفانيه في دعوته ، وتدل على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدعوة الإسلامية ، والتربية الإيمانية في نفوس تلاميذها ، ونشرت هذه الروايات في مجلة «المسلمون» الغراء حين كانت تصدر من القاهرة في سنة ١٩٥٣ م في عددي يناير ، وفبراير من هذه السنة ، ثم شغلت عنها لأعمالي الكتابية والتأليفية والدعوية الأخرى ، حتى مضى على ذلك عشرون سنة .

ثم لفت نظري بعض إخواني[١] الأعزاء إلى قيمة هذه السلسلة القصصية ، وما لها من تأثير في نفوس القراء ، واستجابة خفية لقبولها وتقليدها ، وإنني إذا لم تساعدني الظروف ، ولم يتسع وقتي لوضع تأليف مستقل في سيرة هذا الإمام الكبير ، وفي تاريخ دعوته وجهاده ، وفي اللغة العربية ، كما فعلت في أردو[٢] ، فلا مانع من أن أكمل هذه السلسلة ، فقد تكون صورة مصغرة من هذا التاريخ الكبير الذي يشغل آلافاً من الصفحات[٣] ، ويمتد على مساحة مكانية تتكون من آلاف من الأميال وعلى مساحة زمانية تستغرق قرناً كاملاً[٤] ، ويستطيع القارىء الذكي أن يكوّن من هذه الشذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرة متناسقة جامعة ، عن هذا الجهاد الطويل ، وعن هذه المدرسة المنجبة المنتجة ، فيكون في ذلك سد إلى حد لهذا الفراغ ، الواقع في المكتبة الإسلامية ، العربية المعاصرة[٥] ،

---

(١) في مقدمتهم محمد الحسني ، وسعيد الأعظمي محررا مجلة «البعث الإسلامي» ، العربية الصادرة في ندوة العلماء بلكهنؤ .

(٢) لكاتب هذه السطور كتاب «سيرة سيد أحمد شهيد» في جزأين يقع كل جزء في نحو خمسمئة صفحة بالقطع الكبير

(٣) للكاتب الباكستاني الشهير ، والصحافي الكبير المرحوم غلام رسول مهر كتاب «سيد أحمد شهيد» في أربعة مجلدات مجموع صفحاتها ١٩٢١

(٤) يبتدىء هذا التاريخ في الحقيقة من عام ١٢٢٥ هـ حين بدأ السيد نشاطه ، ويدوم إلى سنة ١٣٢٠ هـ العام الذي توفي فيه الشيخ عبد الله بن ولايت علي الصادقفوري أمير جماعة المجاهدين ، وهي مدة نشاط هذه الجماعة وقيادتها .

(٥) يجب أن ينوه المؤلف هنا بفضل صديقه الفاضل الكاتب القدير وأديب العربية الكبير الأستاذ المرحوم علي الطنطاوي في تأليف أول كتاب يصدر من قلم أحد كتاب العرب =

وريٌّ لكثير من النفوس المتعطشة إلى معرفة هذا الفصل الرائع من الجهاد الإسلامي ، وتاريخ التجديد الديني في الهند ، و«إن لم يصبها وابل فطل».

وكنت إذا قرأت روايات «الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني» (م ٣٥٦ هـ) وأنا في أيام الطلب ، وريعان الشباب ، أُؤخذ بسحر أدبها ، ولغتها العربية الفصحى وتعبيرها الجميل ، وتصويرها البارع لخواطر النفس وأشكال الحياة ، وكنت أغار على هذه العربية الفصحى ، التي نزل بها القرآن ، وتكلم بها الرسول وأصحابه ، أن تسخر للأغراض التافهة ـ إذا لم أقل الخسيسة ـ التي ألف لها هذا الكتاب ، وأن تضيع في الألحان والأغاني ، ورنات المثالث والمثاني ، وتصور جوانب الضعف ومواضع السقط ، ومكامن الريب في المجتمع الإسلامي الذي عاش في القرون المشهود لها بالخير ، وكنت أتمنى أن تستخدم هذه الملكة البيانية ، وهذه الثروة اللغوية الفذة ، وهذا الأسلوب القصصي الخفيف الجميل ، في مقاصد شريفة وأغراض نبيلة ، وفي تصوير جانب مشرق من تاريخ جميل مشرق.

وقد حاولت بقدر استطاعتي أن أحاكي هذا الأسلوب في هذه القصص ، التي اخترتها على عجل ، من تاريخ الإصلاح والتجديد في الهند ، فإن لم يتحقق لي نجاح الأصبهاني وغيره ـ وأنى يدرك الضالع شأو الضليع ـ فلا تفوتني فائدة التقليد لأسلوب ساحر ، ولا تفوتني نية القاصد ، وأجر العامل.

ولهذه الحكايات التاريخية والروائع الإيمانية والخلقية فائدة ، لا يستهان بقيمتها وأهميتها ، وهي أنه يستطيع القارىء الذكي أن يقيس بها عظمة الشخصية التي هي مصدر كل هذا الفضل ، ومصدر كل انقلاب ، وكل دعوة وجهاد ، والتي منها انبثق هذا التاريخ ، وانتشر هذا النور ، وعم هذا البر ، وهي شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولم يكن المجددون في كل دور ، والمربون في كل جيل والمصلحون في كل بلد إلا رشحاً من رشحات هذه التربية والدعوة ، وظلاً من ظلالها الفيحاء ، فإذا كان هؤلاء المجددون ، وأولئك الدعاة والمربُّون ، وهم

= وهو كتيب «أحمد بن عرفان الشهيد» في ٤١ صفحة صدر سنة ١٣٨٠ هـ في سلسلة «أعلام التاريخ» من دمشق.

تلاميذ هذه المدرسة المحمدية ، وأتباع المتخرجين فيها ، بهذه المكانة من الإيمان والإخلاص ، وعلى هذه القدرة من التأثير والإنتاج ، فكيف بالرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأكرمه بالوحي ، والكتاب المعجز الخالد ، وأيده بروح القدس ، وكيف بالناس الذين نشؤوا في أحضانه ، وتربوا بين سمعه وبصره ، وكان وجود هؤلاء المجددين والمربين في القرون المتأخرة ، وفي بلاد بعيدة عن مهد الإسلام ، ومركز الدعوة الإسلامية ، دليلاً على خلود هذا الدين ، وتدفقه بالحيوية والتوليد ، وعلى أن شجرة الإسلام لا تزال تثمر ، وخليته لا تزال تعسل ، وهي فائدة ليست ضئيلة القيمة ، ولا قليلة الأهمية .

ومن خصائص هذه الجماعة التي تلفت النظر ، أنها كانت تجمع بين جهاد النفس وجهاد العدو ، وبين الحب لله والخشية له ، والحب لله والبغض لله ، وبين الزهد والعبادة ، والحمية الدينية والغيرة الإسلامية ، وبين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح في المسجد والبيت في ظلام الليل ، والتكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، صفات وجوانب خُيِّل لكثير من المطلعين على التاريخ ، المختبرين لحركات الإصلاح أنها متناقضة متضادة ، وذلك بفضل التربية الدقيقة التي أخذ بها قائدها ومربيها ، والوعي الديني الصحيح الذي نضج ورسخ ، واستوعب الحياة كلها ، وبسبب أنها لم تمر بمرحلة التربية الدينية مراً عابراً سريعاً ، ولم تخض المعركة من غير استعداد ، بل أخذت الأمور بنصابها ، وأتت البيوت من أبوابها ، وذلك هو المثل الكامل لجيل مؤمن مجاهد ، والنموذج الرائع للربانية الصحيحة المطلوبة في كل عصر .

ورأيت من المناسب أن أضم إلى هذه الشذرات التاريخية تعريفاً موجزاً بإمام هذه الجماعة ، وقائد الحركة ، حتى يكون القارىء على بينة من أمره ، وإلمام بسيرته وحياته ، ووقع اختياري على ما جاء في المجلد السابع لنزهة الخواطر ، لوالدنا العلامة السيد عبد الحي الحسني لاختصاره واحتوائه على المعلومات الأساسية ، وجعلته مقدمة لهذا الكتاب .

وقد بدا للمؤلف أن يتناول بعض الكلمات الغريبة أو التي يلتوي فهمها على الطالب المتوسط في مدارسنا بالشرح والإيضاح ، فعلق على بعض الكلمات عسى أن ينتفع بالكتاب في الأوساط الدراسية وتربية الناشئة الإسلامية .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .

(يوم الخميس) بهوبال ـ
٤ محرم الحرام ١٣٩٣ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

السيد الإمام أحمد بن عرفان البريلوي

السيد الإمام الهمام حجة الله بين الأنام ، موضح محجة الملة والإسلام ، قامع الكفرة والمبتدعين وأنموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين مولانا الإمام المجاهد الشهيد السعيد أحمد بن عرفان بن نور الشريف الحسني البريلوي ، كان من ذرية الأمير الكبير بدر الملة المنير شيخ الإسلام قطب الدين محمد بن أحمد المدني .

ولد في صفر سنة إحدى ومئتين وألف ببلدة «رائي بريلي»[1] في زاوية جده السيد علم الله النقشبندي البريلوي ، ونشأ في تصون تام وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً ، براً تقياً ، ورعاً عابداً ، ناسكاً صواماً ، قواماً ذاكراً لله تعالى في كل أمر ، رجاعاً إليه في سائر الأحوال ، وقافاً عند حدوده وأوامره ونواهيه ، لا تكاد نفسه تمتنع من خدمة الأرامل والأيتام ، كان يذهب إلى بيوتهم ويتفحص عن حوائجهم ويجتهد في الاستقاء ، والاحتطاب ، واجتلاب الأمتعة من السوق ، ولكنه مع ذلك كان لا يرغب إلى تلقي العلوم المتعارفة ، فإنه لم يحفظ من القرآن الكريم إلا سوراً عديدة ، ومن الكتابة إلا نقش المفردات والمركبات ، وذلك في ثلاث سنين ، وكان صنوه الكبير إسحاق بن عرفان البريلوي يحزن لذلك ، وكان بصدد تعليمه ، فقال والده : دعوه وشأنه وكِلُوه إلى الله سبحانه ، فأعرض عنه ، فلم يزل كذلك حتى

---

(١) مدينة تبعد من «لكهنؤ» عاصمة الولاية الشمالية بخمسين ميلاً (٧٢ ك م) في جهة الشرق ، وهي مديرية من مديريات الولاية الشمالية (Utter Pradesk).

شد عضده فرحل إلى «الكهنؤ» مع سبعة رجال من عشيرته ، وكان الفرس واحداً يركبونه متناوبين وقد ترك نوبته لهم ، فلما قطعوا مرحلة واحتاجوا إلى حمال يحمل أثقالهم ، وجدُّوا في البحث عنه فما وجدوه وهو يرى ذلك ، فقال لهم: إن لي حاجة إليكم أرجوكم أن تفضلوا علي بإسعافها ، فقالوا له: على الرأس والعين ، فقال لهم: أكدوا قولكم بالأيمان فأكدوها ، فقال: اجمعوا أثقالكم وضعوها على رأسي فإني أقدر أن أحتملها فحملها ، ودخل لكهنؤ ، فلقيه أحد رجال السياسة وأكرمه ، وكان مأموراً من الدولة أن يجمع مئة رجل من الفرسان للعسكر ففوض إليه خدمتين من الخدمات العسكرية فتبرع بهما لرجلين من رفقائه وسار مع العساكر السلطانية ، فلما وصل إلى «بادية محمدي» ورغب السلطان إلى التنزه والصيد غاب ذات يوم عن رفقائه فاغتموا وظنوا أنه كان فريسة سباع حتى لقيهم رجل من أهل البادية وقص عليهم: إني رأيت رجلاً وضيئاً يلوح على جبينه علائم الرشد والسعادة وعلى رأسه جرة ملآنة يحملها ، ويذهب فرحان نشيطاً مع فارس من فرسان العسكر ، وكان العسكري يقول: إنه وجدني في أثناء الطريق ، وكان معي حمال ضعيف لا يستطيع أن يحمل إلا بشق النفس ، إلا أنه حملها خوفاً مني ، وكان يبكي ، فتقدم إلى هذا الرجل وشفع له ، فقلت له: إني لا أستطيع أن أحملها فوق رأسي ، فإذا رق له قلبك ورثيت لضعفه فتقدم واحمل ، فرضي بذلك وحملها وكانت رفقته يعلمون عادته ، فعلموا أنه هو.

قال السيد محمد علي بن عبد السبحان البريلوي صاحب «المخزن»: إنه كان قبل غيبته يحرضني على الترك والتجريد ، والإقبال على الآخرة ، ويقول: اذهبوا إلى دهلي ولازموا صحبة الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي واغتنموه ، فلما ظن أني لا ألازمه في ذلك السفر ، ولا أرضى أن يذهب ويلقي نفسه في الخطر غاب عني وذهب بنفسه حتى دخل دهلي ، فلما سمع الشيخ عبد العزيز المذكور أنه سبط الشيخ أبي سعيد وابن أخ السيد نعمان[1] تلقاه ببر وترحيب وأسكنه في

(١) من كبار علماء عصرهما ، ومن كبار المربين والعارفين ، اقرأ ترجمتهما في الجزء السادس من «نزهة الخواطر».

المسجد الأكبر آبادي عند صنوه عبد القادر[١]، وأوصاه به فتلقى منه شيئاً نزراً من العلم، وبايع الشيخ عبد العزيز وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة، وفاق الأقران، وأتى بما يتحير منه أعيان البلدة في العلم والمعرفة، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومئتين وألف.

ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل الله فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد نواب ميرخان ولبث عنده بضع سنين كان يحرضه على الجهاد، فلما رأى أنه يضيع وقته في الإغارة ويقنع بحصول المغنم تركه ورجع إلى دهلي وشد المئزر بنصرة السنَّة المحضة، والطريقة السلفية واحتج ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له، وكبت أعداءه، وهدى رجالاً من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الأمراء على الانقياد له غالباً وعلى طاعته، وأول من دخل في بيعته الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي[٢]، وناس كثيرون من عشيرة الشيخ عبد العزيز، وكل ذلك في حياة شيخه، فنهض من دهلي مع جماعة من الأنصار إلى «بهلت» و«لوهاري» و«سهارنفور» و«كدة مكتيسر» و«رام فور» و«بريلي» و«شاهجها نفور». و«شاه آباد» وغيرها من القرى والبلاد، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه، وطهارة أنفاسه، وصدق نيته، وصفاء ظاهره وباطنه، وموافقة قوله بعمله، والإنابة إلى الله سبحانه، خلق كثير لا يحصون بحد وعد، بل قام عليه جمع من المشايخ قياماً لا مزيد عليه، بدَّعوه،

---

(١) هو العالم الجليل المصلح الكبير عبد القادر بن الإمام ولي الله الدهلوي، كان من كبار المخلصين والعلماء الربانيين، وهو من أول من نقل معاني القرآن الكريم إلى لغة «أردو» النصيحة ونفع الله بهذا العمل خلائق كثيرة، وصحت عقائدهم وأخلاقهم، اقرأ ترجمته الضافية في الجزء السابع من «نزهة الخواطر» وفي الجزء الرابع سلسلة المؤلف لرجال الفكر والدعوة في الإسلام، صدر عن دار ابن كثير بدمشق.

(٢) من كبار العلماء المحققين وقادة الإصلاح في الهند في العهد الأخير، ومن أخص أصحاب السيد، اقرأ ترجمتهما الحافلة في الجزء السابع من نزهة الخواطر، (الندوي).

وناظروه ، وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يهاب ، وله إقدام وشهامة ، وقوة نفس توقعه في أمور صعبة فيدفع الله عنه ، وكان دائم الابتهال كثير الاستعانة ، قوي التوكل ثابت الجأش ، له أشغال وأذكار يداوم عليها بكيفية وجمعية في الظعن والإقامة حتى دخل بلدته «رايء بريلي» وتزوج بها بحليلة صنوه المرحوم إسحاق بن عرفان وهو أول نكاح بأيم في السادة والأشراف ، بأرض الهند[1] ثم توارث فيهم ، وكان الشيخ إسماعيل بن عبد الغني ، والشيخ عبد الحي بن هبة الله المذكوران ، وخلق آخرون في العلماء والمشايخ في ركابه يأخذون عنه الطريقة ، فلبث ببلدة «رايء بريلي» مدة ثم سافر إلى لكهنؤ ، وأقام بها على تل الشيخ بير محمد اللكهنوي على شاطىء «نهر كومتي» مع أصحابه ، فبايعه ألوف من الرجال ، وتلقاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والإكرام وضيفه ، وعرض عليه خمسة آلاف من النقود ، وكاد أن يلقاه السلطان غازي الدين حيدر ملك «لكهنؤ» فخاف مجتهد الشيعة أن يبدل مذهبه فاحتال في المنع ، فنهض السيد الإمام وخرج من لكهنؤ ، ودار البلاد فنفع الله به خلقاً كثيراً من عباده.

ثم رجع إلى «رايء بريلي» وسافر إلى الحجاز ومعه سبعة وخمسون وسبعمئة من أصحابه فركب الفلك في «دلمتو» من أعمال رايء بريلي ، وهي على شاطىء «نهر كنك» فركب وبذل ما كان معه من شيء قليل من الدراهم على المساكين ، وقال : نحن أضياف الله سبحانه لا نلجأ إلى الدينار والدرهم ، فانطلق ومر على «إله باد» و«وغازي بور» و«بنارس» و«عظيم آباد» وغيرها من بلاد الهند ، فدخل في بيعته خلق لا يحصون بحد وعد ، حتى وصل إلى «كلكته» وأقام بها أياماً قلائل بإذن الحاكم العام للهند ، ثم ركب السفينة وذهب إلى الحجاز سنة سبع

---

(١) كان المسلمون في الزمن الأخير يتعيرون جداً من تزويج الأيامى وزواجهن ، وكانوا يعدون ذلك سبة وعاراً قد يؤدي إلى مطاردة من يرتكب هذه «الجريمة» وإقصاء الزوجين ومقاطعتهما ، وأصبح ذلك عرفاً في البيوتات الشريفة ، والأسر الكريمة ذات النسب والحسب ، ظهر ذلك في آخر الدولة المغولية بتأثير الاختلاط بالهنادك الذين يحرمون نكاح الأيم ، ويرون فيه عاراً كبيراً واستفحل هذا الداء على مر الأيام حتى حاربه السيد بكل عزم وصرامة ، ودعا إلى إحياء هذه السنة ، وضرب له مثالاً عملياً ، حتى شاع ذلك في المسلمين ، وأصبح شيئاً عادياً ، (الندوي).

وثلاثين ومئتين وألف وحصل له الوقائع الغريبة وكشوف وكرامات في ذلك السفر الميمون المبارك ، وانتفع به خلق كثير من أهل الحرمين الشريفين[١] وحج وزار ، وقفل بعد سنة حتى وصل إلى «راىء بريلي» في سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف فلبث بها نحو سنتين وبعث الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي المذكورين إلى بلاد شتى للتذكير والإرشاد ، فدارا البلاد وهدى الله بهما خلقاً كثيراً من العباد.

وكان السيد الإمام يجهز للهجرة والجهاد في تلك الفرصة ، وخرج مع أصحابه في سنة إحدى وأربعين من بلدته ، وسافر إلى بلاد «أفغانستان» فلما وصل إلى «بنجتار» وقف بها ، وحرّض الـ نين على الجهاد وبعث أصحابه إلى «كابل» و«كاشغر» و«بخارى» ليحرضوا ملوكها على الشركة والإعانة فبايعه الناس للجهاد ، وولوه عليهم واجتمع تحت لوائه ألوف من الرجال ، وزحف على جيوش «رنجيت سنكه» ملك «بنجاب» وهو من قوم طوال الشعور ، ففتح الله سبحانه على يده بلاداً حتى قرئت باسمه الخطبة في بلدة «بيشاور» فأعلى الله مناره ، وكبت أعداء الدين ، وجبل قلوب الأمراء والخوانين على الانقياد له غالباً وعلى طاعته ، فأحيا كثيراً من السنن المماتة ، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات ، فتعصب أعداء الله ورسوله في شأنه وشأن أتباعه حتى نسبوا طريقته إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي[٢] ، ولقبوهم بالوهابية ، ورغبوا إلى

---

(١) منهم بعض أعيان مكة وعلمائها كالشيخ مصطفى إمام المصلى الحنفي ، وخواجه آغا الماس الهندي ، والشيخ شمس الدين شطا ، والشيخ حسن أفندي نائب سلطان مصر ، وعدد من كبار علماء المغرب كالسيد محمد ، حافظ الجامع الصحيح للبخاري مع شرحه للقسطلاني ، والمحدث شيخ حمزة ، والشيخ أحمد بن إدريس. (الندوي).

(٢) اعتاد الإنجليز أن ينسبوا كل حركة إصلاحية ودعوة إلى التوحيد والدين الخالص وهجر البدع والخرافات في العهد الأخير إلى حركة الشيخ محمد عبد الوهاب ويثبتوا أن صاحبها قد تتلمذ على الشيخ واقتبس من فكرته ودعوته ، كذلك كان موقفهم من دعوة السيد الإمام وصاحبة الشيخ العلامة إسماعيل الشهيد لمصالحهم السياسية. وهذا وإن لم تكن فيه غضاضة ، فقد ظل المصلحون يقتبس بعضهم من بعض. لم يثبت تاريخياً كما حققه كثير من الباحثين ولم يتحقق أن أحدهما لقي أحد تلاميذ الشيخ أو دعاته. (راجع =

الكفار وصاروا أولياءهم في السر ، حتى انحازوا عنه في معركة «بالاكوت» فنال درجة الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانهم بالقدح المعلى ، وبلغ منتهى أمله وأقصى أجله في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومئتين وألف ، واستشهد معه كثير من أصحابه.

وقد صنف كثير من أصحابه كتباً مبسوطة في حالاته ومقاماته منها «الصراط المستقيم» بالفارسية للشيخ إسماعيل ، وللشيخ عبد الحي كليهما ، وقد عربه الشيخ عبد الحي المذكور في الحجاز لأهل الحرمين الشريفين ، ومنها «منظورة السعداء» للشيخ جعفر علي البستوي ، كتاب بسيط بالفارسي ، ومنها «مخزن أحمدي» للشيخ محمد علي بن عبد السبحان الطوكي ، ومنها «سوانح أحمدي» للشيخ محمد جعفر التهانيسري ، ومنها «الملهمات الأحمدية» للفتى إلهي بخش الكاندهلوي ، اقتصر فيه على ما وصل منه إليه من الأذكار والأشغال ، ومنها «الوقائع الأحمدية» للشيخ محمد علي الصدر بوري في مجلدات كبار[1].

* * *

الحركة الإسلامية الأولى في الهند تأليف الأستاذ مسعود الندوي) أما ما يجده القارىء من موافقات أو التقاءات في الدعوتين أو بين «رسالة التوحيد» للشيخ وكتاب «تقوية الإيمان» أو «الصراط المستقيم» للشيخ إسماعيل الشهيد فلأن مصدرهما واحد ، وهي الدراسة العميقة الأصيلة للكتاب والسنة والتضلع من روح الإسلام الصافية والغيرة على عقيدة الإسلام ودعوته ليس إلا . (الندوي).

(١) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» الجزء السابع ، طبع دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد (الهند) ودار عرفات ، تكية كلان (رائي بريلى) (الهند).

سموه باسمي

قام السيد الإمام أحمد الشهيد ببرولة إصلاحية دعوية ، ما بين دهلي وسهارنفور في سنة ١٢٣٣ هـ وزار القرى ، والمدن ، ومكث بها أياماً وأسابيع ، يدعو الناس إلى الله ، والتمسك بالسنة ، وهجر البدع والخرافات ، ويحث على تزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، ويقوم شيخ الإسلام عبد الحي البرهانوي ، وهو من أخص أصحابه ، والمجاهد الجليل الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي ، وغيره من علماء الجماعة بالوعظ ، والنصح ، والإرشاد ، وقد هدى الله في هذه الجولة الموفقة خلقاً يبلغ عددهم إلى الألوف ، وتاب على يد السيد خلق لا يعلم عددهم إلا الله ، وتابوا عن الشرك ، وعادات الجاهلية ، وشعائر الوثنية ، وبايعوا على الجهاد في سبيل الله .

وتاب على يد أصحابه الذين خرجوا في القرى يعظون ، ويعلِّمون الناس الدين ، غلام هندكي في التاسعة من سنه ، كان يحضر وعظه ، وشرح الله صدره للإسلام ، وأحب هذا الدين وأهله وأراد أن يسلم ، فذهب إلى الشيخ رمضان ـ وهو الواعظ الذي غرس في قلبه حب الإسلام ـ فإذا بجمع من الوثنيين من أهل قريته ، واقفون تحت المسجد يستمعون وعظه ، قال: فوقفت بينهم ، وتهيبت لصغر سني ، ومكان هؤلاء ، ثم خامرني سرور عجيب لا عهد لي به واعترتني نشوة لم أعرفها من قبل ، فغلبت على أمري فتقدمت إليه ، وأنا لا أملك من أمري شيئاً ، وقلت للشيخ: أنا أريد أن أدخل في الإسلام ، فلقنني الشهادة ، وأدخلني في زمرة المسلمين ، فأجلسني بجواره ، وأحَدَّ إلي النظر وقال: هل

تريد أن تدخل في الإسلام حقاً؟ قلت : نعم! فأرسلني مع أخ له إلى السيد ، وهو في سهارنفور ، وأسلمت على يده الكريمة ، وقد غمرتني موجة السرور .

يقول من كان في هذا المجلس: إنه لما وصل هذا الغلام إلى السيد ، أدناه بلطف ، وأجلسه في جنبه ، وكان يمسح رأسه بلطف وشفقة ، مرة بعد مرة ، ويقول: يا سبحان الله ، ما أعظم هدايته ، إذا أراد بأحد خيراً ، قذف في قلبه نوراً ، فبحث عن الصراط المستقيم ، ثم التفت إلى الشيخ عبد الحي البرهانوي ، وقال: بالله لقنه كلمة التوحيد ، ولا تتأخر في هذا البر العظيم طرفة عين ، فلقنه الشيخ التوحيد ، ومبادىء الإسلام ، وقال السيد: اختر له اسماً إسلامياً ، وبادر الشيخ وقال: نسميه «كريم الدين» .

وكان في هذا المجلس جم حاشد من أعيان البلد ووجهائه ، وسراة[1] الناس ، وكان اسم عدد منهم «كريم الدين» فقال بعضهم: لا تسموه بهذا الاسم ، فإنه اسم كثير من أعيان الناس وإنهم يأنفون من أن يكون لهم هذا الغلام سمياً ، وإنهم يشعرون في ذلك بإهانة ، فابتدر السيد قائلاً: إذاً سموه باسمي ، سموه «أحمد»؛ فسكت الناس ، وانقطع لسان المعترضين .

وأسلمه السيد إلى الشيخ «مغيث الدين» وهو من أخص أصحابه ، وقال: علمه الصلاة والقرآن ، وأحكام الشرع ، وآداب الدين ، فإذا أعلمتك بقصدي للحج ، أخذته معك ، فإنه سيسعد بالحج إن شاء الله ، وكان كذلك فقد رافق السيد في رحلته التاريخية للحج ، واشتهر «بالحاج أحمد» .

وكان لا بد من الإنكار على هذه الحمية الجاهلية ، والأنفة النفسانية ، فأقبل السيد على الشيخ عبد الحي ، ومولانا محمد إسماعيل ، وقال: لا تزال في قلوب المسلمين ، وحياتهم ، في هذه البلاد بقايا جاهلية ، ورواسب عهد الشرك ، والوثنية ، إذا لم تقتلع جرثومتها[2] من القلب ، يخاف أن يكون في ذلك زوال إيمانهم ، وخلل في دينهم .

---

(١) السراة: كرام الناس .

(٢) الجرثوم والجرثومة من الشيء: أصله .

منها: أنه إذا مات ولد أحدهم، ورزقه الله ولداً آخر، لم يسمه باسم السابق تشاؤماً، وحذراً من أن يموت.

ومنها: أن فقراء المسلمين لا يستطيعون أن يسموا أولادهم بأسماء الأغنياء والأعيان، والوجهاء.

ومنها: أن الأغنياء، وأشراف الناس يستنكفون عن قبول دعوة الفقراء، ويرون في ذلك غضاضة وعاراً[1].

ومنها: أن الفقراء، وعامة الناس لا يستطيعون أن يطبخوا في ولائمهم، ومآدبهم الأطعمة التي يطبخها الأغنياء والأشراف، وإن ذلك يعتبر معارضة ومنافسة لهم، فيما يعتقد من خصائصهم.

وذكر أمثال هذه «الأعراف» الجاهلية، وما تواضعت عليه الطبقات الرفيعة، وعلية القوم، من مصطلحات وعادات، ما أنزل الله بها من سلطان، وما جاءت في الحديث والقرآن، ولم تعرف في القرون المشهود لها بالخير، وإنما هي أسماء سموها هم، وآباؤهم، واخترعها كبراؤهم، ورؤساؤهم، ثم أمر الشيخ عبد الحي بأن يلقي في هذا الموضوع خطبة، وينبه الناس على ما فيها من مفاسد، ومكايد للشيطان، فألقى خطبة بليغة، أخذت بمجامع القلوب، وذرفت العيون بالدموع، حتى بلت الثياب، وعلا هتاف الناس، يقولون: آمنا وصدقنا، وسمعنا وأطعنا. ثم دعا السيد في ابتهال وخشوع، وكان يوماً مشهوداً، وتقدم الناس الذين منعوا من تسمية «كريم الدين» فبايعوا السيد من جديد، وتابوا على يده.

* * *

(١) ذلة ومنقصة.

توبة نصوح

نزل السيد وأصحابه في «لكهنؤ» سنة ١٢٣٤ هـ على تل مشرف على البلد ، فيه الجامع الكبير ، واشتغل بالدعوة والإصلاح وقد اجتمعت في العاصمة[١] جميع الأسباب ، والعوامل التي تفسد الأخلاق ، وتلهي الناس عن الخالق والآخرة ، وعن غاية الحياة ، وترضي الشيطان ، من شباب وفراغ وجدة[٢] ، ووجود طبقة مترفة ، لا هم لها في الحياة إلا إرضاء الشهوات ، والاشتغال بالملاهي والملذات ، وبسبب وجود حكام جائرين ، لا يخافون عقاباً ، ولا يرجون حساباً ، وحكومة شيعية ، غالية متطرفة ، وفشت الأخلاق الجاهلية ، وانتشرت الملاهي والمعازف[٣] وظهرت القينات ، والمغنيات ، والطبقات المحترفة بتسلية الأمراء والأغنياء ، وظهر الشطار والمتكسبون بطرق غير مشروعة وغير شريفة ، وفشا في المسلمين تقليد الأعاجم ، والوثنيين ، في الشعائر ، والعادات ، والأزياء والأخلاق .

واجتمع في المدينة الحذاق في كل صناعة وفن ، ولما كانت مركز حكومة

---

(١) كانت لكهنؤ عاصمة إمارة أوده (Oudh) في الولاية الشمالية في آخر أيام الدولة المغولية ، كانت تحكم فيها أسرة إيرانية الأصل ، شيعية المذهب ، استقلت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، وانقرضت هذه الحكومة في سنة ١٨٥٧ م ، وكان شاه غازي الدين حيدر ملك البلاد ، حين زار السيد لكهنؤ ، ومعتمد الدولة آغا مير رئيس الوزراء .

(٢) قال أبو العتاهية :

إن الشباب ، والفراغ ، والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

والجدة : الغنى والقدرة .

(٣) آلات الطرب .

وإدارة ، جذبت أهل الكمال والنبوغ ، وأصحاب الفتوة والفروسية ، والنبل والمروءة كما يجذب المغناطيس القطع الحديدية ، واجتمع أهل الرذيلة والفضيلة في البلد سواءً ، شأن العواصم والمدن الكبرى ، فكانت مركز العلم والأدب ، والتدريس والتأليف ، كما كانت مركزاً للهو والعبث ، والمجون.

وتسامع أهل البلد بقدوم هذه الجماعة الغريبة ، وبأميرها ، وشيخها السيد أحمد ، وشاعت أخبار أخلاقه وتواضعه ، وتأثير صحبته وحديثه ، وبعلماء الجماعة ، ومواعظهم البليغة ، المؤثرة في النفوس ، المرققة للقلوب ، وبتقشفهم في الحياة وبساطتهم في المعيشة ، وبأنهم سواسية في الطعام والشراب ، واللباس والمنام ، لا يمتاز أحد عن آخر ، وأنهم بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان ، يخدم كل واحد صاحبه ، ويؤثره على نفسه ، فأقبلوا عليهم من كل صوب وناحية. بين زائر متفرج ، وبين مستخبر متفحص ، وبين طالب للدين ، وراغب في الإصلاح. وبين نادم على حياته السابقة ، مقبل على الآخرة ، والسيد يتلقى الجميع ببشاشة وترحيب ويسعهم بأخلاقه ، ويوطىء لهم أكنافه ، ويؤنسهم بحديثه العذب الرقيق ، وقد يشركهم في طعام الجماعة ، فترق القلوب القاسية ، وتلين النفوس العاصية ، وتكثر التوبة والإقلاع عن المعاصي والذنوب ، وهجر عادات الجاهلية ، وشعائرها ، وتقليد غير المسلمين في أزيائهم وشعاراتهم ، ولا يرجعون عن هذا المكان إلا بزاد من التقوى ، ونور من اليقين ، وتغير في الحياة ، وثناء عاطر على هذه الجماعة ، وقائدها.

وبينما السيد جالس يوماً في مكانه المعتاد ، دخل الجامع رهط في مقدمتهم أمان الله خان ، وسبحان خان ، ومرزا همايون بيك[1] ، وحول السيد جماعة من أصحابه ، وحانت منهم التفاتة إلى هؤلاء الداخلين ، فتقطبت[2] جباههم ، وظهرت الكراهة في وجوههم وشعر بذلك السيد ، وسأل عن السبب ، وقال: من هؤلاء القادمون؟ قالوا: إنهم رجال سوء ، ليس نوع من أنواع الشطارة واللصوصية ، إلا وقد فاقوا فيه ، واشتهروا به ، قال السيد: إياكم أن تفشوا هذا

(١) حفظ الراوي أسماء هؤلاء الثلاثة ، ونسي أسماء غيرهم.
(٢) انزوت وتجعدت.

السر ، وتتفوهوا بما يسوءُهم ، ويكسر خاطرهم ، وإني لأرجو الله أن يكره إليهم الفسوق والعصيان ، ويزهدهم في الأعمال الشنيعة ، ويوفقهم للتوبة والإصلاح ، ويختم لهم بالحسنى.

وما أتم السيد كلامه ، حتى وصل هؤلاء النفر ، وصافحوه ، وعانقوه ، وتلقاهم السيد بحفاوة وإكرام ، وأجلسهم في جنبه. وأقبل عليهم ينظر فيهم طويلاً ، وجلسوا قليلاً ثم استأذنوه ، وأرادوا الانصراف ، حينئذ سألهم السيد عن مهنتهم ، وصناعتهم ، وقال: بماذا تشتغلون أيها السادة! قالوا في حياء وخجل : لا تسألنا عن ذلك ، وأعفنا عن هذا السؤال ، وقاطعهم بعض أصدقائهم الذين حضروا ، فقالوا: لا تتضايقوا يا إخواننا! بهذا السؤال ، ولا تتحرجوا من الصراحة والإخبار بالأمر الواقع ، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم!

وشجعهم السيد ، فذكروا ما يشتغلون به من أمور منكرة ، ويتكسبون بها ، ويعيشون عليها. واسترسلوا في الكلام ، وأفاضوا فيه ، فما تركوا نوعاً من أنواع الجريمة والرذيلة ، إلا وذكروا صلتهم به ، وتعاطيهم له ، وقالوا في اعتراف وصراحة : لقد كان هذا دأبنا ، وصناعتنا إلى هذا اليوم ، ولكننا نتوب الآن على يدك الكريمة عن جميع هذه الأعمال ، وكل ما يخالف أحكام الإسلام ، ويغضب الله ورسوله ، ولم يَدُرْ هذا بخاطرنا قط ، حين قصدنا هذا المكان ، إنما كان غرضنا أن نتفرج ونتمتع ، ولكننا لما جلسنا عندك ، ورأينا أخلاقك الفاضلة ، وأكرمت وفادتنا ، وعاملتنا بما لا نستحقه ، ولم نكن نتوقعه ، أنكرنا نفوسنا وقلوبنا ، فإذا هي غير ما كنا نعرفها وإذا بها تحدثنا بأن نهجر بيوتنا وأهلنا ، ونلزمك فلا نفارقك ، فاسمح لنا أن نبايعك ونتوب إلى الله على يدك.

قال السيد: لا داعي إلى العجل ، فتعالوا يوم الجمعة ، نأخذ منكم البيعة ، ونحقق ما تطلبونه.

وانصرف هؤلاء الرهط إلى بيوتهم ، فلما كان يوم الجمعة ، وتعالى النهار ، حضروا ، ووعدهم السيد بتحقيق مطلبهم بعد صلاة الجمعة ، فلما صلى الناس الجمعة طلبهم السيد ، فبايعهم على طاعة الله ورسوله ، وترك المعاصي ، وعلى التوحيد ، والدين الخالص ، والابتعاد عن جميع أنواع الشرك والبدع ، وقدموا

نقوداً كهدية ، وأخذها السيد ، ثم ردها إليهم ، وقال: هذه هدية مني لأطفالكم وعيالكم ، قالوا : نريد أن يبايعوا كذلك ، ويتوبوا إلى الله ، قال : سوف نزورهم إذا مررنا بناحية قريبة ، وهكذا كان ، فقد بايعوا السيد في يوم قدومه ، وتابوا على يده.

ولما بايع أمان الله خان ، وسبحان خان ، ومرزا همايون بيك ، وكانوا من زعماء هذه الطائفة ، ومقدميها ، لم يعلم بذلك كثير من أصدقائهم ، فجاء غلام رسول خان ، وغلام حيدر خان ، وصدر خان ، إلى أمان الله ، وقالوا له : إننا في ضائقة في هذه الأيام ، ولا بد من حيلة وسعي ، يعني يجب علينا أن نفكر في وضع خطة للوصول إلى هذا الغرض ، قال أمان الله خان: لا شأن لي بذلك ، وإنني لا أستطيع أن أساعدكم بشيء ، وتعجب الأصدقاء الثلاثة ، وقالوا: لم نفهم ما تقول! أتريد أنك لا تستطيع أن ترافقنا في هذا اليوم ، وتستطيع أن تخرج معنا في يوم آخر ، أم ماذا؟

قال مرزا همايون بيك: ليست القضية اليوم والغد ، إنما هي قضية الحياة ، والسر في هذا أننا تبنا إلى الله من هذه الأعمال ، فلا نعود إليها أبداً ، قالوا: ومتى كان هذا؟ وفي أي مكان يا أخي؟!

قال همايون: قد ذهبنا أنا وزميلاي إلى تل[1] الشيخ «بيرمحمد» فبايعنا فيه السيد أحمد الذي جاء من «راي بريلي» وتبنا على يده عن جميع المعاصي ، وذكر شيئاً من أخبار السيد وفضله ، وأخلاقه.

واشتاق غلام رسول خان وأصحابه إلى زيارة السيد ، وأن يجربوا ما جربه زملاؤهم ، وأخبر السابقون السيد بخبر هؤلاء ، وما كان من أمرهم ، فأذن لهم السيد ، فجاؤوا ووجدوا أكثر مما سمعوه ، وبايعوا السيد ، وتابوا توبة نصوحاً ، وتغيرت أخلاقهم وحياتهم ، وصاروا يعافون المال الحرام ، فلا يقربونه ، وشق عليهم أن يستعملوا ما كان في بيوتهم من مال مشكوك فيه ، وما كان من المتاع

---

(١) المكان الذي نزل فيه السيد وجماعته ، ولا يزال مشهوراً بهذا الاسم في «لكهنؤ» وفيه جامع كبير ، بناه السلطان عالمكير اورنك زيب ـ رحمه الله ـ.

القديم من مكاسب من غير حل ، ولما أراد السيد أن يعود إلى بلده ، طلبوا منه المرافقة ، لأنهم يخافون أن يتورطوا في حرام ، أو يتمتعوا بما في بيوتهم ، فأثنى عليهم السيد ، ودعا لهم بالبركة ، وأشار عليهم بالاشتغال بالمهن المشروعة ، وكسب الحلال ، والكد باليمين وعرق الجبين.

ولما هاجر السيد للجهاد ، رافقه أكثرهم ، فمنهم من استشهد في سبيل الله ، ومنهم من عاش على الصلاح والعفاف ، وخدمة الإسلام والمسلمين ، والنصح لله ولرسوله ، والسعي لإعلاء كلمة الله.

* * *

من الترف إلى الشظف

كان «ولايت علي» العظيم من أبناء اليسار والشرف ، نشأ نشأة أبناء الأمراء وكبار الأغنياء ، أبوه «الشيخ فتح علي» عالم البلد ، ومن أعيانها ، وسراتها ، وجده ـ لأمه ـ رفيع الدين حسين خان ، حاكم مقاطعة بهار «رئيسها الإداري».

تعلم «ولايت علي» في بيته وبلده ما تعلم ، ثم سافر إلى لكهنؤ ـ بلد العلم ودار الحكومة ومركز الحضارة ـ فكان فيها مثلاً في أناقة اللباس ، وحسن الهندام[1] ، وجمال الشارة[2] ، وكان يؤثر أغلى الملابس ، وأفخرها ، ويكثر من الطيب والعطور.

اتفق قدوم الإمام السيد أحمد مع ركبه الميمون في لكهنؤ ، وجاء الشيخ محمد أشرف اللكهنوي يزور السيد ، ويختبر علمه ، وجاء معه تلميذه النجيب «ولايت علي» ليشهد انتصار أستاذه ، وسأل الشيخ محمد أشرف السيد عن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وتكلم السيد عن الآية ، وبدأ يفسرها في أسلوبه العجيب ، فسمعا كلاماً لم يسمعاه من قبل ، ولم يقرأاه في كتاب ، وبكى الشيخ حتى اخضلت لحيته ، وبايعا السيد ، ولزمه الشاب «ولايت علي» وصحبه إلى قريته.

وهنا في القرية تغير الشاب عما كان عليه من التجمل في اللباس ، والتنعم في العيش ، وهانت في عينه المظاهر ، وملكت قلبه حقائق ، هي أعلى وأحلى ، من

---

(١) الهندام: حسن القد واعتداله.

(٢) الشارة: اللباس والزينة.

الملبس والمطعم ، ورأى حياة أجمل وأقرب إلى الطبيعة من الحياة المصطنعة الأولى ، فاندمج فيها ، واشتغل مع زملائه بكل ما يشتغلون به من عمل رحمل ، ورأى أنه أنعم بالاً ، وأهنأ عيشاً من ذي قبل .

وبينما هو ذات يوم يشتغل بالماء والطين ـ وهو في ملابس متواضعة ـ إذ جاء خادمه القديم ، وقد أرسله أبوه مع أربعمئة روبية ، ومجموعة كبيرة من الملابس الفاخرة ، ومتاع غير ذلك ، وصادفه الخادم ـ وقد تغيرت هيئة الشاب ـ فسأله عن «ولايت علي» فقال : أنا ولايت علي! قال الخادم : لا تسخر مني ، فإنما أسأل عن ولايت علي ابن العالم الكبير الشيخ فتح علي ، وسبط الأمير الجليل رفيع الدين حسين خان ، فقال : إذا لم تصدقني ، فاذهب ، وابحث عن صاحبك ، فذهب الخادم وجعل يسأل عن السيد ولايت علي ، والناس يشيرون إلى الأول ، ويقولون : هو ذا! فرجع الخادم وبكى ، وقدم إليه المال والملابس ، وذهب الشاب إلى شيخه ، ووضع كل ذلك بين يديه ليقسمه على من يستحقه ، ويضعه حيث يرى ، ثم عاد ، فاشتغل مع زملائه كأن لم يقع شيء .

* * *

مجتمع إسلامي متجول

تعطلت فريضة الحج في الهند من مدة قريبة ، أفتى بعض العلماء ، الذين كان أكثر اشتغالهم بالعلوم العقلية ، ولم تكن لهم قدم راسخة في علوم الكتاب والسنة ، وكان معولهم على بعض الكتب الفقهية ، والأقوال الشاذة ، بسقوط فريضة الحج عن ذمة المسلمين في الهند ، على أساس أن السفر في السفن الشراعية في البحر خطر على النفوس والأرواح ، فلا يتحقق الشرط «من استطاع إليه سبيلاً» وخاف أهل الغيرة الدينية ، والفراسة الإيمانية ، والراسخون في العلم ، أن المسلمين لو استجابوا لهذه الدعوة وانصرفوا عن الحج ، صعبت عودتهم إلى هذه الفريضة ، وشق تجديد هذا الركن العظيم في الإسلام ، ووقع خلل عظيم في الدين ، وثلمة لا تسد في حصن الإسلام الحصين ، فقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وصاحباه مولانا عبد الحي البرهانوي ، ومولانا إسماعيل الشهيد الدهلوي بحملة علمية وعملية قوية ضد هذه الفتنة[1] العمياء ، ثم نادى السيد في الناس بالحج ، وأرسل البعوث ، وكتب الرسائل ، وتكفل نفقات كل من ليس عنده زاد ، وطار ذلك في الهند ، وشاع في الناس ، فالتهبت جمرات الشوق والإيمان الخامدة ، وقويت الهمم الفاترة ، وصار المسلمون في أنحاء الهند يستعدون للسفر ، ويتزودون له بكل طريق ممكن ، ودبت في المسلمين حياة إيمانية جديدة ، وقوي الحنين إلى البيت الحرام ، وأمّ الناس من كل ناحية من أنحاء الهند مركز هذه الدعوة وقطبها ، والتفوا حوله ، فما من يوم إلا وفيه وفد من قاصدي الحج ، والمستجيبين لدعوة الله ، ونداء خليله إبراهيم .

---

(١) اقرأ القصة بطولها في الكتب التي ألفت في «سيرة السيد أحمد شهيد» ـ رحمه الله ـ .

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧].

وجاء اليوم الموعود المشهود ، وتوكل السيد على الله ، وخرج مع الناس في سلخ شوال سنة ١٢٣٦ هـ ، وعبر النهر الصغير الذي يجري أمام قريته ، وودع الذين جاؤوا لوداعه ، وتوجه إلى «دلمئو»[١] ليركب منها على سفن تصل به إلى «كلكته» وقد بلغ عدد رفاقه وأتباعه إلى أربعمئة نفس حين خرج من بلده[٢]

وكانت هذه القافلة مدرسة سيّارة ، وثكنة جوالة ، ومجتمعاً دينياً متنقلاً ، تلقى فيه المواعظ والخطب ، ويتعلم الناس الدين وأحكام الشرع ، وآداب الإسلام ، ويخدم بعضهم بعضاً ، ويتعاونون على البر والتقوى ، ويسود جو من الأخوة والمواساة ، والعدل والمساواة ، لا يستنكف أحد عن عمل مهما كان حقيراً ، ويتحملون المشاق ، ويستلذون بها ، ويحتسبونها في سبيل الله ، ويهتئون عليها نفوسهم وإخوانهم ، وكانوا كأعضاء جسد واحد ، وأبناء أسرة واحدة ، وكان يغشاهم سحاب من سكينة ووقار ، وهدوء وسلام وإخاء ووئام[٣] ، قد تناسوا أوطانهم وبيوتهم ، وما كانوا فيه من نعيم ورخاء ، وسكون واستقرار ، يحدوهم حادي الحب والشوق ، ويقودهم قائد الإيمان والاحتساب ، وقد سمعوا ما ورد في فضل «من أحيا سنة بعد ما أميتت»[٤] فكيف يفضل من سعى لإحياء فريضة هجرت وعطلت ؟!

وقد وقف السيد بعد صلاة الصبح بعد ما بدأت القافلة رحلتها وقطعت مسافة قصيرة ، وخاطب أصحابه قائلاً :

«إخواني! إنكم هجرتم أوطانكم ومنازلكم ، لتسعدوا بالحج والعمرة ، ابتغاء

---

(١) قرية كبيرة في مديرية «راي بريلي» على شاطىء نهر الكنج (GANGA)

(٢) فقد تكامل هذا العدد في «كلكته» وبلغ إلى سبعمائة نفس.

(٣) موافقة.

(٤) جاء في مسند رزين عن علي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: من أحيا سنة من سنتي أميتت بعدي فقد أحبني ومن أحبني كان معي ، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مئة شهيد (رواه الطبراني).

رضوان الله ، فيلزمكم أن تكونوا إخوة متحابين ، كأنكم أشقاء ، أبوكم واحد وأمكم واحدة ، ويحب أحدكم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، وليشارك كل واحد صاحبه فيما يشتغل به ، ولا يستنكف عن خدمته ، بل يعتبر ذلك شرفاً وفخراً ، فإذا رأى الناس فيكم هذه الأخلاق حرصوا على صحبتكم ومرافقتكم ، وقالوا : هؤلاء من طراز خاص ، ونوع فريد ، ففاز هؤلاء القوم ، وحسن أولئك رفيقاً».

ثم حث الناس على التوكل ، وذكر أن الله هو الرزاق الحقيقي ، وأنه يرزق الإنسان من حيث لا يحتسب ، ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] وقال : إنني لأرجو أن الله يهدي في هذه الرحلة مئات آلاف من الناس ، ويخرج آلافاً من الذين قد غاصوا في مستنقع[1] الشرك والبدع ، والجهالة إلى أذقانهم ، وجهلوا شعائر الإسلام جهلاً باتاً ، فيعودون بإذن الله موحدين ، مؤمنين متقين.

وإنني دعوت الله كثيراً لأهل الهند ، وقلت يا ربنا! إن الطريق إلى بيتك قد أصبح مسدوداً ، وقد سول الشيطان لكثير من الأغنياء ، أن الأمن مفقود في الطريق ، فلا حج عليهم ، فماتوا من غير أن يحجوا ، ولا يزال آلاف من أصحاب الثراء واليسار الذين وسع الله لهم في الرزق ، وأغدق عليهم الأموال لا يفكرون في الحج ، وقد استولى عليهم هذا الخوف ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فيا رب افتح الطريق إلى بيتك برحمتك ، فلا يخف أحد ، ولا يحرم هذه السعادة العظمىٰ ، والفريضة الكبرى ، وقد أجاب الله دعائي ، فمن يعش منكم يَرَ ذلك بأم عينه ، ويشاهده عياناً».

وهكذا كان ، فقد فتح باب الحج على مصراعيه ، وتدفق الناس للحج في كل سنة ، وهم في ازدياد وتقدم ، وأصبحت الفكرة المعارضة أثراً من آثار التاريخ ، وأسطورة من الأساطير.

* * *

(١) مكان يجتمع فيه الماء.

روح التطوع والخدمة

وصل السيد ورفاقه في طريقهم إلى «كلكته» إلى بلد على شاطىء النهر ، اسمه «مرزابور» ، وإذا بسفينة حمولة ، واقفة على الشاطىء ، مشحونة بغرائر وجواليق من القطن ، وصاحب السفينة ينتظر الحمالين ، الذين ينقلون هذه الجوالق إلى مخزنه ، فاضطرت سفن الحجاج إلى الانتظار بعيداً عن الشاطىء حتى يأتي دورها ، سأل السيد عن السبب ، فقالوا: سفية حمولة قد حجزت الشاطىء ، وسدت طريقنا ، وهي تنتظر التفريغ ، والحمالون غائبون ، فقال: ومن يمنعنا عن أن نباشر هذا العمل؟ ألسنا بشراً ، أم أيدينا مكتوفة أو مغلولة؟ ، ولم يتم الأمير هذه الكلمة ، حتى وثب الناس ـ وفيهم كبار العلماء وأبناء الأشراف والأغنياء ـ إلى السفينة ، وتخطفوا هذه الأعدال[1] الثقيلة ، يحملونها على رؤوسهم وأكتافهم ، منهم من يستقل بحمله ، ومنهم من يتعاون مع صاحبه ، ينقلونها إلى حيث يريد التاجر ، حتى فرغت السفينة في وقت قصير ، وكفىٰ التاجر مؤنة الحمل والأجرة ، والناس ينظرون إلى هذه الجماعة في دهشة واستغراب ، وفي سرور وإعجاب ، ويقولون: عجباً لهؤلاء الحجاج يقومون بهذا العمل الشاق تطوعاً واحتساباً ، وليس بينهم وبين هذا التاجر سابق معرفة ، ولا يد يحفظونها ، ولا نعمة يجزونها ، إنهم من نوع آخر من الرجال.

* * *

(١) جمع عِدْل ، وهو الجوالق والغرارة.

المساواة الإسلامية

تأثر المسلمون في الهند لطول إقامتهم في هذه البلاد ، وضعف التعليم الديني وتأثير العنصر الحاكم ، الذي لم يسغ الـ ـم الإسلامية كل الإساغة ، وكانت فيه بقايا الجاهلية من عادات المواطنين ، وظهر فيهم التميز بين الطبقات ، واحتقار بعض الصناعات ، والتفاخر بالأنساب ، وكان كثير من أبناء البيوتات الشريفة يتعيرون من مخالطة أصحاب الحرف الوضيعة ، ومؤاكلتهم ، ويرون في ذلك غضاضة وعاراً ، وكان السيد يحارب هذه النزعة بكل عزم وجد ، ويدعو إلى التعاليم الإسلامية لاحترام الإنسانية ، والمساواة بين المسلمين .

وكان في «مرزابور» سبعة بيوت ، يشتغل أهلها بصنع الآجر والقرميد ، يطبخونها ثم ينقلونها إلى بيوت من يشتريها ويرغب فيها ، وكانوا يستخدمون في ذلك الحمير والبغال ، يربونها ويقتنونها[١] ، وكان بعضهم يملك خمسين حماراً وبغلاً فأكثر ، وبعضهم ستين ، وكانت هذه صناعتهم وحرفتهم ، وقد اشتهروا في البلد «بالحَمَّارة» أو أصحاب الحمير ، وأصبح لهم لقباً وشعاراً ، فهجرهم الأشراف ، وأبناء البيوتات ، وكانوا يتعيرون من مجالستهم ، ويتقززون[٢] من الأكل معهم ، وأصبح ذلك شعاراً للأشراف والأغنياء .

ولما وصل السيد إلى «مرزابور» ورأى هؤلاء الحَمَّارة إقبال الناس على هذه الجماعة ، ورأوا تواضعهم ، ودماثة خلقهم وعرفوا أنهم قد خرجوا من بيوتهم يقصدون بيت الله ، ووقع حب أميرهم في قلبهم ، أرادوا أن يتبركوا بهذه

---

(١) اقتنى المال : جمعه واتخذه لنفسه .

(٢) تقزز من الدنس : عافه وتجنبه .

الجماعة ، ويضيفوا ضيوف الله فدعوا السيد وزملاءه إلى الطعام ، وهم بين خوف ورجاء ، وشجاعة وحياء ، تثبط همتهم التجارب السابقة ، وقد أقيم بينهم وبين غيرهم من المسلمين سور لا يتسوره أحد ، وتطمعهم أخلاق هذه الجماعة في إجابة هذا الطلب ، ثم تشجعوا أخيراً ، وتوكلوا على الله ، وقالوا للسيد :

أتكرمنا يا سيدي بقبول دعوتنا ، والأكل على مائدتنا مع زملائك الكرام؟ .

قال السيد : نعم وكرامة!

وفرح «الحَمَّارة» واغتبطوا به ، ورجعوا إلى بيوتهم مسرورين .

ولما سمع الناس بذلك في البلد ، أفزعهم ذلك ، وكبر على الأشراف وسراة الناس! ومشى كثير منهم إلى السيد ، وقالوا له : إنا لا نرى لكم رأياً أن تلبوا دعوة هؤلاء الحَمَّارة ، وتأكلوا عندهم ، وليس في البلد من يأكل عندهم من المسلمين .

قال السيد : ولماذا؟ أليسوا مسلمين؟ ألا يتكسبون بالحلال؟ وما ذنبهم؟ إن الركوب على الحمار سنة ثابتة ، وقد أثر عن الأنبياء والأولياء ركوب هذه الدواب ، واقتناؤها ، وتربيتها ، فلا تزال هذه العادة في الحرمين الشريفين ، يركب الناس الحمير والبغال ، ولا يرون بذلك بأساً ، ووعظهم السيد ، وبين لهم أن التعيير بمثل هذا من عادات الجاهلية ، وتسويلات الشيطان .

ذهب السيد مع أصحابه إلى صانعي الطوب ، المشهورين بالحَمَّارة في البلد ، وآنسهم وانبسط لهم ، وتناول الطعام .

وبعدما انصرف من الأكل قدم إليهم أصحاب الدعوة مبلغاً من المال ، ورزمة[1] من الثياب الفاخرة ، والقماش الغالي هدية ، واعتذر السيد عن قبول هذه الهدية ، ولما رأى الكراهة والحزن في وجوههم ، قال لهم : هونوا عليكم يا إخواني ، فإنني لم أعتذر عن قبول هديتكم إلا لمصلحتكم ، فإنا لو قبلنا هذه الهدايا ، لقال الناس : إنما قبلوا الدعوة طمعاً في هذه الطرف والهدايا ، والأموال

(١) الرزمة من الثياب وغيرها : ما جمع وشد منها ، ج رزم .

الطائلة ، أما الآن فلا يجد الناس شيئاً يتعللون به ، وسيقبلون على مؤاكلتكم ومجالستكم ، ولا يرون في ذلك غضاضة .

وهكذا كان ، فقد انهار هذا السور الحاجز بين هؤلاء وأهل البلد ، وبدأ الناس يؤاكلونهم ويجالسونهم .

* * *

التائب من الذنب كمن لا ذنب له

كان الشيخ عبد الحي البرهانوي ـ وهو شيخ الإسلام في قافلة الحجاج وجيش المجاهدين ـ قائماً بالوعظ والإرشاد في الإقامة والظعن ، كلما حل السيد وجماعته ببلد واجتمع الناس ، قام يخطب ويدعو الناس إلى الله ، وإلى إصلاح الحال ، والإقلاع عن الذنوب والمعاصي ، وهجر البدع والخرافات ، وعادات الجاهلية ، وشعائر الوثنية ، فترق القلوب ، وتدمع العيون ، ويجدد الناس الإسلام والإيمان ، ويعاهدون الله على الطاعة وترك المعاصي ، وقد ساق امرأة تتكسب بالبغاء سائق التوفيق إلى مجلس من مجالس الوعظ ، وندمت على حياتها السابقة ، وتابت من عملها ، وبايعت السيد على الإيمان والطاعة ، وحياة الطهر والعفاف.

وكانت كثير من العادات الجاهلية ، قد تسرَّبت إلى أسر المسلمين وبيوتاتهم الشريفة ، ودب إليهم داء الكبر والخيلاء ، والتطاول بالنسب ، وأصبحوا يعتقدون لهم فضلاً على غيرهم.

وكان كثير منهم يحتقر من تلوث بمعصية أو تورط في ذنب ، ولو تاب منه ، وكانت سيدات البيوتات الكريمة العريقة في النسب والشرف يتعيرن من مخالطة من ليست في درجتهن من النسب ، والدين والمروءة ، وغلون في الحجاب ، وبالغن فيه مبالغة لم يكلفهن بها الشرع حتى جر ذلك في بعض الأحيان إلى ترك بعض الفرائض الدينية ، وتضييع الصلوات في السفر.

ولما تابت هذه المرأة السعيدة ، أمر السيد ابن أخته السيد عبد الرحمن بأن

يُركِبها في سفينة من سفن النساء ، فذهب بها السيد إلى سفينة من سفن الجماعة ، وأراد أن يُرْكِبها فتصايحت النساء وقلن: لا مكان لها في هذه السفينة ، أركبها في سفينة أخرى ، فذهب بها إلى سفينة أخرى وعافت النساء هنالك كذلك من أن تكون زميلة لهن ، وقلن: مومسة[1] لا نسمح لها بالمرافقة!.

ولما سمع الشيخ عبد الحي ذلك ، ذهب إلى السفينة ، وهتف قائلاً: لماذا لا تسمحن بركوب هذه المرأة السعيدة ، إنها تابت اليوم عن جميع ذنوبها وآثامها فهي اليوم أفضل منكن جميعاً عند الله ، وإنكن في شريعة الله سواء ، قلن : إن كان هذا حقاً ، فلتجلس محتجبة على ظهر السفينة ، قال الشيخ: ولماذا لا تجلس إحداكن على ظهر السفينة ، ولماذا تجلس هي وحدها على الظهر ، ولا تجلس معكن؟! فطال الكلام ، والأخذ والرد ، وغضب الشيخ وأمر زوجته بأن تخرج في الحجاب الشرعي ، ثم قال لها: ألم آخذ منك عهداً على أنك تعملين بأحكام الشريعة في هذا السفر ، وتعملين كآحاد النساء. وتطحنين الحبوب ، وتمشين على الأقدام عند الضرورة ، ثم أشار إلى الناس ، وقال: انظروا هذه زوجة عبد الحي ، وهذا هو الحجاب الشرعي ، ثم أذن لها بالركوب ، وذهب الشيخ إسماعيل إلى السفينة ونادى أختها «رقية» وقال لها: يا أختي! افسحي لهذه المرأة التائبة السعيدة المكان ، وأجلسيها في جوارك ، وعلميها الدين ، والآداب الإسلامية ، قالت السيدة «رقية» : سمعاً وطاعة ، وحباً وكرامة ، فتفضلي يا أختي العزيزة! وأهلاً وسهلاً ، ومرحباً.

* * *

(١) المومسة: المرأة المجاهرة بالفجور.

لقد هبت ريح الإيمان والتوبة

مرت قافلة الحجاج بمدن كثيرة ، وبقرى كبيرة في طريقها من «راي بريلي» إلى «كلكته» آخر المدن الهندية ، وفي منتهى الشرق ، وقد انتظمت هذه الرحلة ثلاث ولايات كبيرة ، في القطر الهندي ، الولاية الشمالية ، وولاية بهار ، وولاية بنغال ، ومكثت في المدن والقرى بقدر أهميتها وعمرانها ، وحاجة الناس إلى الدعوة والإصلاح.

وقد كان في جميع هذه المحطات ومنازل السفر إقبال من المسلمين للاستفادة بهذه الجماعة وقائدها ، وشيخها ، لم يشاهد مثله منذ مدة طويلة ، وقد هبت هذه البلاد من رقدتها ، وصحا الناس من غفوتهم ، وكأن منادياً نادى في الناس: هلموا إلى التوبة والإنابة! هلموا إلى تجديد الإيمان والإسلام! فكان الناس يأتون السيد أرسالاً[1] ، ويتوبون على يده ، ويعاهدون الله على التوحيد والدين الخالص ، ونبذ الشرك ، والضلالات ، والبدع والخرافات ، وترك المعاصي والمنكرات ، وعلى تعظيم شعائر الله ، والتمسك بالسنة السنية والعض عليها بالنواجذ ، وكان أثر هذه البيعة والتوبة يظهر سريعاً في حياتهم وأخلاقهم ، فكانت تمحى شعائر الشرك ، والبدع والتشيع ، وتحول المشاهد إلى المساجد ، وتكسر الضرائح المصنوعة بالقرطاس[2] وتحطم الأعلام التي يرفعونها في المحرم ، وتتحول إلى وقود يطبخ به الطعام ، ويضاف السيد وجماعته به ، وتغير

---

(١) الرسل: الجماعة والقطيع من كل شيء ج أرسال.

(٢) يصنع الشيعة ومن قلدهم ، من القرطاس والعود ما يشبه ضريح حسين بن علي ـ رضي الله عنه ـ ويرفعونه على الرؤوس ، وتسمى في الهند «تعزية».

الأسماء التي تشعر بالشرك ، وتقديس الأشخاص[١] وقد دخل بعض أهل المدن على بكرة أبيهم في هذه الحياة الجديدة ، ويقذر بعض الناس أنه لم يتخلف أحد من المسلمين فيها عن هذه التوبة ، وتجديد الإيمان[٢]

ولما دخلت هذه القافلة في «بنارس» وكانت مدينة عامرة ، مقدسة عند الهنادك ، أقبل المسلمون عليها إقبالاً عظيماً ، وكانت الأمطار تهطل باستمرار وغزارة ، قد عطلت الحياة والنشاط في البلد ، وكان الناس يدعون السيد إلى بيوتهم ، وكان يذهب من بيت إلى بيت ، والدنيا ظلام ومطر ، والشوارع طين ووحل ، والتنقل صعب ، وكان كل ذلك لا يمنع الناس من الدعوة ، والسيد من الإجابة ، ويستمر ذلك إلى نصف الليل وبعده ، ويتوب الناس ويبايعونه ، وقد يبلغ عدد التائبين والمبايعين في حي واحد إلى الألوف.

وكان السيد لا يمل من هذا الطواف الطويل ، وإذا ضاق أحد أصحابه بذلك ذرعاً ، وشكا إليه فساد الطرق وشدة الظلام ، قال مخاطباً لأصحابه: صبراً بإخواني! وإن خطاكم هذه محسوبة في سبيل الله ، مقبولة عند الله.

وكان بين جماعات من المسلمين وأسر كثيرة شقاق وخصام وتقاطع وتدابر ، فلا تزاور ولا تداعي ، ولا لقاء ولا سلام ، يلتقي هذا وذاك ، فيصرف هذا وجهه وذاك وجهه ، ويستمر ذلك إلى سنين ، وينتقل من أفراد إلى أسر ورابطات[٣] ،

---

(١) شاعت في الهند وبلاد العجم أسماء تشعر بالشرك ، وإضافة صفات الله لغيره ، كبنده حسن وبنده علي ، يعني عبد الحسن ، عبد علي ، كعبد الرسول ، وعبد النبي ، ومدار بخش ، وسالار بخش ، أي هبة «مدار» وهو الشيخ الكبير المعمر بديع الزمان للدار الكنيوري أحد مشايخ الأولياء بأرض الهند توفي سنة ٨٤٤ هـ ، وهبة «سالار» والمقصود منه السيد سالار مسعود الغازي من أشهر الأعلام في الهند مات شهيداً ودفن في «بهرائج» (مدينة في الولاية الشمالية في الهند).

(٢) مثل مدينة «إله آباد» راجع سيرة السيد أحمد شهيد.

(٣) كان النظام الطبقي يقوم في الهند على أساس الحرف والصناعات ، والأسر والبيوتات ، وتأثر المسلمون في الهند بهذا النظام ، وكانت الصناعة الشائعة في «بنارس» الحياكة ، وصنع الأقمشة ، وهم الغالبية في «بنارس» حين زار السيد هذه المدينة ، وأصحاب هذه الصناعة معروفون بالاعتناء بالدين وحفظ القرآن ، ونبغ فيهم علماء كبار ومحدثون ، =

ويتحول إلى عصبيات جاهلية تتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، وقد اهتم السيد اهتماماً زائداً بإزالة هذه الخصومات والعصبيات ، وأصلح بين زعماء الطوائف ورؤساء القبائل المتنافسة المتحاربة ووعظ فيهم ، وذكرهم بالدين ، وأحكامه وتعاليمه ، وما ورد في فضل الأخوة الإسلامية ، وإصلاح ذات البين ، وصلة الأرحام ، وذم الفرقة والانشقاق ، وقطع الأرحام والعصبية الجاهلية ، وما لها من نتائج وخيمة وشؤم فتصالحوا وتصافحوا وتعانقوا ، وتصالح معهم أتباعهم الذين يبلغ عددهم إلى مئات وآلاف ، وكان يوماً مشهوداً مباركاً ، فرح به المؤمنون ، وخزي به الشيطان .

وكان حديث التوبة والبيعة حديث النوادي والمحافل ، وشغل الناس الشاغل ، حتى نما ذلك إلى المستشفى الذي بناه الإنجليز حديثاً ، فاضطرب المرضى فيه ، وخافوا أن تفوتهم هذه الفرصة المباركة ، ويغادر السيد البلد ، فلا يحظون بلقائه ، أو يأتيهم الوقت الموعود وهم لم يسعدوا بالتوبة والإنابة ، وقالوا : إذا فاتتنا عافية البدن وصحة الجسم فلا تفتنا عافية الروح وسلامة القلب ، فأرسلوا إلى السيد يقولون: نحن رهائن الفراش وأحلاس[1] المستشفى ، قد منعنا المرض عن الحضور ، فليكرمنا السيد بما آتاه الله من شفقة على الخلق ، ورحمة بالضعفاء والعجزة بالتشريف ، لنتوب على يده الكريمة ، ونبايعه على أحكام الشرع وفرائضه .

وأجاب السيد طلبهم وزارهم في يوم من الأيام ، فبايعوه وتابوا على يده ، ورأى الناس هذا الإقبال العام على الدين فقالوا : لقد هبت ريح الإيمان والتوبة ، وحلَّ ربيع القلوب والأرواح ، فسبحان مصرِّف القلوب ومقلِّب الليل والنهار .

* * *

= وحلت فيهم بركة الدين ، والتكسب بالحلال .

(١) الحلس: ما يبسط في البيت على الأرض ولا يغادر مكانه . وأحلاس الخيل: الملازمون ركوبها .

من النافلة إلى الفريضة

صادف السيد عند دخوله في «عظيم آباد»[١] جماعة من أهل «تبت» كانوا في انتظاره فقد سمعوا أنه وجه دعوة عامة للحج ، وتكفل بكلِّ من خرج معه ولا زاد عنده ، فسألهم السيد عن أخبار بلادهم ، وعن أحوال المسلمين فيها ، فقالوا: إن عدد المسلمين ضئيل في عامة البلاد ، وأكثرهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وإنما يتسمون بأسماء إسلامية ويجهلون حقيقته ولا يعملون به ، ويغلب عليهم الشرك وعبادة القبور ، ويغلون في تعظيم مشايخهم ، حتى يبلغوا فيه إلى حد العبادة والتقديس.

قال لهم السيد: هل عندكم زاد وراحلة؟ وهل تستوفون شروط الحج؟.

قالوا: لا! ولكننا سمعنا أنك دعوت الناس إلى الحج ، وأذنت لهم بالمرافقة ، وأنت تتحمل نفقاتهم ، فلنا رجاء كذلك أن تسمح لنا بالمزافقة.

قال السيد: نعم! إن ما بلغكم حق ، ولكن بشروط وتفصيل والله سبحانه وتعالى لم يفرض عليكم الحج ، لأنكم لا تملكون زاداً وراحلة ، وتعجزون عن الإنفاق على أنفسكم وأهلكم ، وإنكم إنما تبتغون بهذا الحج وجه الله ورضاه ، فهل ندلكم على طريق فيه ثواب أكثر ، ورضوان من الله أكبر ؟.

قالوا: أنعم وأكرم ، وما أردنا إلا الخير ، وما قصدنا إلا الثواب.

قال: نستخلفكم في الدعوة إلى الله في بلادكم ، ونحملكم أمانة النصيحة ، والدلالة على الخير ، فترجعون إلى بلادكم دعاة مرشدين ، وأئمة هادين ،

---

(١) عاصمة ولاية «بهار» ، وهي معروفة الآن بـ «بتنه» ، Patna.

تدعون الناس إلى التوحيد والسنة ، وتعلمونهم الدين ، وتحذرونهم من الشرك والبدع ، وتتحملون في سبيل ذلك كل أذى ، وتصبرون على محاربتهم ومعاكستهم ، وشتيمتهم ، فيهدي الله بكم أقواماً ، ويخرجون بفضل دعوتكم من الجاهلية إلى الإسلام ، وينتشر الدين.

قالوا: وكيف لنا بذلك ، ولسنا من العلماء؟ قال السيد: لا بأس ، فإن الإسلام هو دين الله ، وإن الله هو ناصره ، وسيؤيدكم الله بنصر من عنده ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ثم كتب لهم آيات وأحاديث في التوحيد والسنة ، وشرح لهم كيف يدعون إلى الله ، ثم وجههم إلى بلادهم ، وقال: سيروا على بركة الله وهداه.

وكان كما أخبر السيد وبشر به ، فانتشرت دعوتهم في «تبت» وقابلها الناس بالمحاربة والأذى ، فصبروا واحتملوا ، ورابطوا وثابروا ، يجزون السيئة بالحسنة ، ويحتسبون كل أذى في سبيل الله ، فلانت القلوب ، ورقت النفوس ، وقبل الناس دعوتهم ، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

ولما رأوا أن دعوتهم قد انتشرت في «تبت» أوغلوا في البلاد ، وتوسعوا في الدعوة ، ودخل بعضهم في الصين ، فقاموا بالدعوة هناك ، واهتدى بهم خلق كثير ، وعرفوا حقيقة الإسلام ، وذاقوا حلاوة الإيمان[1].

* * *

(١) «وقائع أحمدي» و«سيرة السيد أحمد الشهيد».

لا نستطيع دفع الضريبة

وصل السيد وجماعته إلى «كلكته» ليركبوا منها على السفن ، ويتوجهوا للحج ، وطالت إقامتهم وطابت في العاصمة الإنكليزية وكبرى مدن الهند ، وتهافت على السيد المتعطشون للدين ، ومن أراد الله بهم خيراً ، تهافت الظمأى على الماء ، والفراش على النور ، فما يجد فرصة للراحة ، وللطعام والشراب ، وشمر العالمان الجليلان الشيخ عبد الحي ، والشيخ محمد إسماعيل عن ساق الجد للوعظ والإرشاد ، فلا يكلاَّن ولا يملاَّن ، وذاق الناس حلاوة الإيمان ، وعرفوا حقيقة الإسلام ، وقالوا: لقد أسلمنا من جديد ، فلم نكن نعرف من الإسلام إلا اسمه ، ولا من الدين إلا رسمه ، وقد فشت في الناس الجهالة ، وفشت البدع والخرافات ، وكان كثير من الناس لا يتقيدون بالنكاح الشرعي ، وفشت المخادنة ، فبينوا أحكام الشرع في اتخاذ الأخدان ، والاستمتاع بغير نكاح شرعي ، وأقبل الناس على النكاح ، وهجروا العادات الجاهلية .

وكان يسلم كل يوم عشرة ، أو خمسة عشر رجلاً من الهنادك والوثنيين ويستأنفون حياة جديدة .

وأثرت هذه المواعظ اليومية ، والمجالس الدينية في حياة البلد ، وفي أخلاق الناس وعاداتهم ، فتابوا من تعاطي الخمر والمسكرات ، وهجروها هجراً باتاً ، وكسدت سوق بيع الخمور ، وأقفرت الحانات ، فما يؤمها أحد ، ولا يطرقها طارق ، وجمدت تجارة المسكرات ، ومشى أصحاب الحانات ، وتجارة الخمر إلى الحكام الإنكليز ، وقالوا: لم نتأخر يوماً عن دفع ضريبة الخمر ، ولكن

حاناتنا أصبحت مهجورة مقفرة ، منذ نزل السيد في «كلكته» ، وقد بايعه جل المسلمين في المدينة ، والضواحي ، والقرى ، وتابوا عن جميع المعاصي والآثام ، وعن شرب الخمر وتناول المسكرات ، وأثر ذلك في تجارتنا ، وكان ضربة قاضية عليها ، فلا سبيل لنا إلى دفع الضرائب ، وقد تعطلت تجارتنا ، ووقف البيع والشراء.

وأمر الحكام بالبحث في القضية ، وعن مدى صدق هؤلاء الخمارين فيما قالوا ، فتحقق أنه صحيح ، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا الضرائب الحكومية ما دام هذا الحال وما دام انصراف الناس والزبائن عن هذه الحانات ، وقرروا أن يعفوا عن الضرائب إلى أن يغادر السيد وأصحابه المدينة ، ثم ينظر ، فإذا كان بعد ذلك إقبال على هذه الحانات ، وعادت إليها الحياة ، كما كانت في السابق ، عادت هذه الضرائب إليهم ، وكلفوا بأدائها.

* * *

في سبيل الجهاد

بدأ المسلمون في الهند على مر الايام يتجردون عن صفات الفروسية ، وأخلاق الأمم الفاتحة التي امتازوا بها في الماضي ، وفتحوا بها هذه البلاد الواسعة بجيش قليل وعدد ضيئل ، وفشت فيهم الرخاوة والرقة ، وأخلدوا إلى الراحة والتنعم ، وضعفت فيهم الحمية الإسلامية ، والغيرة الدينية ، فكان الثعبان الإنجليزي يبتلع بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ، وقطعة بعد قطعة ، وهم منغمسون في شهواتهم ، عاكفون على لذاتهم ، لا يحرك ذلك منهم ساكناً ، ولا يقض مضجعاً ، وتفاقم[1] هذا الداء ، حتى بدؤوا ينظرون إلى حياة الفروسية ، وخلال الفتوة ، وإلى السلاح وعدة الحرب بعين الاحتقار والازدراء ، ويعتبرونها شعاراً للجهال والأجلاف[2] ، ورعاع الناس ، ويعتقدون أن ذلك لا يجتمع مع العلم ، والعبادة والوقار .

وكان السيد قد ملكته فكرة الجهاد في سبيل الله ، وتحرير بلاد المسلمين من المغتصبين وإعلاء كلمة الله ، وإعادة مجد الإسلام ، واستولت على مشاعره وأعصابه ، وأصبحت له الشغل الشاغل ، والهم الوحيد ، فكان أكثر حديثه عنه ، وأكبر اهتمامه به ، وأعظم اعتنائه بما يعينه على ذلك .

وشغف بالتربية الحربية ، والرياضات البدنية منذ ريعان الشباب ، كان أكثر لعبه وتسليته بالمعارك الحربية التي يقيمها مع أقرانه وأترابه من غلمان قريته ، وشباب عشيرته ، ودخل في سنة ١٢٢٧ هـ في جيش القائد المسلم الشهير نواب ميرخان مؤسس إمارة «تونك» الإسلامية ، وخاض معه في حروب دامية ،

---

(١) تفاقم الأمر : عظم ولم يجر على استواء .

(٢) الجلف : الغليظ الجافي الأحمق . ج أجلاف .

ومعارك فاصلة ، ورافقه في مغامراته ليتمرن على الحرب ، وعلى قيادة الجيوش ، وليحقق بها أمنيته اللذيذة العزيزة ، وهي إجلاء الغاصبين ، وإقامة حكومة إسلامية شرعية ، ولم يفارقه إلا حين صالح القائد الإنجليز ، وقبل أن يكون أميراً في منطقة صغيرة.

وقد أثرت هذه الرغبة ، وهذا الذوق الذي غلب على كل ذوق في أصحابه ورفاقه ، وسرى فيهم ، فتحولت القرية الهادئة ـ التي لم تعرف في الأيام الماضية إلا العبادة ، والذكر والتسبيح ـ إلى ثكنة ، ومركز تربية حربية ، فلا ترى فيها إلا التمرن على الرمي وإطلاق النار ، والمسابقة في أنواع الفروسية ، وما ينفع في الحرب ، يساهم فيها العلماء ، والأساتذة الكبار ، وأبناء البيوتات الشريفة ، وكبار الأغنياء ، والجهال والأميون ، والشباب والكهول ، وكبر ذلك على بعض العلماء والعباد الذين قصدوه من أنحاء بعيدة ، لينصرفوا إلى حياة الزهد والعبادة ، والانزواء والتبتل وحنوا إلى العهد السابق حين كنت لا تسمع إلا دوياً كدوي النحل ، وأزيزاً[١] كأزيز المرجل ، وكلموه ولكنه لم يجب طلبهم ، وأفهمهم أن ذلك أفضل ، وأن المسلمين إلى ذلك أحوج ، وذكر لهم ما ورد في فضل الرباط في سبيل الله ، وعين تحرس[٢] وقدم تغبر في الجهاد[٣] ، فاقتنعوا ، ورافقوا إخوانهم في الاستعداد للجهاد[٤].

ولما زار السيد «الكهنؤ» في سنة ١٢٣٤ هـ وعليه سلاحه. قال له أحد الضباط الكبار ، وهو عبد الباقي خان : يا سيدي! إن كل أمرك حسن جميل إلا شيئاً واحداً تلازمه ، إن ذلك لم يفعله أحد من أجدادك الكرام ، وأنت من بيت دين

---

(١) الأزيز: الحركة والاهتياج والحدة.

(٢) روى الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً: عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله.

(٣) روى البخاري والترمذي والنسائي عن أبي عبس مرفوعاً: ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار.

(٤) اقرأ ما دار من حديث بين الإمام السيد أحمد الشهيد ، وبين الشيخ محمد يوسف البهلتي من كبار العلماء وعباد جماعته ، في «سيرة سيد أحمد شهيد».

وصلاح ، ومشيخة وعلماء ، وكان يجمل بك أن تقلدهم في زيهم وشعارهم وأساليب حياتهم ، ولا تأتي بشيء جديد ، ولا تفعل ما لم يفعلوه.

قال السيد: ما هو ذاك يا شيخ عبد الباقي خان ؟!

قال الضابط: هذا السلاح الذي تلازمه ، وتخرج فيه دائماً ، إنه شعار الجهال الأجلاف ، إنه لا يجمل بك ، ولا يليق.

واحمر وجه السيد غضباً ، ورؤيت الكراهة في وجهه ، ولكنه ملك نفسه وقال: سامحك الله أيها الضابط الكبير ، فما أصبت القول ، وما هديت إلى الرشد ، وحسبك في هذه الساعة ، أن هذه هي أسباب الخير التي أكرم الله بها أنبياءه ليقاتلوا بها الكفار والمشركين ، وكان لنبينا منها النصيب الأكبر ، والقسط الأوفر ، وظهر الإسلام على كل دين ، وانتصر الحق على الباطل ، والعدل على الظلم ، وأنت وآباؤك مدينون لهذا الجهاد أيضاً ، فمن يدري في أي دين أنت وآباؤك ، لولا قيام المسلمين في القرون الأولى بالدعوة والجهاد ، وماذا كان مصيرك؟! وسكت الضابط الكبير ، وأطرق رأسه حياءً.

وكان كلما رأى شاباً قوي العضلات مفتول الذراعين تبدو على وجهه مخايل الفتوة والشهامة ، فرح واستبشر ، وتلقاه بالترحيب ، وأنزله منه منزلاً خاصاً ، لأنه يرى فيه الغناء في الجهاد.

زاره أربعة فتيان من قرية قريبة ، ذوو قامات فارعة ، وأبدان قوية ، فهش لهم وبسط لهم وجهه ، ورفع منزلتهم ، وقال: هؤلاء أحب إلي من أبناء المشايخ ، والشباب المتنعمين ، فغناؤهم قليل في ميدان الجهاد ، ومعترك الحرب ، أما هؤلاء فيستطيعون أن ينصروا الإسلام ويكتووا بنار الحرب.

وتعجب هؤلاء ، وكانوا في الجيش يتقاضون رواتب زهيدة ، ولم يكونوا على شيء من العلم والثقافة ولم يكونوا يتوقعون هذه الحفاوة ، والإكرام البالغ ، فأحبوا السيد ولزموه ، ورافقوه في الهجرة والجهاد ، فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ، ومنهم من طالت به الحياة ، فعاش على الدين والصلاح والنصح للإسلام والمسلمين والسعي لإعلاء كلمة الدين.

* * *

هدية طريفة

عرف الناس شغف السيد بالجهاد وأسبابه ، وكل ما يعين عليه ، فصاروا يتقربون إليه بما يسره ، ويقر عينه ، وتسابقوا في ذلك وتنافسوا ، وكان أحب الناس إليه من يحدثه في هذا الموضوع ، وكان أحب هدية إليه ما ينفعه في الحرب من سيف ماض وبندقية من أحدث طراز ، ومسدس من أجود الأنواع ، وفرس جواد ، وكان للشيخ «غلام علي» أحد كبار الأغنياء في مديرية «إله آباد» القدح المعلى في ذلك ، فكان لا يزور السيد إلا ومعه هدية من سلاح ، ولو كان ذلك مرة أو مرتين في يوم ، وقد قام بتهيئة كل ما تقع إليه الحاجة في السفر ، أو في ميدان الحرب ، وقد بالغ في ذلك وتطرف ، وقام بالقسط الأوفر في تجهيز الغزاة ، وتسليح المجاهدين ، وتزويد المسافرين.

ولكن أعجب هدية أهديت إليه ما تقدم به الشيخ «فرزند علي» أحد كبار ملاك مديرية «غازيفور» وأعيانها ، فقد جاء إلى «رائي بريلي» ومعه ولده الشاب المسمى بـ «أمجد» فقدمه إلى السيد قائلاً: إنني نذرته لله ، كما نذر إبراهيم ـ عليه السلام ـ ابنه إسماعيل لله ، فرجائي أن تأخذه معك إلى الجهاد فيذبح في سبيل الله بسيف الكفار.

وهكذا كان ، فقد أكرمه الله بالشهادة ، فوفى الشاب البار نذر أبيه ، وأقر عينه ، وبيض وجهه ، وخلد ذكره ، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ولما علم الناس عزم السيد على الرحيل ، وشاع في الناس حديث الجهاد

والهجرة ، حدا بالناس حادي الشوق ، ورنَّ في آذانهم النداء الرباني : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٤١] طرب الناس ، وهرعوا إلى الجهاد والنفير ، وتسابق الآباء والأبناء ، والإخوة والأشقاء ، حتى اقترعوا بينهم .

يقول الشيخ جعفر علي صاحب كتاب «منظورة السعداء في أحوال الغزاة والشهداء» : لما بلغنا قصد السيد للهجرة ، وأنه على جناح السفر ، أراد أبونا السيد قطب علي وشقيقنا السيد حسن علي أن يلحقا به ، وأردت كذلك ، واستشرف كل واحد منا لهذا المقصد الأسنى ، ووقع التنافس ، كل يريد أن ينال هذه السعادة ، ويحظى بهذا الشرف ، حتى وقع التحاكم إلى أمنا ، ورفعت إليها القضية وحكمت لي ، وتوجهت إلى السيد وهو في مركز المجاهدين في الحدود ، فاستقبلني خارجاً من مقره ، ومشى بعيداً ، وأطلق البنادق فرحاً بقدومي ، وإعلاناً بوصول فرقة من المجاهدين من ناحية الهند ، ورحب بي أكبر ترحيب ، واختارني كاتباً لرسائله ، وألحقني بفرقة الشيخ إسماعيل الشهيد .

* * *

وداعاً أيها الوطن العزيز

مكث السيد بعد ما قفل من الحج عاماً كاملاً وعشرة أشهر[١] في وطنه ، يستعد للهجرة والجهاد ، يكتب لذلك الرسائل البليغة التي تثير الحمية الإسلامية ، وتزهد في حب العافية والسلامة ، وإيثار الأهل والوطن ، ويرسل لهذا الغرض الدعاة والمرشدين من كبار العلماء والخطباء ، ينفخون في الناس روح الجهاد ، ويلهبون فيهم جذوة الإيمان ، والشوق إلى الشهادة ، ويذكرون لهم ما ورد في فضل الجهاد ، والشهادة في سبيل الله في القرآن والحديث ، وما وعد الله عليه من الرضا والكرامة ، والأجر الجزيل ، وما عوقب به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على ترك هذا الركن الذي هو «سنام الإسلام»[٢] من ذل وهوان وعبودية وخزي ، وانقراض دول وحكومات إسلامية ، وانطماس معالم الدين ، وزوال شعائره ، وما كان لذلك من شؤم ونكد عما الحياة كلها ، وظهرت آثارهما في كل مجال وفي كل بلد ، حتى كان لغير المسلمين ، وللدواب والأنعام وللزرع والضرب ، نصيب من هذا الشؤم ، وذلك كله بإخلال المسلمين بواجبهم وانغماسهم في شهواتهم ، ومصالحهم الفردية[٣]

---

(١) من ١ رمضان ١٢٣٩ هـ إلى ٧ جمادى الآخرة ١٢٤١ هـ.

(٢) أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل حديثاً طويلاً جاء فيه: ثم قال: ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟! قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد.

(٣) اقرأ الفصل الرابع الرائع من الباب الثاني من كتاب «الصراط المستقيم» الذي هو مجموع أمالي السيد ، واقرأ فيه منافع الجهاد وبركاته العامة للخلق كله (ص ٩٥ ـ ٩٦) واقرأ الرسائل البليغة التي أرسلها إلى أمراء المسلمين وملوكهم ، وكبار العلماء والمشايخ ، =

وقد تواتر واستفاض من سوء حال المسلمين في «بنجاب» وهوانهم فيها وظلم الحكام وعدائهم للإسلام ، وإهلاكهم للحرث والنسل ، وهمجية رجال الجيش ونهبهم للأموال والأملاك ، واختطافهم للأولاد والنساء وانتهاكهم للحرمات ، وإهانتهم للمساجد ومنعهم عن ممارسة بعض شعائر الدين[١] ، كأن المسلمين في بنجاب يخاطبون إخوانهم في الهند ويقولون بلسان حالهم :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥].

فعزم السيد على أن يبدأ عمله من هذه المنطقة البائسة التي وقع المسلمون فيها فريسة حكم استبدادي وعداء ديني ، ثم يتقدم منها إلى الهند التي أصبحت مطية ذلولاً للإنجليز ، يركبون ظهرها ويحلبون ضرعها وينتفون صوفها ، ويسيئون علفها وسقيها ، وكان لا بد من الهجرة من منطقة نفوذهم ، ومركز حكمهم إلى منطقة حرة بعيدة من تأثيرهم ، يتمتع أهلها بالغيرة والأنفة والفروسية ، قد مارسوا صناعة الحرب زماناً ، ونشؤوا عليها ، واكتووا بنارها.

وكانت هذه المنطقة هي الحدود الشمالية بين أفغانستان وبنجاب التي عرف أهلها بشدة الشكيمة[٢] والفتوة ، والاحتفاظ بالحرية ، وعدم الاستسلام للعدو الفاتح ، ودوام الاشتغال بالغزو والقتال ، وكان عدد كبير من أصحاب السيد ينحدر من هذه الأصول الأفغانية ، وينتمي إليها ، وقد نزح آباؤهم في أوقات مختلفة إلى الهند التماساً للرزق ، أو طمعاً في جاه ومنصب ، ودخلوا في

= وإلى أقيال الهند وأمرائها من غير المسلمين في «سيرة سيد أحمد شهيد» (الطبعة الرابعة).

(١) اقرأ ذلك مفصلاً في كتب المؤرخين الإنجليز والهندوس كـ «كولونل مالكوم» و«ليبل كريفن» و«كنهيالال» وغيرهم ، وقد صور شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال هذه الفترة التي مرت في تاريخ الهند تصويراً دقيقاً في بيت واحد ، يقول فيه : إن «السيخ» انتزعوا السيف والمصحف من أيدي المسلمين ، إن الإسلام قد مات في هذه المنطقة

(٢) فلان ذو شكيمة : أنوف أبي لا ينقاد ، والشكيمة : الحديدة المعترضة من فم الفرس.

الجيش ، وخدموا الحكومة المغولية ، أو إمارة «أوده» الإسلامية ، وكان منهم قادة وضباط وأمراء في أنحاء الهند ، مضى ذكر بعضهم ، وكانوا مادة الجيش في لكهنؤ ، وما جاورها من المدن والقرى ، وكان للسيد في هؤلاء الأفغان خير أصدقاء وخير تلاميذ روحيين ومبايعين وأنصار ، فحثوه على الهجرة إلى هذه المنطقة التي لا يزال لهم فيها خؤولة وأعمام ، وإخوان وأصدقاء ، وقبل السيد هذا الاقتراح ، وصمم على أن يهاجر إليها ، ويتخذها قاعدة لحركته ونشاطه و«نقطة انطلاق» إلى الأمام.

وتم الاستعداد ، وجاء اليوم المنتظر الذي كان يعد له السيد الأيام عداً ، فكان يوم عيد وسرور ، لا يعدله عيد ولا سرور.

كان ذلك يوم الإثنين ، اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١ هـ[1] ، وكان يوماً مشرقاً زاهياً ، وكانت قد نصبت له خيمة في الجانب الجنوبي على شاطىء النهر المقابل ، وقد قضى نهار الإثنين في توديع الإخوة والأقارب ، والأصدقاء الذين جاؤوا من كل صوب وناحية لتوديعه ، وللقائه الأخير الذي لا لقاء بعده ، وقد اغرورقت عيون كثير منهم بالدموع ، وغالب بعضهم البكاء ، أما السيد فكان يغلب عليه السرور ويعلو وجهه البشر ، فقد جاء اليوم المبارك الذي كان ينتظره بصبر نافد ونفس تواقة.

وركب السيد القارب في الليل ، ورافقه كثير من أقاربه وإخوانه يشيعونه ، ويحيونه التحية الأخيرة ، فكان بعضهم في القارب ، وكان بعضهم يعبر الماء ، ولما وصلت السفينة الشاطىء نزل السيد فصلى ركعتين شكراً ، ودعا فأطال الدعاء ، وأكثر التضرع والابتهال ، إنه لم يصلِّ شكراً على فتح بلد ، أو ورود بشارة ، ولكنه صلى شكراً على أن الله وفقه للهجْرة والجهاد ، وأنه خطا أول خطوة في هذا الطريق الذي سلكه الأنبياء من قبل ، وسيد الأنبياء وأصحابه ، والتابعون لهم بإحسان فيما بعد ، وأنه قد آن أوان قضاء نحبه ، والوفاء بنذره.

ألقى السيد النظرة الأخيرة على هذه القرية التي أحبها وأحبته ، أول أرض مس

---

(١) الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٢٦ م.

جسمه ترابها ، وقد ولد ونشأ وترعرع في أحضانها ، وألف حدائقها وأشجارها ووهادها وأنجادها ، سبح في نهرها ولعب في رحابها ، وركع وسجد في مسجدها الذي بناه جده الكبير على غرار الكعبة المشرفة وهيئتها[1] ، وكانت له فيها أيام طابت ولذت ، وساعات صفت وحلت ، إنه لم يملها ولم تمله ، ولم ينكر من أمرها شيئاً ، إنه لا يزال يحبها ويشكر أهلها ، ويدعو لهم ، ولكنه إيثار لمرضاة الله على مرضاته ، وحظ الإسلام على حظه ، وهدوء الضمير ونعيم القلب ، على راحة الجسد ومتعة البدن ، إنه نداء الإيمان والواجب ، وحداء الشوق والحنين ، ووقوف عند قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤].

* * *

(١) بناه العارف الكبير السيد علم الله بن محمد فضيل الحسني (١٠٣٣ ـ ١٠٩٦ هـ) في سنة ١٠٨٣ هـ على عودته من الحرمين على شاطىء نهر «سيء» مطابقاً للكعبة المشرفة في التصميم والمساحة والهيئة ، فليست له قباب ومنابر كما جرت العادة في بناء المساجد ، والسيد علم الله هو جد السيد أحمد الشهيد الرابع .

نداء التوحيد في قصر أمير وثني

مر السيد وركبه المجاهد في طريقه إلى «أفغانستان» بمدينة «كواليار» عاصمة أكبر إمارة ، بعد إمارة «حيدر آباد» يحكمها «مهاراجه دولت راؤسندهيا» أكبر أمراء «مرهته» وأعظم حاكم وثني تحت حماية الإنجليز ، ولهذه الأسرة تاريخ طويل حافل ، في محاربة المسلمين ومناضلتهم تتخلله غزوات ومناوشات[١] ، وهدنة وسلم ، وقد راسله السيد ، وراسل وزيره «هندوراؤ» يبتحثهما على محاربة الإنجليز ، ويبين لهما خطر السرطان الإنجليزي ، وكيف استشرى[٢] فساده وسمه في جسم البلاد ، وكيف استحوذ عليها ، وأفسد فيها وجعل أعزة أهلها أذلة ، وأنه ما دام ، فلا مطمع في شرف ، ولا بقاء لرئاسة ، ولا ضمان لحرية ، وكان ردهما علي هذه الرسائل البليغة الحكيمة رداً لطيفاً ، ينم عن استجابة وفهم.

ولما وصل السيد إلى «كواليار» استقبله رئيس الوزراء هندوراؤ استقبالاً لائقاً بالملوك والأمراء ، والقادة والزعماء وأكرم وفادته ، وأحسن مثواه ، وضيفه وزملاءه ، الذين يبلغ عددهم إلى نحو ألف شخص ، ضيافة ملوكية ، تجمع بين أنواع الأطعمة اللذيذة الشهية ، وأكثر وأطاب ، وتواضع له ، وصب الماء على يده ، ورفع منزلته ، ورق له في الحديث ، وأكثر من الهدايا الغالية الفاخرة ، والتحف النفيسة الطريفة من أنواع القماش وعقود من مروارید[٣]

---

(١) ناوشوهم في القتال: نازلوهم.

(٢) استشرت الأمور: تفاقمت وعظمت.

(٣) نوع من اللؤلؤ.

ودعاه «مهاراجه[١] دولت راؤسندهيا» إلى قصره ، واستقبله استقبالاً رائعاً ، وجلسا يتحدثان في حرية وأنس ، وتبرك مهاراجه بوجوده وطلب منه الدعاء ، فدعا السيد له بالهداية والتوفيق وأعجب مهاراجه بعلو همة السيد وبعد نظره ، وبإخلاصه ، وتوكله على الله ، وطلب منه أن يقيم عنده سنة كاملة حتى يقضي وطره من ضيافته وإكرامه ، فاعتذر السيد ، فسأله أن يمكث حتى يجهز جيشه ، ويصلح سلاحه وعتاده ، واعتذر السيد كذلك فإن السفر بعيد والطريق طويل ، والرفاق كثير والمقصد عظيم يطلب سرعة الوصول .

وبينما كانا يتحدثان جالسين في ناحية ، في غرفة من غرف القصر الملوكي الشامخ ، إذ دخل وقت العصر ، وقام مؤذن الجماعة الشيخ باقرعلي غير محتفل بالقصر وصاحبه ، ووجود كبار الأمراء والوزراء ، وقادة الجيش ، وكلهم وثنيون ، فنادى بأعلى صوته «الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله» إلى آخر الأذان ، وساد السكوت على القصر ، واهتز المكان وارتج[٢] .

فوجيء أهل القصر بهذا الصوت الغريب الذي لم يسمعوه في هذا القصر منذ زمن ، على كثرة من يزوره من المشايخ والعلماء ، وأمراء المسلمين وقادتهم ، وبقوا خاشعين أمامه برهة ، ثم أفاقوا ، وأمروا بتهيئة الوضوء وإحضار الماء والأباريق ، وحضر السقاؤون فقدموا الماء ، والأباريق ، وتوضأ من لم يكن على وضوء ، واصطف المجاهدون ، وتقدم السيد فأم الناس وصلى بهم صلاة السفر ركعتين ، ووقف الناس ينظرون إليهم في إجلال وإكبار ، وفي عجب وإعجاب ، وأميرات القصر ينظرن من وراء حجاب ، والملكة تنظر من وراء الستر الذي علق بينها وبين مجلس مهاراجه ، وكلهم يتعجبون من قوة إيمان هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وخشوعهم أمام ربهم ، وشدة محافظتهم على فرائضهم ، وقلة احتفالهم بالمظاهر وأسباب الزينة والعظمة .

* * *

(١) معناه أمير الأمراء .

(٢) ارتج البحر : اضطرب . وارتج المكان أي دوى .

جهاد قبل الجهاد

كان سفر المهاجرين المجاهدين وفيهم كبار العلماء والشيوخ ، وأبناء البيوتات ، وأولاد الأغنياء والأمراء من «دهلي» و«الكهنؤ» الذين رقت حياتهم ولان عيشهم سفراً شاقاً مضنياً لم يكن أقل من الجهاد ، فقد اعترضت لهم في الطريق صحارى قاحلة لا ماء فيها ولا ميرة[١] ، ومفاوز يتلف فيها الإنسان ويتيه فيها الخرّيت[٢] ، وتضيع فيها القوافل ، ويتعرضون فيها للصوص وقطاع الطريق ، ويمرُّون بشعوب وقبائل لا يفهمون لغتها ولا تفهم لغتهم ، وقد لا يجدون إلا آباراً قد غار ماؤها ، وملح ملوحة شديدة ، لا يجدون غيره يبلون به غلتهم ويسقونه ماشيتهم ، وقد يضطرون إلى حفر آبار وحفر في أنهار مالحة يغيض ماؤها بسرعة ، ويمرون في طريقهم الطويل الذي يمتد على مئات من الأميال برمال وعساء[٣] ، وأرض تكثر فيها الوهاد والنجاد ، وتلال من الرمل يتعب الإنسان فيها إذا مشى خطوات قليلة ، وإذا تخلف إنسان من الركب تلف ، وكان طعمة للسباع ، أو نهبة للُّصوص ، وكانوا عرضة للأوهام والمخاوف ، يحذرهم أهل القرى والمدن التي يمرون بها ويتوجسون منهم خيفة ، فيبتعدون عنهم ويفسدون لهم الآبار والمياه ، وقد يستعدون لمحاربتهم وصدهم عن الطريق فلا يهدؤون ولا يقتنعون إلا بصعوبة.

وقد استمر ذلك الحال إلى أن قطع المجاهدون صحراء «ماروار» المشهورة في التاريخ بوعورة مسالكها وقلة مياهها ، وقسوة أهلها ، وكانت المساحة التي

---

(١) الميرة: الطعام الذي يدخره الإنسان ، وما يقوت الجيش.

(٢) الخريت: الدليل الحاذق.

(٣) لينة.

قطعوها في هذه الصحراء مئتين وثمانين ميلاً (٤١٨ ك م) حتى دخلوا السند ، فتغيرت الأوضاع ، ولقوا حفاوة وكرماً من أهلها المسلمين وأمرائها ، وقد عرفوا بشدة إجلال السادة والأشراف من أهل البيت ، وإكرام العلماء وإطعام الضيف ، وأقبل على قائد هؤلاء المجاهدين وشيخهم أناس يبايعونه ويتوبون على يده ، ويتنافسون في إكرامه وضيافته ، والسيد لا يضيع فرصة للوعظ والإرشاد ، والدعوة إلى التوحيد والسنَّة ، وإثارة الحميّة الإسلامية ، والغيرة الإيمانية ، وإصلاح ذات البين بين الأمراء المتنافسين ، والإخوان المتشاحنين ، ينبههم على الخطر الداهم والعدو المشترك.

وعاد الوضع كما كان ، لما دخل المجاهدون في «بلوجستان» وبدأ فصل الأمطار ، استقبلهم أمطار غزيرة تفسد الطريق ، وتحدث السيول والبرك ، وواجهوا أرضاً جبلية لا عمران فيها ولا مدنية ، يسرح فيها اللصوص وقطاع الطريق من غير اكتراث وخوف ويعيثون فيها ، فلا تمر القوافل إلا ببذرقة[١] قوية ، وخفارة مسلحة ساهرة ، وتقل فيها المياه ، وتكثر فيها الأشجار ذات الشوك ، ويسكن هذه الصحارى وما فيها من قرى الشعب «البلوجي» الذي اشتهر بالقسوة والفظاظة والوساخة ، وقلة الاحتفال بالدين ، ويمرون فيها بالأنهار التي يكثر فيها الطحلب[٢] والوحل ، فلا يعبرونها إلا على خشب الأشجار ، ويمشي عليه الخيل والجمال ، وكان السيد يشارك زملاءه في قطع فروع الشجر وأغصانها ، وتصفيفها على الأنهار ، ويجدون في هذا الطريق ضيافة كريمة ، وإيواءً كريماً ، فيحمدون الله على ذلك.

حتى وصلوا إلى ممر «بولان» التاريخي الذي هو المدخل الوحيد لمن يأتي من جهة أفغانستان ليدخل في الهند ، وهو يلي ممر «خيبر» الذي دخلت منه جيوش الفاتحين من جهة الشمال الغربي في الهند ، وهو الشق الهائل الذي أحدثته الحكمة الإلهية في جبال «هملايا» ليدخل منه في الهند[٣] ، وهوشعب يمتد على

---

(١) البذرقة: الخفارة.

(٢) خضرة شديدة تعلو الماء الراكد.

(٣) اقرأ وصف ممر بولان Bolan pass في كتاب A comprehensive History of India v. III. p. p. 351 - 352.

خمسة وخمسين ميلاً ، ويكتنفه ذات اليمين وذات الشمال جبلان يبلغ ارتفاع بعضهما إلى ٥٧٠٠ قدم ، ويبلغ المضيق بينها في الغالب إلى أربعمئة أو خمسمئة ذراع ، ويكمن اللصوص في مغاراتهما ويترصدون للقوافل ، فيغيرون عليها على غرة ، وقد لا يزيد الشعب على أربعين قدماً وإذا وقف عدد قليل مسلح على قلة الجبلين استطاع أن يتلف جيشاً كثيفاً.

وقد اضطر السيد ورفاقه إلى أن يدخلوا في هذا المجتاز الضيق الذي يشبه نفقاً في بعض الأمكنة ليدخل منه إلى مدينة «شال»[1] ليتقدم فيها إلى «قندهار» فـ «غزنين» فـ «كابل» وقد لقيت الجماعة في مدينة «شال» براً ورفداً ، وحفاوة من أميرها المسلم المجاهد ، فقالوا:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

* * *

(١) وتعرف الآن بمدينة «كوئته» وتقع في «بلوجستان» وتعتبر من مدن باكستان الكبيرة ، ذات الأهمية الاستراتيجية.

في عاصمة بلاد الأفغان

تقدم المجاهدون من مدينة «شال» ، وأقبلت عليهم البلاد بأبنائها يستقبلونهم بالكرم الأفغاني ، والأخلاق الإسلامية ، وانهالت عليهم الهدايا من الفواكه اللذيذة التي أكرم الله بها هذه البلاد ، وكان لها فيها النصيب الموفور ، والناس بين رجال وإناث ، يحيونهم بتحية الإسلام ، ويرحبون بدخولهم في هذه البلاد ، ويدعون لهم بالفتح والنصر ، ويتبركون بقائدهم وشيخهم ، ويأخذون يده فيمسحون بها رؤوس أطفالهم ، ويزدحم الناس لرؤيتهم وزيارتهم فتنسد الطرق ، وتتصل الضيافات ، فلا ينتقل هؤلاء الغرباء من ضيافة إلا إلى ضيافة ، ومن كرم إلا إلى كرم.

واضطروا إلى أن يدخلوا ممراً آخر ، هو ممر كوزك الذي هو في جبل «التوبة» ونزلوا منه في سهل ، وكان الطريق مفتوحاً أمامهم إلى «قندهار» فـ «كابل».

واستقبل السيد في «قندهار» بحفاوة بالغة ، وترحيب نادر ، استقبله مئات من الفرسان ورافقوه في الطريق ، ووقف على حافتي الطرق ، آلاف من الأشراف والعلماء يمشون في ركابه ، وغصت الشوارع والطرق بالمستقبلين ، وضاقت بالزحام ، ونزل في ضيافة حاكم «قندهار» وقابله هو وإخوته بكرم وتواضع ، وأثنوا على علو همته وسمو نفسه ، وحميته الدينية.

ودخل السيد في «غزنين» فلقي مثل ما لقي في «قندهار» من الحفاوة وحسن الوفادة ، وتوجه إلى «كابل» عاصمة بلاد الأفغان ، ووصلته رسالة حاكم «كابل»

سردار سلطان محمد خان[١] في الطريق يرحب فيها بقدوم السيد ويبدي فيها سروره وتفاؤله بقدومه الميمون.

ولما دنا من «كابل» استقبله أجد الضباط الكبار نيابة عن الحاكم في فرقة من الفرسان والرجالة، وبلغه تحية الأمير، وخرج جمع غفير من أعيان البلد ووجهائها، ومن أفراد الشعب لاستقباله، ولما كان في نصف الطريق استقبله أمين الله خان نائب سلطان محمد خان في أبهة كبيرة، وعدد كثير من الفرسان، وتبادلا التحية.

ولما وصل السيد وجماعته في ميدان البلد استقبله سلطان محمد خان مع إخوته الثلاثة في فرقة من الفرسان، ونزل عن الفرس فتصافحا وتعانقا، وساروا في موكب عظيم، وكثر المستقبلون والزائرون، وثار النقع بحوافر الأفراس، وكثرة المشاة حتى لا يبصر الإنسان شيئاً، وهكذا مر السيد وركبه بأسواق البلد حتى نزل في قصر الوزير الكبير فتح خان، وكانوا في ضيافة الحكومة، ورعاية حكامها وأمرائها.

وقد كان بين هؤلاء الأخوة الذين توزعوا حكومة أفغانستان، والحدود الشمالية[٢] خصومة ومنافسات أضرت بمصلحة الإسلام والمسلمين، وأضاعت ملك الأفغان، وأطمعت حكومة «لاهور» السيخية في هذه البلاد التي تعتبر معادن الفروسية وعرين الأسود وموطن الغزاة والفاتحين، حتى استطاع السيخ

---

(١) هو جد الملك ظاهر شاه ملك أفغانستان سابقاً.

(٢) كانوا أكثر من عشرين أخاً من أب واحد وهو «بائنده خان» امتاز منهم وتنبل ستة عشر رجلاً كان أكثرهم حكاماً وولاة لولايات مختلفة ومدن كبيرة في أفغانستان والحدود الشمالية وكشمير، منهم: سرداز دوست محمد خان، جد الأمير أمان الله خان وسردار سلطان محمد خان، جد الملك نادر خان، وظاهر شاه، ويار محمد خان. حاكم «بشاور»، ومحمد عظيم خان حاكم «كشمير»، ومير محمد خان، حاكم «غزنين»، وشير دل خان حاكم «قندهار» وهكذا كان يحكم أفغانستان والحدود الشمالية أبناء بيت واحد وأب واحد.

ـ والإنجليز بعدهم ـ أن ينتزعوا منهم البلاد التي ما وطأتها قدم أجنبي ، وما ارتفع فيها علم كفر[١]

وقضى السيد شهراً ونصف شهر في «كابل» ليصلح بينهم ، ويكون منهم قوة موحدة تقف في وجه الخطر ، وتعيد إلى الإسلام شرفه وكرامته ، وللأفغان مجدهم السليب ، وشوكتهم الضائعة ، ويستعين بها في قتال السيخ أولاً ، والحرب مع الإنجليز آخراً ، وفي تأسيس حكومة إسلامية ، وقوة عسكرية تمتد من الهند إلى أسوار قسطنطينية أخيراً ، ولكنه لم ينجح في سعيه ، ولم تتحقق أمنيته ، فتوجه منها إلى «بشاور» ليبحث لجيشه عن مركز يبدأ منه مهمته التي غادر لأجلها الوطن ، وأعد لها ما استطاع من قوة ورباط الخيل ، وأسباب الجهاد وعدة الحرب.

* * *

(١) اقرأ ذلك مفصلاً في كتاب «تاريخ الأفغان» History Afghans للمؤلف الإنجليزي Arthurconolly ، وهو ملحق كتابه الكبير (الرحلة إلى شمال الهند).
Journey to the North of India.

إعذار وإنذار

توجه السيد من كابل إلى بشاور «عاصمة الحدود الشمالية» بين جموع المستقبلين والمشيعين ، والمرحبين والمحيين ، حتى وصل إلى بشاور ، ومكث هناك ثلاثة أيام ، ثم توجه منها إلى «نوشهره» لا يمر بقرية إلا ويدعو أهلها إلى الجهاد والنفر في سبيل الله ، ولما وصل إلى منطقة «هشت نغر» اجتمع عليه الناس كالجراد المنتشر ، وكادوا يكونون عليه لبداً[١] ، وكان منظر حبهم وسرورهم غريباً لم يشهد مثله من زمان ، وقد تفننوا في إظهار حبهم ، والتعبير عن عواطفهم الصادقة وذهبوا فيه كل مذهب.

وفي ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٢ هـ[٢] وصل إلى «نوشهره»[٣] وألقى هناك عصا التسيار واتخذها ثكنة للمجاهدين ، وأول معسكر لجيش المسلمين ، وأراد السيد أن يكون جهاده مطابقاً للسنة ، فإنه لم يخرج هو وأصحابه من ديارهم بطراً ورياء الناس ولا ليقيموا ملكاً ، ويؤسسوا دولة ينعمون في ظلها ويحكمون الناس بغير ما أنزل الله ، ولم يكونوا يقاتلون تحت راية عمياء ، مدفوعين بحمية جاهلية ، يخرجون الناس من حكم العباد إلى حكم العباد ، ومن سلطان الأهواء والشهوات إلى سلطان الأهواء والشهوات ، إنما كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله الله ، فأراد السيد أن يكون كل أمره موافقاً للكتاب والسنة ، ولأسوة الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان في الجرب

---

(١) جمع لبدة: وهو ما تلبد بعضه على بعض أي تراكم.

(٢) الموافق لـ ١٨ ديسمبر سنة ١٨٢٦ م.

(٣) كانت ثكنة إنجليزية كبيرة في العهد الأخير ولها أهمية استراتيجية كبيرة ، وهي الآن مديرية في الولاية الشمالية الغربية في باكستان.

والقتال ، وأن يكون في ذلك متبعاً لا مبتدعاً ، وكان النبي ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية كان فيما يوصيه به ، ويأمره أن يقول: «إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[١]

وكان المسلمون في العهود الأخيرة قد تناسوا هذه الوصية النبوية ونبذوها وراء ظهورهم[٢] ، تناساها ملوكهم وغزاتهم والفاتحون ، وجعلوا ينظرون إلى الحرب كقضية لا صلة لها بالدين ، ولا شأن لها بالأحكام الشرعية ، وكأن الإسلام قد تركهم فيها هملاً يفعلون ما يشاؤون ، وأصبحوا في العهد الأخير مقلدين للغزاة الطامعين ، والملوك الفاتحين ، والقادة الزاحفين ، فلا دعوة إلى الإسلام ، ولا دعوة إلى الجزية ، ولا تخيير ولا إمهال ، إنما هو القتال أولاً وآخراً ، وأراد السيد أن يفتتح أفضل أعماله عند الله ، وأحبها إلى نفسه بإحياء هذه السنة التي بقيت مهجورة معطلة من قرون كثيرة ، حتى يبارك الله هذا العمل ويسري نورها في الحياة كلها ، فكتب رسالة إلى ملك بنجاب ـ سردار رنجيت

---

(١) أخرجه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً في حديث طويل.

(٢) يستثنى من هذا العموم الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز الذي عرف في التاريخ بشدة حرصه على تطبيق الأحكام الشرعية والسنة النبوية في القضايا المالية والمدنية ، والإدارية والحربية ، وقد ألغى فتح سمرقند بعدما مر عليه سبع سنين ، لأن أهلها شكوا إليه أن قتيبة قد استولى على المدينة واستعمر المسلمين ولم يدعهم إلى الإسلام ، ولم يخيرهم بين الجزية والقتال ، وأمر قاضي المسلمين أن ينظر في هذا الأمر ، فإن تحقق له صدق أهل المدينة المشركين ، أمر بخروج المسلمين من البلد ، والعمل بحكم الشريعة من جديد ، وهكذا كان ، وأسلم معظم أهل البلد. (راجع فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١١ طبعة مصر ١٩٣٤ م).

سنغ[١] يدعوه فيها أولاً إلى الإسلام فإن أبى فإلى الإطاعة وأداء الجزية ، فإن رفض فإلى القتال ، وذكر فيها أن الموت في سبيل الله أحب إليه وإلى أصحابه من الخمر إليهم.

تلقى ملك لاهور هذه الرسالة ولكنه تجاهلها وأعرض عنها ، إنه نظر إليها كرسالة إنذار وتحد يوجهها شيخ من شيوخ المسلمين لا تحميه حكومة ، ولا يستند إلى قوة عسكرية كبيرة ، وجيش كثيف مسلح بأحدث طراز مؤلف من عسكريين متدربين ، وظن أنها نزوة من نزوات الشيوخ والعلماء الدين يستخفهم الطيش ويستهويهم اسم الجهاد ، وتثيرهم الحمية الدينية ، فتلتف حولهم عصابات من المتحمسين ، ثم لا تلبث إذا عضتها الحرب وحمي الوطيس[٢] أن تتفرق وتنسحب ، وقد جرب من ذلك كثيراً في الأعوام الماضية؟ فقال: «سحابة

---

(١) رنجيت سنغ Ranjit Singh (١٧٨٠ ـ ١٧٣٩ م) من كبار القادة العسكريين الذين نبغوا في أواسط القرن الثامن عشر المسيحي ، واستطاعوا بمواهبهم أن يؤسسوا حكومة واسعة قوية ، ولاه أحمد شاه ابدالي (حاكم أفغانستان والفاتح الكبير) على لاهور ، وهو في العشرين من سنه ، فاستقل بعد مدة يسيرة ، ولم يزل يوسع مملكته الوليدة حتى وصلت إلى كابل شمالاً وغرباً ، وإلى شواطىء جمنا جنوباً وشرقاً ، وأحدثت جيوشه الفزع والروع في المنطقة الشمالية الغربية ، وأزالت كل إمارة إسلامية وقوة منافسة ، وقد قامت مملكته الفتاة على أربع دعائم ، الأولى: المواهب القيادية الفطرية التي كان يتمتع بها الرجل ، الثانية: فروسية جيشه الذي كان مؤلفاً من فلاحي البنجاب والعناصر الحربية ووفائهم له ، الثالثة: الحقد القديم الذي كان يحمله السيخ وخاصة الفرقة المعروفة بـ «اكالي» على المسلمين لحوادث وحروب جرت في الماضي ، الرابعة: ضعف المسلمين وانحطاطهم حربياً وخلقياً ، وتفرق كلمتهم وتمزق شملهم ، كما مر في الصفحات الماضية ، ولم يكن رنجيت سنغ على جانب كبير من التعصب الديني ، ولكنه رضخ للأمر الواقع ، وعواطف جيشه العدائية ، ومنحه الشيء الكثير من الحرية للمصالح السياسية والحربية ، فعاش المسلمون في حكمه بين ذعر وخوف ، ونهب وسلب ، وعاشوا كشعب ذليل يعاني من أنواع السخرة والاضطهاد (اقرأ كتاب Ranjit Singh لمؤلفه Sir Lepel Griffin.

(٢) أي : اشتدت الحرب.

صيف عن قليل تقشع»[١] وأصدر تعليمات إلى قائده ـ بده سنغ ـ أن يكون على بال من هذه الشرذمة[٢] الغريبة التي نزحت من الهند ، ثم انصرف إلى ما كان عليه من قضايا الحكومة والسياسة ، وضروب اللهو والتسلية .

ودار الزمان دورته ، وتعاقب الليل والنهار حتى كانت معركة ـ اكوره[٣] ـ في ٢٠ جمادى الأولى ١٢٤٢ هـ التي بيَّت فيها المجاهدون عسكر ـ بده سنغ ـ ووضعوا فيه السيف ، وألحقوا به ضرراً كبيراً ، وظهر من بطولتهم وكفاءتهم الحربية ما لم يكن في حساب ، وظهر أنهم ليسوا لقمة سائغة للعدو ، بل هم أصحاب بأس ومراس ، وعزيمة وشكيمة ، وقتل من السيخ سبعمئة مقاتل ، واستشهد من المجاهدين بضعة وسبعون رجلاً .

* * *

(١) يضرب مثلاً لما يقل لبثه ويخف مكثه .

(٢) الجماعة القليلة .

(٣) أكوره ختك : قرية كبيرة في مديريه بشاور . . . تبعد عن بشاور بضعة وعشرين ميلاً .

لماذا سحبت اسمي؟

عزم السيد على إرسال بعثة من المجاهدين تغير على العدو في «اكوره» ليلاً وتبيتهم ، وكانت أول بعثة تفتتح الجهاد في سبيل الله في الهند على فترة طويلة من الغزوات الدينية .

وأمر السيد الضباط أن يختاروا من العسكر شباناً أقوياء ذوي جلادة وقوة ، لأنهم يستقبلون عدواً قوياً ، وجيشاً كثيفاً في جنح الليل .

قدم الضباط أسماء المجاهدين ونظر فيها السيد ، فإذا فيها اسم عبد المجيد خان الجهان آبادي ، وكان مريضاً يشتكي الحمى فشطب[١] اسمه .

وسمع عبد المجيد أنه شطب اسمه ، وسحب من المبعوثين ، فجاء إلى السيد يهرول ، وقال له :

لماذا سحبت اسمي يا سيدي؟

قال السيد : لأنك مريض! ولا ينوء[٢] بهذا العمل الشاق إلا قوي صحيح .

قال عبد المجيد : هذا أول يوم يفتتح فيه الجهاد في سبيل الله في هذه البلاد فيعز علي أن أتخلف عن أول مشهد يشهده الناس في سبيل الله ، فمن فضلك أعد اسمي واسمح لي بالخروج .

وجنده السيد الإمام وحيا فيه الهمة العالية والغيرة الدينية ، وقال : جزاك الله خيراً ، وتقبّل نيتك وعملك .

---

(١) شطب ـ شطباً ، الشيء قطعه أو شقه طولاً .

(٢) ناء بالحمل : نهض به ، وناء من الحمل : مال به إلى السقوط .

وخرج المجاهدون وخرج فيهم عبد المجيد خان إلى «أكوره» وبيتوا العدو[١] وهو أكثر منهم عشر مرات وكسروه ، وانتصروا عليه ، واستشهد عبد المجيد خان في المعركة.

* * *

(١) كما مر في الفصل السابق.

يد الله على الجماعة

انضم إلى جماعة السيد جم غفير[١] من أبناء البلاد لأغراض مختلفة ، فمنهم من رأى أن لهذه الجماعة شأناً ، وأنها قوة تنمو وتستفحل فمن الرأي والحكمة الانضواء إلى رايتها والانخراط في سلكها ، ومنهم من انضم إلى هذه الجماعة طمعاً في غنيمة وأسلاب وسلاح ينتزعه من العدو ، ومنهم من صحت نيته فدفعته الحمية الدينية وحداه شوق الجهاد في سبيل الله ، فخرج خالصاً مخلصاً لله تعالى لا يشوبه شيء من طمع ولا رياء ولا فخر ولا حميّة .

وقد كان لانتصار فئة قليلة على فئة كثيرة في معركة «أكوره» وما ظهر من المجاهدين ـ وهم حفنة من الرجال ـ من بطولة نادرة ، ومجازفة[٢] بالحياة واقتحام الأخطار دوي في القريب والبعيد ، فأغرى كثيراً من الطامعين والمغامرين بالالتحاق بهذه القوة الناهضة ، والنجم المتألق ، فجاؤوا أفواجاً ، والتفُّوا حول القائد لا تجمعهم غاية ولا يزعهم دين ، ولا يكفهم عهد أو مشاق ، وإنما هم أوشاب[٣] من الناس .

بخلاف أولئك المجاهدين الذين رافقوا السيد من الهند ، ووضعوا أيديهم في يديه ، وبايعوه على السمع والطاعة ، وأحسن السيد تربيتهم وعني بها كل عناية ، ورسخت فيهم التعاليم الدينية والأخلاق الإسلامية ، فهم رهن إشارة وطوع أمر ،

---

(١) أي الجمع الكثير الذي فيه الشريف والوضيع .

(٢) مخاطرة بها .

(٣) جاء في حديث صلح حديبية الذي رواه البخاري قول عروة بن مسعود «إني لأرى أوشاباً من الناس» يعني الأخلاط من أنواع شتى .

لا افتئات في الرأي ، ولا تحكيم للهوى ، ولا انسياق وراء المصالح الشخصية والمنافع الفردية ، زمامهم بيد أميرهم إذا قبض انجروا ، وإذا أرخى استرسلوا ، ومن كان هذا شأنه كان جديراً بكل ثقة ، خليقاً بكل مسؤولية وكان كثيراً على قلته ، قوياً على ضعفه .

وقد ظهر في حملة «حضرو»[1] التي قادها أبناء البلاد بإذن السيد عقب معركة «أكورو» من مظاهر الفوضى والعصيان ، والتسلط على الغنيمة وما ينافي الأحكام الإسلامية في الحرب ، وآداب الجهاد ، ما أقلق السيد وأهل الرأي في عسكره ، وشغل بالهم ورأوا أن ذلك خطر كبير على الغاية التي جاؤوا لأجلها وأن ذلك يغضب الله ورسوله ، ويحول بينهم وبين النصر الموعود ، وعرفوا أنه لا علاج لذلك إلا أن يبايع الناس السيد ويتخذوه أميراً ، وإماماً شرعياً يطيعونه في المنشط والمكره ، وفي المغرم والمغنم ، حتى يكون جهادهم جهاداً شرعياً ، له أحكامه وآدابه .

وقد كانوا يعرفون مما أوتوا من العلم ومعرفة الكتاب والسنة ، والغوص في كتب الأصول والفروع أن اختيار أمير يأخذ المسلمين بالكتاب والسنة ، وينفذ فيهم أحكام الله ويفصل في خصوماتهم ويردهم إلى الشرع ويقودهم إلى الجهاد ، ركن من أركان الإسلام قد أخل به المسلمون من زمن قديم ، فعوقبوا على ذلك عقاباً شديداً فتفرقت كلمتهم وتمزق شملهم ، وانفرط عقد حياتهم ، وساروا يعيشون كقطعان من الغنم لا راعي لها ولا حارس ، وقد عرفوا ما ورد في الكتاب السنة من الحث على ذلك والتحذير من تركه ، وقرؤوا قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ . . . ﴾ [النساء: ٨٣] وسمعوا قول الرسول صلى الله عليه

---

(١) حضرو : كانت قرية على نهر السند في الجانب المقابل لمعسكر المجاهدين في حكم السيخ. وكانت سوقاً عامرة ، ومركزاً تجارياً كبيراً ، وهي الآن في مديرية كيمبل بور في باكستان .

وآله وسلم: «صلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»[١].

وقد بلغ اهتمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانتظام شمل المسلمين ، وبأن لا يعيشوا إلا حياة اجتماعية ، لهم أمير يأمرهم بالكتاب والسنة ، ويحكم فيهم بالشريعة السماوية ، ويحرس مصالحهم الدينية والدنيوية ، وأن لا تمر عليهم ساعة ، ولا يخطوا خطوة إلا ولهم أمير يطيعونه ، حتى روى عنه أنه قال: «من استطاع منكم أن لا ينام نوماً ولا يصبح صبحاً إلا وعليه إمام فليفعل»[٢] وصح عنه أنه قال: «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[٣]

وقد حذر من حياة يعيش فيها كل إنسان هائماً على وجهه ، حبله على غاربه[٤] يفعل ما يشاء ويقاتل من يشاء ، ليس له قائد يأمره وينهاه ، ولا أمير يطيعه ويخضع له ، وسمي ذلك «الجاهلية» التي كان الناس يعيشون فيها كالسوائم والأنعام ، ويقاتلون بدافع الحمية والعصبية ، فقال: «من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية»[٥] وقال: «الغزو غزوان فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياءً وسمعة ،

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن أبي أمامة الباهلي ، وأخرجه أحمد وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطني.

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أبي سعيد وابن عمر.

(٣) رواه أبو داود وغيره عن أبي سعيد ، قال العلامة الشوكاني في شرح هذا الحديث : «إذا شرع هذا لثلاثة يكونون في فلاة من الأرض ، أو يسافرون فشرعيته بعدد أكثر يسكنون القرى والأمصار ، ويحتاجون لدفع التظالم وفصل التخاصم أولى وأحرى. وفي ذلك دليل لقول من قال: إنه يجب على المسلمين نصب الأئمة ، والولاة ، والحكام» (نيل الأوطار الجزء الثاني ص ٤٩٦).

(٤) الغارب : الكاهل ، يقال حبله على غاربه يعني هو حر طليق لا يتقيد بشيء.

(٥) رواه مسلم في كتاب الإمارة (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين الخ) عن أبي هريرة مرفوعاً.

وعصى الإمام وأفسد في الأرض فإنه لم يرجع بالكفاف»[١] إلى غير ذلك من الآيات الواردة ، والأحاديث المستفيضة مما لا يدع شكاً في وجوب نصب الإمام وطاعته.

فكان مما خص الله به هذه الجماعة وآثرها به إقامة هذا الركن العظيم الذي قوضه المسلمون وضيعوه من زمن قديم ، وكان يوم الخميس اليوم الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢ هـ يوماً سعيداً مباركاً في تاريخ الإصلاح والتجديد في الهند ، إذ اجتمع فيه المسلمون ، وفيهم كبار العلماء وأمراء المناطق ، ورؤساء القبائل ليبايعوا السيد على السمع والطاعة فيما يأمرهم به من الأحكام الشرعية ، وفي المعروف ، وفي القتال والصلح ، ويختاروه أميراً وإماماً ، وفي اليوم التالي (١٣ من جمادى الآخرة) قرئت باسمه خطبة الجمعة.

وقد أعلن السيد بعد ما تمت البيعة أنه لا بد من طاعة كاملة وانقياد تام للأحكام الشرعية ولا بد من نبذ العادات الجاهلية وما تعارف عليه الناس من أعراف[٢] ، وتقاليد وشعائر ما أنزل الله بها من سلطان ، ولو أدى ذلك إلى خسائر مالية ، وحرمان من الفوائد التي كان يتمتع بها الرؤساء والأشراف من زمن طويل أو تنازل من جاه ومنصب ، وشق ذلك على النفس ، وكبر على الأتباع والأشياع ، ولا بد من تحكيم الشرع في النفس والأهل والمال ، وفي القضايا العائلية ، والجنائية ، والمالية ، وقد قبل كل ذلك من بايعه وأعطوا فيه العهد والميثاق.

وانتشر هذا الخبر في هذه المنطقة كلها ، واجتمع الأمراء والرؤساء ما بين كبير وصغير ، وبايعوا السيد ، وكتبت الرسائل في هذا المعنى ، ووجهت إلى أمراء بشاور ، وأمير «بهاول بور»[٣] وملك «جترال»[٤] وجاءت منهم الردود

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي في الجهاد (في باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل) والحاكم وصححه ، والبيهقي.

(٢) جمع عرف ما استقر في النفوس ، وتوارثه الناس من عادات وأعمال.

(٣) إمارة في بنجاب الغربي على حدود السند تحكمها أسرة مسلمة تنتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان الأمير يومئذ النواب بهاول خان.

(٤) إمارة كبيرة في شمال بشاور في الجبال ، كان أميرها في ذلك الوقت سليمان شاه وقد تسمى هذه المنطقة بـ «كاشكار».

اللطيفة يرحبون فيها بهذه الخطوة المباركة ، ويبدون استعدادهم للسمع والطاعة ، ووجه السيد رسائل خاصة إلى علماء الهند وأعيانها وأمرائها ، واستبشر بذلك المسلمون ورحبوا به على درجات أخلاصهم للدين وغيرتهم الدينية ووعيهم ومعرفتهم بقيمة هذه الخطوة المباركة وخطرها وأثرها في حياة المسلمين وفي مصير هذه البلاد.

* * *

فرصة ضيعها المسلمون

انتشر خبر مبايعة الناس للسيد الإمام في البلدان ، وسرى بحديثها الركبان ، فتهافت الناس على الأمير يبايعونه ، ويعاهدونه على السمع والطاعة ، ورأى أمراء «بشاور» ورؤساء القبائل ـ الذين امتازوا من القديم بوزن الأشياء في ميزان الفائدة العملية وقوة المقارنة بين النفع والضرر ، والربح والخسارة ، والذين عرفوا بشدة الاحترام للقوة ، والاعتراف بمن كان له نجم طالع وجد صاعد ـ أنه لا يسعهم الاعتزال عن هذه القوة الناهضة ، والانطواء على نفوسهم ، وشق عليهم كذلك التجرد مما كانوا عليه من رئاسة وسياسة ، وما كانوا يتمتعون به من جاه ومنصب ، وأعراف أفغانية ، وتقاليد قبلية ، لا حكم للشريعة عليها ، ولا شأن للعلماء بها ، وإنما هو عمل بالمبدأ الجاهلي النصراني «فصل الدين عن السياسة» وقد انحصر الدين عندهم في العبادات ، وبعض المسائل الفقهية ، وتولى شرحه والدعوة إليه العلماء الذين يؤمون الناس في المساجد ، ويدرسون الطلبة في المدارس ، أما كل ما عدا ذلك من قضايا مالية ، ومدنية ، وإدارية ، وسياسية ، وكل ما يشرف به الإنسان ، ويعلو ويحكم غيره ، فقد اختص بالأمراء ، ورؤساء القبائل ، الذين توارثوا الإمارة والرئاسة كابراً عن كابر ، أو حازوها بحد السيف ، وقوة الساعد.

فتقدموا إلى السيد الإمام ، وهم في صراع بين المنافع الذاتية والمصالح الشخصية ، والعادات الجاهلية ، والأعراف الأفغانية ، وبين ما يرونه من إقبال الناس على هذه القوة الجديدة التي تجمع بين الصفة الدينية ، والصفة السياسية ، والتي لا تزال في نماء وازدهار ، وقد صغت إليها القلوب ، وهفت لها النفوس ، ورأوا أنهم إذا تأخروا فإنهم سيعيشون على هامش الحياة ، وفي مؤخر الركب ،

ويساورهم خوف كذلك من توتر بينهم وبين «رنجيت سنغ» حاكم «لاهور» الذي كانوا يعيشون في ظله ويتمتعون بثقته.

وأخيراً عزموا على الالتحاق بالسيد، وقد جاءته رسائل من أمراء «سمه»[1] يدعونهم فيها إلى نصر المجاهدين وقائدهم السيد أحمد، وقد عاشت منطقة «سمه» بعيدة عن نفوذهم محتفظة باستقلالها الداخلي، فطمعوا في بسط نفوذهم إلى هذه المنطقة الخصبة الغنية، وكان ذلك مما قوى عزمهم على زيارة السيد، والتودد إليه والقتال معه، فتوجه الإخوة الثلاثة ـ سرداريار محمد خان، وسردارسلطان محمد خان، وبيرمحمد خان ـ بجيوشهم ومدافعهم، وعسكروا في موضع «سرمائي» على خمسة أميال من «نوشهره» وعلم بذلك السيد فزارهم، وبايعوه بيعة الإمامة والإمارة.

واجتمع المجاهدون من أبناء البلاد من كل ناحية حتى بلغ عددهم إلى ثمانين ألفاً، وتوجه هذا الجيش الإسلامي إلى «شيدو»[2] وانضم إليه جيش أمراء «بشاور» ويبلغ عددهم إلى عشرين ألفاً، وهكذا بلغ عدد الجيش إلى مئة ألف وكان أكبر عدد اجتمع تحت لواء واحد ليقاتل العدو منذ زمن بعيد، وكانت ـ لو قدر الله، ووفق الأفغان، وأخلصوا لله وللإسلام، وتجرد الأمراء عن أنانيتهم، وعرفوا قيمة الوقت ـ معركة حاسمة تملي تاريخاً جديداً، وتنحو بالبلاد وبالأمة نحواً جديداً، فقد قيض الله جماعة أخلصت لله وللإسلام، وتجردت عن كل أنانية وهوى، وقائداً دق فهمه للإسلام، وعلت همته لإظهاره، وإعلاء مناره، وتوفرت فيه صفات القيادة ومواهب الإمارة، وصفا ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الناس، واجتمعت حوله قلوب مؤمنة، ونفوس أبيّة، وسواعد قوية، وبلغ عزّ المسلمين أوجه، ورنت إليهم العيون، واشتغل خيرة الناس بالدعاء لهم في الهند وغيرها، وأمسك المؤرخ قلمه ليكتب فصلاً جديداً في تاريخ قديم،

---

(١) المنطقة التي تقع بين «بشاور» و«مردان» ومعنة «سمه» السهل، وكانت تقطن هذه المنطقة قبائل «يوسف زئي» التي نزل عندها السيد والمجاهدون وكان له منها أنصار وحماة.

(٢) موضع يبعد من «أكوره» بأربعة أميال في جانب الشرق.

تاريخ تتكرر فيه حكايات الفشل والتفرق وتضييع الفرص ونكران الجميل وغدر الأمراء وخيانة الوزراء وخذلان الأصدقاء ، فهل يسمح يفتح صفحة جديدة في تاريخ المسلمين ، وبكتابة عنوان للنصر والفتح المبين؟

ولكن هيهات! لقد أعاد التاريخ نفسه في هذه المعركة الجديدة بين الحق والباطل ، فقد دس سم في الطعام الذي قدم إلى القائد الأمير ، ففعل السم فعله في جسمه وأعصابه ، فكان يغمى عليه مرة ، ويفيق أخرى ، والتشتيك القتال بين الفريقين ، والسيد في حالة إغماء وغيبوبة ، وطلب يارمحمد خان ـ وهو غير مخلص في طلبه ـ أن يحضر السيد القتال ، وأرسل إليه فيلاً ليركبه ، وبه عرج ، وكان الغرض أن يقع السيد أسيراً في يد السيخ.

وركب السيد وهو في هذه الحال ، وخاض المعركة واشتد القتال ، وبدت علائم النصر حتى تقدم بعض الناس يهنئون السيد بالفتح ، وهو لا يزال ينتابه الإغماء والصحو.

ولم يبد من أمراء «بشاور» وجيوشهم نشاط وحماس في هذه المعركة ، وجاءت قنبلة من جهة السيخ ، ووقعت قريباً من يارمحمد خان ، فثنى عنانه ، وانسحب من ساحة القتال ، وتبعته جيوشه ، ودارت الدائرة على المجاهدين ، وثبتوا في المعركة يقاتلون قتال الأبطال.

وطالت العلة بالسيد وأراد الله بالمسلمين الخير وقدر للسيد الحياة ، فكان يفيء مرة بعد مرة ، ويخرج بذلك السم ، ورأى أهل الرأي المصلحة في اعتصام الجيش ، بمكان آمن منيع ، متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، حتى يجمع شمل المجاهدين ، ويعود السيد إلى الحالة الطبيعية ، وكان السيخ قد ترصدوا للسيد ليأخذوه أسيراً ، وقد دبرت المكيدة لذلك باتفاق مع أمراء «بشاور» وفطن لذلك الفيال المسلم الناصح ، وأشار بإبعاد السيد عن موضع الخطر ، فأخذه بعض المجاهدين ، وفيهم عدد كبير من الجرحى فالتجؤوا إلى القرى المجاورة وآواهم أهلها المسلمون ، واستقبلوهم بكرم وشهامة ، ووصل إليهم السيد فقروا به عيناً ، وحمدوا الله على سلامته ، ورضوا بقضاء الله وقدره.

واجتمعوا حول السيد ، فذكرهم بالله ، وحثهم على التوبة والإنابة ، وقال:

لا بد لنا أن نتدبر في هذه المحنة ونلتمس أسبابها في أعمالنا وسيرتنا ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقد كان فيما وقع لي من تناول طعام كان فيه السم اقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وقد سمته يهودية في ذراع شاة[١] ، وإنني أعتبر ذلك كرامة وفضلاً من الله ، ثم حسر رأسه على عادته في الدعاء ، فأطال الابتهال والتضرع ، ورق فيه وخشع ، وبكى وأبكى الحاضرين.

وقد تحقق أن ما وقع كانت مؤامرة «يارمحمد خان» إرضاءً لصديقه ، ووليه حاكم «لاهور»[٢] وقد استقبل هذا «النبأ السار» في «لاهور» وفي البلاط الملكي بسرور عظيم ، وقد ظلت حكومة لاهور طول هذه المدة قلقة البال ، مشغولة الخاطر بهذه المعركة الفاصلة التي كانت لتقرر المصير ، وتغير مجرى التاريخ ، فلما سمع حكام لاهور أن أصدقاءهم المخلصين في «بشاور» قد كفوهم مؤنة القتال وأراحوهم من أكبر قوة وأكثف جيش ، اجتمع لحربهم في هذه المدة الطويلة ، شكروهم على صنيعهم ، وأبدوا كل فرح وسرور ، وأمروا بإنارة البيوت ، وإطلاق المدافع ، وأقام «مهاراجه» مهرجاناً كبيراً ، ووزع أموالاً طائلة على الفقراء كعلامة للفرح والانتصار الرائع[٣].

---

(١) جاء في سيرة ابن هشام «أهدت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم إلى رسول الله ﷺ شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، وتناول رسول الله ﷺ الذراع ، فلاك منها مضغة ، فلم يبقها ولفظها» اقرأ القصة بطولها في السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) يقول المؤرخ الهندكي المعاصر لذلك العهد «لاله سوهن لال» في كتابه «عمدة التواريخ» «لقد تواتر واستفاض في البلاد التي تقع وراء نهر السند ، أن صاحب السمو يار محمد خان قد دس السم الزعاف في طعام السيد ، وانسحب من الميدان بجيشه ، وذلك كله بما كان بينه وبين جلالة الملك «رنجيت سنغ» من اتحاد وصداقة».

(٣) راجع كتاب «ظفر نامه» لـ «ديوان أمرناتها» (ص ١٨١).

ولكن ذلك لم يفت في عضد[١] السيد ، فاسترجع قوته وعزمه ، وقام بنشاط جديد ، وحماسة فائقة للدعوة إلى الجهاد وقام بجولة دعوية واسعة في مناطق «بنير» و«سوات»[٢] وزار القرى والمدن يقضي فيها أياماً وأسابيع ، ويجتمع بالعلماء والرؤساء يلهب فيهم الحمية الدينية ، والجمرات الإيمانية ، ويوقظ فيهم الوعي الديني والشعور الصحيح.

وفي خلال هذه المدة جاءته جماعات المتطوعين والمجاهدين من الهند ، فيهم كبار العلماء ، والرجال الأقوياء والشبان المتحمسون ، وفي هذه المدة أرسل سفارة إلى ملك «جترال» تحمل هدايا وتدعوه إلى الجهاد ، ونصر المجاهدين.

وكان فيمن جاءه في هذه الجولة ولحق به شيخ الإسلام الشيخ عبد الحي البرهانوي ، والشيخ قلندر ومعه نحو ثمانين من المجاهدين الهنود ، والشيخ رمضان السهارنفوري ومعه مئة رجل ، والشيخ أحمد الله الميرتهي ومعه نحو سبعين ، والشيخ مقيم الرامفوري ومعه نحو أربعين من الشبان الأقوياء المسلحين المتدربين على القتال ، البارعين في أنواع الفروسية والفنون الحربية.

وتاب على يده في هذه الجولة المباركة ألوف من الناس ، وبايعوه على الجهاد وأصلح فيها بين المتنافسين والمتشاحنين فتصالحوا وتآخوا.

ورجع من هذه الجولة الموفقة التي كسبت قلوباً جديدة ، وجموعاً جديدة ، وقد قضى فيها ثلاثة أشهر إلى «بنجتار» وهي قرية على حدود «سوات» تكتنفها الجبال من ثلاثة جوانب ، فهي كقلعة حربية ساعدتها الطبيعة في المناعة والحصانة ، وقد دعاه سردارفتح خان رئيس قبيلة «خدوخيل» إلى الانتقال إلى هذه القرية ، وقد كان ممن بايعه ، واتخاذها مقراً دائماً ، ومركزاً عسكرياً للمجاهدين ، وقد أجاب السيد إلى ذلك ، وانتقل إليها على إثر عودته من «سوات» و«بنير».

---

(١) فت في عضده أي كسر قوته ، وفرق أعوانه.

(٢) مناطق حربية هامة في الحدود تقطنها قبائل قوية أفغانية ، معروفة بالشجاعة والحمية الدينية.

الحياة في المعسكر الإسلامي

استقر المهاجرون المجاهدون في «بنجتار» بعد مدة طويلة قضوها في حركة دائمة وتنقل مستمر ، أما هنا فقد تنفسوا قليلاً ، وذاقوا حلاوة الأمن والاستقرار فتجلت الأخلاق الإسلامية ، والسيرة الإيمانية العسكرية ـ التي دقق فيها قائدهم ومربيهم مدة طويلة ـ في أجمل مظاهرها ، وتمثلت في هذه الناحية البعيدة المحصورة بين الجبال حياة إسلامية جامعة ، تجلت فيها العبادة والمجاهدة في الله بجوار الجهاد في سبيل الله ، والأخوة والمساواة ، والخدمة والمؤاساة ، والإيثار والعطف ، بجوار التخشن والتقشف ، والاشتغال باليد ، فبينما هم أشداء على الكفار إذا هم بالليل رهبان إذا هم بالنهار فرسان ، وبينما هم في عبادتهم من الأبدال إذا هم في شجاعتهم من الأبطال[1] ، يجمعون بين الشدة واللين ، والأنفة والتواضع ، وقد شهد التاريخ بعد مدة طويلة أنموذجاً رائعاً للمجتمع الإسلامي الأول الذي عاش في القرون الأولى.

وقد قامت هذه الحياة على دعامتين قديمتين قامت عليهما الحياة في مدينة الرسول ﷺ ، وكان لهما فضل في صنع التاريخ ، وتوجيه البشرية ، وإغاثة الإنسانية المعذبة ، وهما دعامتا «الهجرة» و«النصرة» فكان المسلمون في هذه الناحية القاصية منقسمين بين المهاجرين والأنصار ، والمهاجرون الذين جاؤوا من الهند ، والأنصار الذين تبوؤا الدار وسكنوا البلاد من القديم ، وقد انعقدت بينهم أخوة جديدة ، مضافة إلى الإخوة الإسلامية القديمة ، وكان المهاجرون

---

(١) جملة مستعارة من الأمير شكيب أرسلان ـ رحمه الله ـ جاءت في حواشيه على «حاضر العالم الإسلامي» في وصف سيدي أحمد الشريف السنوسي.

يبلغ عددهم إلى ألف شخص سكن ثلاثمئة منهم مع السيد الإمام في «بنجتار» وانبث سبعمئة في ضواحيها والقرى المجاورة لها ، وكانت متقاربة متصلة ، كأنها أحياء مدينة واحدة ، وكانت توزع عليهم الحبوب والميرة من بيت المال الذي أقامه السيد على النهج الإسلامي الشرعي وكان الناس ينالون ما يحتاجون إليه من ثياب وملابس من بيت المال.

وكانت الحياة تجري في هذه «المستعمرة» الإسلامية على قاعدة الاقتصاد في المأكل والمشرب ، والاكتفاء بالكفاف والقدر اللازم ، لا على قاعدة التوسع في المطاعم والمشارب ، ولين العيش ، ورقة الحياة ، فقد جاؤوا مهاجرين في سبيل الله ، وقد كان لهم في أوطانهم كل ما يغنيهم ويطيب حياتهم ، وقد قرؤوا قول الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠] وسمعوا قول رسول الله ﷺ[١]: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه»[٢].

وكان إمامهم شريكاً لهم في هذه الحياة ، لا يتميز عنهم ولا يستأثر بشيء يجوع إذا جاعوا ، ويأكل إذا أكلوا ، ولم يكن أهل البلاد الذين أسكنوهم في ديارهم وأرضهم ملوكاً ، وأمراء ، وأصحاب سعة ، وحياة رغيدة ، إنما كان أكثرهم فلاحين ، ومتوسطين في المعيشة ، وكانوا يواسون إخوانهم المهاجرين ويعينونهم على الحياة.

وكان المجاهدون يعيشون حياة طبيعية إسلامية ، لا تكلف فيها ولا صنعة بعيدين عن الكبرياء والخيلاء ، والأعراف الجاهلية التي آمن بها المسلمون

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) هذه المعلومات التي تلقي ضوءاً على هذه المستعمرة الإسلامية مأخوذة من رسالة لشيخ الإسلام مولانا عبد الحي البرهانوي كتبها إلى أصدقائه في الهند.

وتمسكوا بها في عهد حكمهم ، وأوج المدنية العجمية المصطنعة ، كالنخوة الجاهلية ، والتعيير بالأنساب والحرف ، والتقزز من الأعمال التي يباشرها الفقراء ، وأهل الطبقات السافلة ، والحرف الوضيعة ، فكان كل واحد يخدم صاحبه ، ويتعاون معه في كل ما يحتاج إليه ، وكان بعضهم يحلق شعر بعض ، ويغسل ثيابه ، ويطحن الحبوب ، ويطبخ الطعام ، ويقطع الخشب ، ويعلف الدواب ، ويمسح الخيل ، ويواسي المرضى ، ويحمل القاذورات ، ويكون في مهنة صاحبه ، من خيلطة وترقيع ، وخصف النعال ، ينامون على الأرض ، ويتحملون المشاق ، ولا يعرفون البذاء وفحش الكلام ، وسلاطة اللسان[١] ، والغيبة والنميمة ، والحسد والبغضاء ، قد تلاقت قلوبهم وتحابوا في الله ، وكان فيهم الذين نشؤوا في التنعم ورخاء العيش ، ورقة الحياة ، بين خدم وحشم ، وفي عطف الآباء وحنان الأمهات ، وحب المحبين وإجلال المريدين ، ولكنهم قد شاركوا إخوانهم في الضيق والسعة ، وتعاونوا معهم في الخدمة والمشقة .

والذين جاؤوا من بعدهم من الهند ، ولم يألفوا هذه الحياة ، ولم يتخلقوا بهذه الأخلاق ، ولم ينشؤوا في أحضان الأمير المربى ، ظلوا أياماً يتعيرون من مباشرة مثل هذه الأعمال ، وقالوا إنها أعمال الأراذل وسفلة الناس ، وإنها لا تليق بالأشراف ، وأهل الأنساب والبيوتات ، ويفطن لذلك السيد ، وكان من عادته أنه لا يخص أحداً بنصح أو ملام ، بل يعمم ذلك ، ويوجه الخطاب العام[٢] ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ويحكي أخباره ، فقال مرة على سبيل المثال :

«إن امرأة مات زوجها وخلف بنين صغاراً ، ولم يخلف مالاً ولا عقاراً ، فاضطرت الأرملة البائسة إلى أن تغزل ، وتطحن وتخيط ، وتشتغل بكل ما يشق ويتعب ، لتعول الأطفال الصغار وتقوتهم ، وما ذلك إلا أنها تؤمل أنهم سيشبون ويبلغون أشدهم ، ويكسبون عيشهم ، وأنهم سيطعمونها ويقومون بشأنها في

---

(١) طول اللسان وحدته .

(٢) كان السيد في ذلك متخلقاً بالخلق النبوي ، فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه إذا أراد أن ينكر على عمل ، أو يرد عليه ، عمم الخطاب وقال : ما بال أقوام يفعلون كذا أو يفعلون كذا .

الكبر ، وفي أرذل العمر ، فتستريح بعد تعب ، وتنعم بعد شدة ، إن أملها ضعيف ومعرض للخطر ، فمن يدري؟ هل يعيش هؤلاء الأطفال ، ويبلغون أشدهم ، وإذا عاشوا وشبوا هل يكونون أبناءً بررة يعرفون لأمهم الحق والفضل ويبرونها ، أو تخترمهم المنية ويعتبطون[١] في الشباب ، وإذا نجوا من كل ذلك ، وطالت بهم الحياة ، فربما يتنكرون للأم الحنون التي حملتهم وهناً على وهن ، وجاهدت فيهم الجهاد الطويل ويعقونها[٢] ، كل ذلك ممكن وواقع ومشاهد في هذه الحياة ، ولكن الأم لا تترك تربيتهم ، وتحمل المشاق في سبيلهم لهذه الأوهام والمخاوف ، فكيف بإخواننا الذين هاجروا في سبيل الله وهم يباشرون كل عمل شاق ، وكل ما لم تعودوه ويألفوه ، ولا يستنكفون عن عمل مهما كان وضيعاً أو حقيراً ، ويحتسبون كل ذلك ، ويتقربون به إلى الله ، وقد باشره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه ، وأولياء الله في عصورهم ، وليس في ذلك خطر ولا شبهة ، ولا خيبة أمل ، كما كان الشأن في قصة الأم مع أبنائها ، بل وعد الله على ذلك بالأجر الجزيل ، وتكفله وضمن له ، واستفاضت فيه الأخبار الصحيحة ، فلا مجال للشك ، ولا داعي إلى الاضطراب والتردد.

إن هؤلاء الإخوان الذين فارقوا أهلهم ، وغادروا ديارهم ، وهجروا راحتهم ، وما كانوا فيه من نعيم وسعادة ، وكل ذلك في سبيل الله ، وابتغاء رضوانه ، إنهم جواهر كريمة ، وأعلاق[٣] نفيسة ، اختارهم الله من بين آلاف من الناس ، وساقهم التوفيق والإيمان إلى هذه الناحية البعيدة ، فنحن نعرف منزلتهم وقيمتهم ونضمهم إلى صدورنا ، ونحلهم من نفوسنا وقلوبنا أحب مكان وأعزه».

---

(١) أعبطه الموت ، أخذه شاباً لا علة فيه.

(٢) عق الولد والده : عصاه وترك الشفقة عليه والإحسان إليه واستخف به ، فهو عق وعاق ، وفي الحديث في إمارات الساعة (وبر الرجل صديقه ، وعق أباه).

(٣) النفيس من كل شيء ، يقول الحماسي :

أبيت اللعن أن سكاب علق نفيس لا تعار ولا تباع

و«سكاب» اسم فرس.

وبهذه الكلمة الرقيقة المؤثرة ، والأسلوب البليغ الحكيم ، كانت ترق نفوس الوافدين ، وتنحل عقدها ، فيندمجون في هذا المحيط الإيماني ، ويجارون إخوانهم في حياتهم وأخلاقهم ، ومساواتهم ومواساتهم .

وكان السيد الإمام يشارك المجاهدين في جميع أعمالهم ، فرأى مرة الشيخ إلهي بخش الرامبوري يدير الرحى ويطحن الحبوب ، فجلس معه يدير الرحى ويطحن ، وقال : إنني باشرت الطحن في مكة وأحب أن أباشره كذلك ، وشاع في الناس أن السيد يباشر الطحن ، فاجتمع الناس ، وصار من كان يتعير من هذا العمل يعتز به وينشط له ، وإذا نفد الوقود في يوم من الأيام أمر بإحضار الفؤوس ، وتوجه إلى الغابة ، ورافقه الناس يحملون الفؤوس ، ويطير هذا في الجيش فيجتمع الناس ويقطعون الخشب اقتداءً بأميرهم ويحملونه إلى المعسكر .

ويوماً شكا إليه الناس من الحصى الذي كان يؤذيهم في صلاة الجمعة ، فأمر بإحضار المناجل ، وقال : غداً نذهب إلى البرية ، ونختلي[1] خلاها ، ونحمل العشب والحشيش إلى المصلى ، وهكذا كان ، فسار السيد مع زملائه ، وحمل العشب وفرشه في المصلى ، واستراح الناس ، وشكا الناس يوماً أن الشمس تدخل في الخيام وتؤذيهم ، فأمر بالمناجل فجمعت ، وغدا مع رفاقه إلى الخارج فجاء بالخس والعشب ، وصنع خصصاً[2] جميلة ، لها أبواب وشبابيك ، وأعجب أهل العسكر بهذه الأكواخ الجميلة فقلدوهم فيها ، وقامت خصص وأكواخ كثيرة استراح فيها المجاهدون وأمنوا وهج الشمس وأذى البرد ، ومعرة الأمطار .

وكان إذا نفد الماء في المعسكر ، ذهب ليستقي لهم وحمل القربة ، فيقلده الناس ويحملون القرب والجرار ، ويجلبون الماء إلى المعسكر ، وقد يحمل الأحجار الثقيلة من شاطىء النهر ليبلط بها صحن المسجد ، ولا يرضى أن

---

(١) اختلى : جز العشب والنبات ، وفي الحديث الصحيح عن مكة : «لا تعضد شجرتها ، ولا يختلى خلاها» .

(٢) الخص : البيت من قصب أو شجر .

يأخذها منه أحد تخفيفاً له ، ويقول: «هل تمنعونني عن أعمال البر ، وتريدون أن تتملقوني كما يتملق الندماء أمراءهم وسادتهم» ، وقد يحمل من الأحجار لقوته ما يعجز عنه الأقوياء من العسكر.

وهكذا كان شأن إسماعيل الشهيد ، فكان مقدماً في هذه الأعمال الشاقة سباقاً إلى الخيرات ، مشاركاً للمجاهدين في جميع أعمالهم ، لا يتميز عنهم بشيء.

وقد انطلقت موجة المواساة والمشاركة في المعسكر الإسلامي ، وصار الناس يتنافسون في كل ما يريح إخوانهم ، ويعينهم ، وقد روى المؤلفون في تاريخ هذه الجماعة والذين رجعوا إلى الهند ، وطالت بهم الحياة أخباراً كثيرة ، وقصصاً عجيبة من هذه المواساة ، والأخوة الصادقة ، والإيثار على النفس ، والإنصاف منها ، والخضوع للأحكام الشرعية ، والأمانة والعفاف.

وإلى القارىء بعض هذه النماذج والأمثال:

* * *

فمن عفا وأصلح فأجره على الله

تخاصم خادم يقال له «لاهوري» وهو رجل متواضع المظهر ، يخدم خيل المجاهدين ويعلفها مع رجل اسمه عنايت الله ، له هيئة ومكانة عند السيد الإمام ، وهو من رفقته السابقين ، وأخذت الرجل حدة ، وكز لاهوري وكزة وقع منها على الأرض ، وصار يتقلب من الألم.

اتصل الخبر بالسيد الإمام ، وأطلع على القضية فعنف عنايت الله خان وعذله عذلاً شديداً ، وقال : لعلك اجترأت على هذا لدالتك ومكانتك مني وحقارة الرجل وضعته ، فلا يغرنك هذا فأنت ولاهوري سواء عندي ، لا فضل لأحد على الآخر ، وقد جاء الناس جميعاً واجتمعوا هنا للدين فقط.

وأحال أمرهما على قاضي العسكر وقال له: لا يأخذنك فيهما جنف[1] أو مداهنة ، واحكم بينهما بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً.

كان الأمر جلياً واضحاً ، فكان للاهوري أن يقتص من عنايت الله ، ويكزه كما وكزه ، فإن الجروح قصاص ، ولكن خاف الناس الشر وتخوفوا أن تكون للقصاص عاقبة لا تحمد ، وعسى أن تأخذ عنايت الله الحدة فيثور عليه ويبطش به ثانية وتحدث فتنة الناس في غنى عنها.

اجتهد الناس أن يتنازل لاهوري عن حقه ، ويسامح غريمه حسبة لله تعالى وتفادياً من الشر ، وأراد القاضي أن يقنعه ، واجتهد الناس أن يفهموه ، فقالوا له: إذا عفوت عن صاحبك ، وتنازلت عن حقك كان لك عند الله أجر عظيم ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

---

(١) ميل عن الحد، والحق.

أما لو أخذت حقك كنت وصاحبك سواء ولم تستحق الأجر والشكر.

قال لاهوري في بساطة: ولو أخذت بحقي واقتصصت من صاحبي أكان علي وزر؟ قالوا: لا! بل كل من عند الله ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٢] قال لاهوري: إذاً آخذ حقي وأقتص من صاحبي.

هنالك يئس الناس وقطعوا الرجاء وأوقف القاضي عنايت الله أمام لاهوري وقال للاهوري: دونك الرجل فاضربه كما ضربك واقتص منه.

قال لاهوري: أمن حقي أن أضربه كما ضربني وأقتص منه.

قال القاضي: نعم.

واضطرب الناس وأيقنوا أن لاهوري ضاربه ومقتص منه.

قال لاهوري: اشهدوا أيها الناس أن القاضي قد أعطاني حقي ومكنني من غريمي وقد قضى ما عليه، وهأنذا متمكن من خصمي لا يمنعني من القصاص أحد، ولا يحول بيني وبينه شيء، ولا أخاف أحداً.

ولكن اشهدوا أيها الإخوان أني عفوت عن أخي، وتركت حقي حسبة لله تعالى وابتغاء رضوانه.

تقدم لاهوري وعانق عنايت الله خان وضمه إلى صدره وصافحه، وهتف الناس: مرحى مرحى، وحياك الله يا لاهوري وبياك فقد عملت عمل الرجال، وصنعت صنع الأبطال.

وهكذا عمل «لاهوري» بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ ـ ٤٠].

* * *

إحدى يدي أصابتني ولم ترد

نريد أن نوليك يا أستاذ توزيع الحبوب في عسكر المسلمين!

هكذا خاطب السيد الإمام رجلاً نحيف الجثة قد أضناه المرض اسمه الشيخ عبد الوهاب من لكهنؤ.

قال الشيخ: أنا يا سيدي مصاب بأمراض كثيرة، وأجمع القرآن في هذه الحال، والعمل شاق عسير ذو خطر، لا أستطيع أن أقوم بأعبائه، فلو رأى السيد الإمام أن يسامح العبد لفعل.

سكت السيد هنيهة ثم قال له تشجع يا أخي وتوكل على الله، وشمر ذيلك لخدمة الإخوان المسلمين، وسأدعو الله تعالى وأرجو أن يشفيك ويرزقك صحة وقوة لجمع القرآن في خلال هذه الخدمة.

فرح الشيخ وصار يؤدي وظيفته بأمانة ونشاط، ورضي الناس بأمانته ونشاطه، ونصحه للمسلمين وشفقته عليهم وأثنوا عليه خيراً، وبرىء الشيخ من علله وأسقامه وقوي وسمن وجمع القرآن في هذه المدة.

وقابله السيد الإمام ذات يوم وقال له في فرح وسرور: ها يا أستاذ إن الله سبحانه وتعالى قد منَّ عليك بصحة وقوة ووفقك لجمع القرآن.

قال الأستاذ: نعم يا سيدي إن الله تعالى قد أجاب دعاءك وأرجو أن تدعو لي بأن يثبته الله في صدري فلا أنساه، وأوفق أن أقرأ عليك مرة في التراويح.

قال السيد: سأدعو إن شاء الله وأرجو من فضل الله سبحانه أن يثبته في صدرك فلا تنساه، وكان هذا أجرة لك من الله سبحانه على خدمتك للمسلمين وإخلاصك ونصحك في هذا العمل الجليل.

وكان الشيخ عبد الوهاب يتلو القرآن ويوزع الحبوب والدقيق في وقت واحد ، ولا يزيد ولا ينقص في النصيب ولا يخطىء.

وبينما كان الشيخ يوزع الدقيق في يوم من الأيام إذ جاءه إمام علي العظيم آبادي ، وقد جاء في عسكر المجاهدين حديثاً ، وكان جسيماً قوياً فتقدم وقال أعطني نصيبي ، قال الشيخ عبد الوهاب اصبر يا أخي قليلاً حتى يأتي دورك . وهذا دور غيرك ، ولم يتأخر الرجل وأخذه طيش الشباب فدفع الشيخ بقوة فسقط الشيخ على الأرض.

رفعه الناس من الأرض وغضب القندهاريون الذين كانوا هنالك ، وكادوا يسطون بإمام علي ، ولكن حال الشيخ بينهم وبين إمام علي ، وقال هو أخي وقد دفعني ، فلماذا تضربونه أنتم:

إحدى يدي أصابتني ولم ترد

سكت الناس ونما الخبر إلى السيد الإمام ، فسأل الشيخ عبد الوهاب عن القصة ، فقال يا سيدي هو رجل صالح جاء يطلب نصيبه ، فقلت له: انتظر حتى يأتي دورك ، وكان في عجل فاصطدم بي من غير قصد ووقعت.

وسمع إمام علي كلمة الشيخ عبد الوهاب فخجل ، وجاء إلى الشيخ عبد الوهاب واستسمحه وصافحه.

* * *

أمانة مع العدو

قد رسخت في المجاهدين الآداب والتعاليم التي أخذهم بها قائدهم ومربيهم وانصبغوا بها ، وأصبحت لهم طبيعة لا تفارقهم في الظعن والإقامة ، وفي الرضا والغضب ، ولا تفرق بين عدو وصديق ، وقريب وبعيد ، وهنا أنموذج من هذه الأمانة التي أصبحت لهم شعاراً وخلقاً وطبيعة.

خرج فتح علي من عسكر المجاهدين في «بنجتار» إلى مدينة «بشاور» للعلاج ، واتفق نزوله عند ضابط من ضباط «السيخ» والحرب قائمة بينهم وبين المسلمين.

قال الضابط: من أين أنت يا أخا المسلمين ، وكيف أقبلت؟! أخبرني بشأنك ولا تخف.

قال فتح علي وقد تشجع وتجلد: إنما جئت من الهند مع الأمير السيد أحمد ، وأنا رجل من المسلمين في جيشه.

وإن رجاله أيها الرئيس قوم لا يكذبون أبداً ، ولا يخدعون أحداً ، صديقاً كان أو عدواً ، فإن الأمير أدبهم هكذا ، وإن الأمير أيها الرئيس صاحب أخلاق عالية ، صاحب كرم وسخاء ، وفتوة ومروءة ، صادق الوعد ، محافظ على العهد ، وإن اللسان ليعجز عن وصفه ، وتكون مسروراً جداً إذا قابلته ، وهو ولي من أولياء الله فمن آذاه آذنه الله بالحرب.

قال الضابط: صدقت يا أخا المسلمين ، وقد سمعت عن صاحبك من قبل ما شوقني إلى لقائه ، وأنا أنوي زيارته ، وأنتظر أن يرجع أخي من لاهور ، فإما أن أزوره أنا أو أرسل إليه أخي.

وتحدث معي يا أخا المسلمين كل يوم في السر عن صاحبك ، فإني أريد أن أسمع عنه كل يوم.

قال فتح علي: إن الأمير أيها الرئيس صاحب شهامة وكرامة ، وهو من دماثة الخلق ولين العريكة ، بحيث إذا رآه أحد وجلس إليه ما أحب أن يفارقه ، وسأرجع إن شاء الله بعد أربعة أيام أو خمسة ، وبودي أيها الرئيس أن أتفرج مرة على قلعة خيرآباد ، وقلعة «أتك» فإن الناس يسألونني عنهما ولا أدري بماذا أجيبهم.

قال الضابط: عجباً لك يا أخا المسلمين ، أنتم حرب لنا ومن أنصار عدونا الأمير السيد أحمد ، فكيف تجسر على هذا الكلام ، وتقترح على أن أمكنك من زيارة قلاعنا الحصينة ، والاطلاع على مراكز قوتنا ، ومخازن سلاحنا ، ألا تخاف؟

قال فتح علي: وماذا أخاف أيها الرئيس؟ إن أصحاب الأمير لا يخافون إلا الله ، وقد آنست منك كرماً ، ورجوت أن أزور بواسطتك تلك القلاع.

ضحك الضابط وقال: لا تجد يا أخا المسلمين علي في نفسك ، فإنما قلت ذلك دعابة ، وسأكتب لك كتاباً تسلمه إلى الحارس فيسمح لك بالدخول.

ودعا الضابط بالقلم والدواة ، وكتب توصية إلى صاحب الحرس وسلمها لفتح علي ، وذهب فتح علي وأذنوا له بالدخول ، فدخل في القلعة فطاف في نواحيها.

ورجع فتح علي في آخر النهار فوجد مضيفه الضابط سكران يهذي ، وفي عنقه عقد ثمين من ذهب ، وفي أذنه قرط من ذهب ، وبجانبه سيف قبضته من ذهب.

ولما رأى فتح علي قال: أزرت قلعة «أتك» يا أخا المسلمين؟

قال فتح علي: نعم ، وغلبت الضابط عينه فنام.

قال فتح علي: وبقي الضابط نائماً وخفت أن يدخل بعض اللصوص ـ وهم في هذه الناحية كثير ـ فيأخذوا سلاحه وماله وهو نائم لا يشعر.

قال: فأخذت هراوة وطفقت أدور على الباب وأحرس البيت.

واستيقظ الضابط في نصف الليل، فرآني أدور وأحرس فقال: ألا تزال يقظان يا أخا المسلمين؟

قلت: نعم كنت سكران نائماً وهذه أموالك مطروحة هنا، فخفت أن يدخل بعض اللصوص ويأخذها ويصل إليك مكروه، فقمت أحرس.

وأنت أيها الرئيس ضابط كبير لا يجمل بمثلك أن تذهب الخمر بلبه، ويبقى غافلاً لا يشعر.

قال: صدقت يا أخا المسلمين، فإن من العيب أن يقع من مثلي مثل هذا، وحملته عينه فنام.

قال فتح علي: ولما كان الصباح وتعالى النهار، أخذني معه إلى قلعة خيرآباد، وتفرجت عليها ورجعت.

ولبثت معه ثمانية أيام، وكان يسألني كل يوم عن أخبار السيد الإمام، وأخبره بحديثه، وذات يوم قال لي: يا أخا المسلمين قد نصحت لي ذلك اليوم في شأن الخمر، وقد تبت اليوم من إكثارها حتى لا أشعر بشيء.

قال فتح علي: ورجعت إلى المعسكر آمناً.

* * *

تأثير المحيط في أخلاق الأجانب

كانت أخلاق المجاهدين تؤثر في كل من زار هذه المستعمرة الإسلامية ، ولو بنية فاسدة ، وقدر له أن يقضي بها أياماً ، فكانوا قوماً لا يشقى بهم جليسهم ، ومما يحكى أن رجلاً من قرية قريبة اسمه «بهليلا» كان ممن اشتهر بالقسوة وإيذاء الناس ، وقطع الطريق ، والإغارة على الناس ، وقد عيل منه صبر أهل القرى ، وضاقوا به ذرعاً ، فاجتمعوا ونفوه من القرية ، وعبر «بهليلا» نهر السند ، وسكن «السيخ» وجاورهم وجاراهم ، فبنوا له برجاً على شاطىء النهر ، وأقطعوه أرضاً للزراعة ، فصار يسكن في هذا البرج ، والتف حوله نحو خمسين وستين من أنصاره ، فكان يغير في ضواحي قريته القديمة «تويثى» ويأتي بالغنيمة إلى برجه فيعيش عليها ، وقد استصحب معه مرة جماعات من السيخ وأغار على قبيلة أفغانية ، ونهب قريتها العامرة وقتل من أهلها ثمانين ، واستولى على هذه القرية وتديَّرها واتخذها منطلقاً لغاراته وتحركاته ، وأقلق ذلك أهل الضواحي والقرى ، وأصبح لهم الشغل الشاغل .

وذهب أهل هذه القرى إلى السيد الإمام وطلبوا منه أن يريحهم منه ، ويكبح جماحه ، ووعدهم السيد بذلك ، وكتب رسالة إلى «بهليلا» يقول فيها : «أنت رجل مسلم فما يجمل بك أن تنهب إخوانك المسلمين وتعاكسهم ، وأولى بك أن تلحق بنا ، نستعمرك في قريتك القديمة ، ونرد إليك عقارك وأرضك ، ونضيف إليها قرية نقطعك إياها .

ولما تسلم «بهليلا» هذه الرسالة استشار زملاؤه ، فأشاروا عليه باللحوق ، وقالوا : إنه إمامنا ، وصاحب الأمر فينا ، وإذا أراد بنا شراً رأينا ، فالتحق «بهليلا» ومن معه بالسيد ، ورحب السيد بهم وهش لهم ، وقدم «بهليلا» ثلاثة أفراس ، وأربع بنادق ، وتسعة سيوف انتهبها من السيخ ، وقدم السيد هدايا لائقة إليه وإلى

أصحابه ، وملابس ونقوداً ، وبايعوا السيد وتابوا عن الفسق والفجور ، وعن جميع المنكرات ، وضيفهم السيد ثلاثة أيام ووعظهم ، وودعهم ، ودعا بأمراء القرية ، ودعا «بهليلا» فأصلح بينهم ، واسترد له ما انتزعوه من أملاكه وعقاره ، وأقطعه قرية على نهر السند على شاطىء النهر كانت قد خربت ، وكان يقطع فيها الطريق على المسافرين.

وقد تغير حال «بهليلا» وحسنت سيرته ، وظهر عناؤه وحسن بلاؤه في الحروب ، وكان من الذين نصر الله بهم الدين وقوى بهم المسلمين.

وزار السيد رجلان من «السيخ» يوماً ، وهو في «بنجتار» وسألهم السيد عن غرضهما بهذه الزيارة ، قالوا: لا شيء إنما جئناك نزورك ، فقال لهما: مرحباً فأقيما عندنا ما شئتما ، ورتب لهما السيد مقداراً من الدقيق والعدس والسمن لطعامهما يومياً ، وكان من عادتهما أنهما يحضران مجلس السيد بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة العصر ، ثم ينصرفان إلى منزلهما ، وكان السيد يؤنسهما بحديثه ، ويقول لهما: أقيما على الرحب والسعد ولا تراعا.

وبعد أن مضى على ذلك عشرة أيام أو أكثر قالا للسيد : لقد مكثنا عندك مدة واستمعنا إلى حديثك ، فوجدنا من سيرتك وأخلاقك فوق ما سمعناه، وقد أعجبنا دينك وطريقتك ، ونحن نريد الآن أن تدخلنا فيها وتعلمنا الإسلام ، وفرح السيد بكلامهم ، ولقنهم كلمة الشهادة ، وسمي أكبرهما عبد الرحمن وأصغرهما عبد الرحيم ، وأسلمهما إلى الشيخ نظام الدين الجشتي ليعلمهما أحكام الإسلام وأعماله، وخلع عليهم ثياباً وملابس، ورتب لهما طعاماً واختتنا، وحسن إسلامهما.

وأخبرا السيد بأن قائد جيش السيخ أرسلهما من خير آباد جاسوسين ، ولكن الله هدانا للإسلام ، وشرح صدورنا للإيمان وسر السيد بصدقهما ، وخيرهما بين أن يقيما في الجيش الإسلامي ، وبين أن يرجعا إلى خير آباد ، فاختارا العودة ومكثا في المعسكر الإسلامي شهرين ، ثم استأذنا للعودة ، فأذن لهم السيد ، وأعطاهما فرسين ، وودعهما.

* * *

النظام القضائي والحسبة في المستعمرة الإسلامية

وبعد أيام قليلة نفذ السيد النظام القضائي الشرعي ، وولى العالم الأفغاني الجليل الشيخ محمد حبان رئاسة القضاء ، فكان قاضي قضاة المسلمين في هذه المنطقة ، ونصب في كل قرية قاض ومفت ، وصاحب حسبة ، وجباة وعاملون على الصدقات يجمعون العشر والزكاة من غير إجبار وإرهاق ، فيجتمع كل ذلك في بيت المال ، ويقسم على الطريقة الشرعية.

واستشار القاضي محمد حبان علماء المهاجرين وعلماء البلاد ، فعين غرامات وتعزيرات على ترك الفرائض الشرعية وعلى الأعمال التي تنافي الأخلاق والآداب الإسلامية ، وما يلحق ضرراً بالمسلمين ، فزال كثير من المنكرات ، وارتدع كثير من الشطار والمستهترين والماجنين ، وكف عن المسلمين شرهم وأذاهم ، وكثر عدد المصلين وظهر تفسير لقوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١].

* * *

ثكنة عامرة ومدرسة حربية

لم تكن هذه المستعمرة الإسلامية زاوية من زوايا الصوفية ، أو رباطاً من رباطات[١] المنقطعين والمتبتلين ، إنما كانت ـ بجوار كونها مركز ديني وتربوي ـ ثكنة عسكرية ، ومركز فروسية وفتوة ، وكان المهاجرون المجاهدون في هذه المستعمرة في رباط دائم ، يعيشون في «حالة طوارىء» وجو حربي ، مستعدين لمواجهة كل خطر ، آخذين للجهاد عدته وأهبته.

انطلق السيد ذات يوم في جماعة من المجاهدين إلى شعب قريب يبعد من «بنجتار» ميلا ، وكانت هناك رابية عليها سهل ، واختاره السيد ليكون مركز المدفعية ، وأمر بالمدافع فجيء بها من «بنجتار» ونصبت عليها ، وخزنت هناك كمية من القنابل والرصاص ، والبارود ، وبنيت هناك بيوت ليسكن فيها المدفعيون.

وأقيم مصنع في قرية «قاسم خيل» لصنع القنابل ، وزاره السيد يوماً ، ومكث هناك يشاهد عملية صنع القنابل وإفراغها ، وأقيم سباق للخيل والتدرب على الفروسية ، وأقيمت مناورات[٢] حربية ، ومسابقات ظهر فيها تفوق السيد ، وبراعته في أنواع الفروسية ، والفنون الحربية ، وتسابق الناس في الجلاد والطراد ، شارك فيها السيد ، وظهرت فيها مهارته وزعامته ، وأذعن له كبار الفرسان والأبطال بالسبق والحذق ، وظهر أنه وصل إلى حد الإبداع والاختراع فيها ، وأنه ليس من المقلدين في هذه الفنون ، بل بلغ فيها درجة الاجتهاد.

---

(١) الرباط : المعهد المبني ، والسوقوف للفقراء ، ج الرباطات ، والرابط ، الراهب أو الزاهد.

(٢) الكلمة تستعمل الآن للتمرينات والتجارب الحربية ، والمناورة في القديم المشاتمة.

وعمت الرياضات البدنية ، والتدريبات العسكرية في هذه المستعمرة ، واستفاد بعضهم من بعض ، وكان من المجلين[١] السابقين في هذه الفنون الحربية بعد السيد الشيخ أحمد الله الناكفوري ، والضابط عبد الحميد خان ، وأمره السيد بتعليم المجاهدين الفروسية والرماية ، وإطلاق البنادق ، والضرب بالسيف ، ولما رأى أهل البلاد ـ وهم رجال الحرب بالطبيعة والنشأة ـ أعجبوا بمهارة هؤلاء الغرباء فشاركوهم في هذه التدريبات ، واستفادوا منهم الكثير ، وقامت مراكز كثيرة للتدريب العسكري ، والرياضات البدنية ، وعين السيد الإمام عبد الحميد خان رئيساً لفرقة الفرسان ، وجعله ضابطاً في الجيش ، ودعا له كثيراً ، وأعطاه فرساً نجيباً كان أهداه إليه النواب وزير الدولة ولي «تونك» ولاث[٢] على رأسه العمامة ، وفرح عبد الحميد خان بهذه الكرامة وحمد الله عليها ، وذهب إلى المسجد فصلى ركعتين شكراً ، وتغيرت أخلاقه ، فلانت عريكته ، وزالت الحدة التي كانت تغلب عليه ، وأصبح حليماً كريماً ، رفيقاً بالمسلمين ، شديداً على أعداء الدين ، وقتل شهيداً في وقعة «مايار» وحزن عليه المسلمون وترحموا عليه ، وأثنوا عليه ثناءً عاطراً.

* * *

(١) المجلي : السابق في الميدان.
(٢) لاث العمامة : لفها على الرأس.

نشاط المجاهدين

لم يجلس المجاهدون في هذه المستعمرة عاطلين كسالى ، يشتغلون بالعبادة والرياضة ، بل ظل السيد يتصل بأمراء النواحي ورؤساء القبائل ويراسلهم ، وقد يزورهم ، ويحثهم على الجهاد ، ونصر الدين ، وكان في مقدمتهم «بائنده خان» وإلى «أمب»[١] وكان معروفاً بالفتوة ، والشجاعة ، والنخوة.

وكان يرسل سرايا وبعوثاً إلى جهات مختلفة تتجلى فيها شجاعة المجاهدين وفروسيتهم ، واحترامهم للأحكام الشرعية ، وخضوعهم للنظام ، ونزاهتهم وعفتهم في المغانم ، ويظهر فيها انصراف الأمراء المحليين ، ورؤساء القبائل إلى مصالحهم الفردية ، وخصوماتهم القبلية ، وضعف الحمية الدينية ، وقلة الشعور بالخطر الداهم ، والعدو الجاثم ، وقد قامت حروب في عدة مواضع ظهرت فيها بطولة المجاهدين ، ومجازفتهم بالحياة والنفوس ، ورباطة جأشهم ، وكان للشيخ محمد مقيم الرامفوري القدح المعلى في هذه المغامرات ، والحروب والغارات.

وجاءت قوافل المتطوعين تترى من الهند ، وكانت خمسة عشر ركباً ، فيهم كبار العلماء ، وأصحاب الوجاهة ، والشبان المتحمسون الغيارى ، وكان من بينهم السيد أحمد علي ابن أخت السيد الإمام وغيره ، وجاءت أموال أرسلها أنصار الدعوة[٢] ، وأفراد الجماعة ، استعان بها المجاهدون في الأغراض

---

(١) مدينة على شاطىء نهر السند في الجانب الغربي.

(٢) كان على رأسهم وفي مقدمتهم العالم الجليل والمحدث الكبير الشيخ محمد إسحاق الدهلوي سبط الشيخ عبد العزيز ، وهو الذي انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف=

الدينية ، وفي إقامة صلبهم ، وسد رمقهم ، وكانت الرسائل تكتب في لغة رمزية لا يفهمها إلا علماء الجماعة ، وكان كثير من هذه الرسائل تكتب بالعربية[١].

وقد بث السيد دعاة مبلغين يعظون الناس ويدعونهم إلى الجهاد ، وأرسل بعض كبار علماء الجماعة إلى الهند للوعظ والإرشاد والدعوة إلى الهجرة والجهاد ، ونشر العقيدة الصحيحة ، ومحاربة الخرافة والجاهلية ، كان منهم الشيخ محمد علي الرامفوري ، والشيخ ولايت علي العظيم آبادي من كبار خلفاء السيد وأخص أصحابه.

وقام بجولة أخرى في «سوات» وأقام في عاصمتها «خهر» سنة كاملة ، منقطعاً إلى الدعوة والإصلاح ، والوعظ والإرشاد ، مشمراً عن ساق الجد ، محفوفاً برؤساء القبائل ، وأعيان البلاد وعلماء الأطراف.

وهنا كانت وفاة شيخ الإسلام الشيخ عبد الحي البرهانوي رزية عامة ، وخسارة فادحة ، تبادل فيها الناس التعازي ، وفقدوا فيه العالم الرباني ، والداعي المخلص ، والأب الرحيم ، وكان مصاباً كبيراً ، وقد تجلت في آخر عهده بالدنيا ، واستقباله للآخرة قوة إيمانه ، وغيرته الدينية ، يقول الراوي الثقة:

«بقي شيخ الإسلام مولانا عبد الحي البرهانوي خلف المجاهدين وخلفه أميرهم (السيد أحمد) لمصالح دينية ، وحاجات يقضيها ثم يلحقه ، فبقي الشيخ يحن ويتطلع إلى الطلب وكأنه حُوت أخرج من الماء أو منفي يعيش في الخلاء ، ولما جاءه الطلب لم يتمالك فكان يجري ويعدو ويقول للناس: ها قد طلبني الأمير ، ها قد طلبني الأمير.

ولم يزل يجوب القفار والصحارى ، ويجتاز الأودية والبراري ، ويعبر الأنهار العميقة ، ويطلع الجبال الشامخة حتى وصل إلى ثكنة المجاهدين في حدود الهند

= وإسناده في العهد الأخير ، اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء السابع من «نزهة الخواطر».

(١) وصور من هذه الرسائل الرمزية ، والمكتوبة بالعربية لا تزال محفوظة في مجموع رسائل المجاهدين المحفوظ في مكتبة «تونك».

الشمالية الغربية ، ولما سمع السيد الإمام بقدوم شيخ الإسلام استبشر وفرح به كثيراً ، واستقبله من بعيد وأكرم مثواه.

ووصل شيخ الإسلام ، وكتب إلى أصدقائه في الهند: كنت أسمع وأقرأ في الكتب أن الرجل إذا دخل الجنة نسي أحزان الدنيا وآلامها ، وزال عنه التعب والعناء وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر : ٣٤] وقد وقع لي هكذا ، فلما وصلت إلى أصدقائي وإخواني وصرت فيهم زالت عني وعثاء الطريق.

ومكث شيخ الإسلام في عسكر المجاهدين يفيدهم في العلم والدين ، ويحكم بين المسلمين ، ويقضي بين المتخاصمين حتى وافاه الأجل.

ولما حضرته الوفاة أرسل إلى شيخه السيد الإمام ـ وهو أصغر منه سناً ـ وقال: أردت أن أموت شهيداً في ميدان القتال وأراد الله أن أموت مريضاً على الفراش ، ثم سكنت نفس الشيخ وفاضت روحه وهو يقول: «اللهم الرفيق الأعلى ، ولحق بالرفيق الأعلى».

وعاد المجاهدون في «خهر» إلى التدريبات العسكرية ، والرياضات الحربية ، والمسابقة في الرمي والسباق ، وإطلاق النار ، يحضرها السيد أحياناً ، ويوجههم توجيهات مفيدة ، ويحذرهم من الاتكال على مهارتهم ، والإدلال بها ، ويحثهم على الاعتماد على الله وطلب النصر منه.

ومن «خهر» وجه سرية في قيادة الأمير الكبير ، والمؤمن المخلص أرباب بهرام خان إلى «عثمان زئى» قريب «بشاور» حضرها السيد بنفسه بعد أيام ، وقد لقي فيها المجاهدون الشدة ، وكادوا يتلفون في نحر شديد ، وظمأ قاتل ، ومتاهة ضلوا فيها الطريق ، ولكن الله سلم ، وعادوا إلى مقرهم.

* * *

تجديد النظام الشرعي
وإحكام نظام الإمارة والإمامة

قوي إيمان الجماعة الذين دخلوا في مبايعة السيد ، واختاروه إماماً وأميراً بفائدة إعادة هذا الركن العظيم ، وإحياء هذه السنة المباركة ، وبشدة الحاجة إلى توسيع هذا النظام ، وبسط نفوذه ودائرته ، وإقامته على أسس ثابتة قوية ، وعرفوا يقيناً أنهم لا يستحقون نصر الله إلا إذا دعوا المسلمين الذين يسكنون في النواحي والضواحي إلى قبول الأحكام الشرعية ، وترك الأعراف والتقاليد الأفغانية التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وأحكامه ، وإلى إطاعة الإمام إطاعة تحول بينهم وبين البدع والمنكرات ، والعمل بالأهواء والشهوات ، حينئذ يتحقق الجهاد الشرعي ، وينزل نصر الله وتأييده.

وكان السيد في جولة في «سوات» وأقام في عاصمتها «خهر» أكثر من سنة «جمادى الآخرة ١٢٤٣ ـ جمادى الآخرة ١٢٤٤ هـ» وقد صحت عزيمته على توسيع هذا النظام الشرعي وتوطيده ، فتوجه إلى «بنجتار» ودعا إلى نصب الأمير ووجوب طاعته في كل موضع نزل فيه ، وتذاكر في هذا الموضوع مع العلماء ، ووافقوا على ذلك ، واعترفوا بتقصيرهم في جنب هذا الواجب الديني العظيم ، وبايعه عدد كبير من العلماء ورؤساء القبائل ، حتى وصل إلى «بنجتار» فصارح فتح خان الذي كان السبب في إيثار هذا الموضع بالإقامة ، وكان من كبار الأنصار في هذا الموضوع ، وبين له أنه لا يقيم في هذا البلد إلا على شرط أن يتخلى من جميع تقاليد الرئاسة والسياسة ، وكل ما ينافي الشريعة من أعراف وتقاليد وعادات موروثة ، وجاه ومنصب ، وأن يعد نفسه كأحد أفراد الناس ، يخضع

للنظام الشرعي خضوعاً كاملاً ، وأن لا يحابي في ذلك إخوانه وأقاربه ، ولا يداهن ولا ينافق.

ودعا السيد علماء النواحي ، والأساتذة الكبار ، فحضر نحو ألفين من العلماء وجم غفير من تلامذتهم لا يقل عددهم عن ألفين ، ودعا أشرف خان ، وخادي خان من كبار الأمراء ورؤساء القبائل ، وانعقد مؤتمر كبير في غرة شعبان سنة ١٢٤٤ هـ لهؤلاء العلماء والأشراف ، والرؤساء وأمراء الأطراف ، ووجه السيد استفتاءً إلى العلماء والمفتين فيمن يخالف الإمام ويبغي عليه ، ويخلع طاعته ، فأفتوا وأثبتوا توقيعاتهم ، وبعد صلاة الجمعة بايعه العلماء والرؤساء ، وجدد من كان بايعه من قبل البيعة ، وفي الجمعة الثالثة «١٥ شعبان سنة ١٢٤٤ هـ» جمع فتح خان أهل الحل والعقد ، وذوي النهى والأحلام من قبيلته ، فبايعه جميعهم ، وولى عالم صالح اسمه مولانا السيد محمد مير قضاء منطقة «بنجتار» ونفذت الأحكام الشرعية ، وبدأ فصل الخصومات والقضايا في ضوء الشريعة الإسلامية وعلى أساسها ، وعين محتسبون يحتسبون على ترك الصلاة ، وعلى الأعمال المنكرة ، وتجلت بركات هذا النظام النيرة في مدة قريبة ، وكانت للدين صولة وشوكة ، وأزيلت مظالم قديمة مضى عليها نحو قرن ، وردت الحقوق إلى أهلها ، والأملاك التي اغتصبها واستولى عليها الأقوياء إلى أصحابها الشرعيين ، واستغاث الناس الذين هضمت حقوقهم ، وانتهكت حرماتهم ، إلى الأمير ونوابه ، فانتصر لهم ، واستطاع هذا النظام أن يحقق ما لا تحققه الحكومات الكبيرة المنظمة من رد المظالم ، وإعانة المظلومين ، وردع الظالمين ، وكان من نتيجة الحسبة أن أقبل الناس على أداء الفرائض وإقامة الصلوات ، حتى يدخل الإنسان في قرية عامرة فلا يجد فيها تاركاً للصلاة ، وقامت هيبة الدين ، وعز بعد مدة طويلة.

* * *

في مواجهة القائد الفرنسي

جاء القائد «فينتوره»[١] المشهور ، يقود جيشاً وعبر نهر السند ، وعسكر في «هند»[٢] وقد تحقق أن خادي خان حاكم «هند» طلبه.

وطلب «فينتوره» الأتاوة والهدايا من رؤساء القبائل على عادته في كل سنة ورفض هؤلاء الرؤساء طلبه فقد بايعوا السيد ودخلوا في طاعته ، وثارت فيهم الحمية الدينية والنخوة الأفغانية ، ولما رأوا الجد وأنه لا قبل لهم به ، لجأ كثير منهم إلى السيد واعتصموا به ، فتوجه «فينتوره» بجيشه ، وعسكر على مدخل «بنجتار» وكتب إلى السيد يتملقه ، ويكيل له المدح جزافاً[٣] ، ويطلب منه أن يحمل رؤساء القبائل على دفع الأتاوة والهدايا إلى حاكم «لاهور» على عادتهم

---

(١) كان الجنرال «فينتوره» Vantora من كبار قواد «رنجيت سنغ» الأجانب وكان يتمتع بثقة واحترام ، لا يتمتع بهما قائد أجنبي ، كان من أشراف «إيطاليا» وخدم «نابليون» مدة طويلة في جيش إسبانيا وإيطاليا ، وقد خرج من فرنسا بعد الهدنة يلتمس الرزق والخدمة العسكرية في حكومة كبيرة ، ومكث في مصر وإيران مدة ، ثم دخل الهند عن طريق «هرات» و«قندهار» ولما اطمأن مهاراجه إلى أمانته وحسن بلائه ، ولاه قيادة جيش خاص ، كان يفوق جميع الجيوش في التدريب العسكري ، وحسن السلاح ، وقام بخدمات كبيرة ظهر فيها تفوقه ووفاؤه ، وكان مهاراجه كبير الإجلال والتقدير له ، لذلك قلده ولاية مقاطعة «لاهور» وكان في الدرجة الثالثة في البلاط ومجلس الملك ، وقد استقال بعد وفاة «رنجيت سنغ» في سنة ١٨٤٣ م ، (ملخصاً من كتاب رنجيت سنغ ، للسير ليبل كريفن ص ٩٧ ـ ٩٩).

(٢) مدينة وقلعة حصينة على شاطىء نهر السند الغربي ، كان يحكمها خادي خان ، أحد كبار رؤساء القبائل.

(٣) جازفه : بايعه بلا وزن ولا كيل.

المستمرة ، ويسأله عن الغاية التي توجه لها إلى هذه البلاد ، ورد عليه السيد بكتاب يشرح فيه غايته من هذه الهجرة والجهاد ، ويدعوه إلى الإسلام ، ويذكر أنه في ذلك عبد خاضع لله تعالى ، ليس له من الأمر شيء ، ويذكر اعتداء «السيخ» على هذه البلاد ، وانتهاكهم لحرمات المسلمين وشعائر الدين ، وأنه لا حق له في هذا الطلب ، وأرسل هذا الكتاب مع الشيخ خير الدين الشيركوتي من عقلاء الجيش وعلمائه ، فأسلم إليه الكتاب ، وكان له معه حديث ظهرت فيه لباقته وصرامته .

وأمر السيد بالاستعداد للقتال ، وأرسل كتيبة تتألف من ثلاثمئة مجاهد ، وأمر عليه الشيخ خير الدين ، فصف أمام جيش «فينتوره» ، وعلم القائد استعداد المسلمين للقتال ، وقد كثر الله المجاهدين في عين الجيش المقابل ، وكان كثير من أهل القرى المجاورة قد التجؤوا إلى «بنجتار» خوفاً من «فينتوره» فظنهم كلهم من المجاهدين وخاف التبييت ، وملأ الله قلبه رعباً فتراجع وانسحب وعبر النهر ودخل في حدود «بنجاب» .

وفي السنة التالية توجه القائد في ميعاد زيارته السنوية لهذه المنطقة ، بجيش ، وطلب الأتاوة والهدايا ، وكان الرد مثل السنة الأولى ، فعطف عنانه إلى «بنجتار» وقد لامه المهاراجه على تراجعه في السنة الماضية ، ونسبه إلى الوهن والفشل ، فأخذته الحمية الجاهلية وصمم على غسل هذا العار ، وتوجه بجيش فيه عشرة آلاف مقاتل ، وتمالأ[1] معه خادي خان وساعده .

وأرسل السيد الرسائل إلى الأمراء ورؤساء القبائل ، والسادة العلماء ، ورأى السيد أن يقيم السد بين الجبلين ، ويبني جداراً ، عرضه أربع أذرع ، فيمنع الجيش من الدخول ، ونشط المجاهدون وأهل الضواحي في بناء هذا الجدار ، وأقاموه في مدة قريبة ، ورأى أن يسد طريقاً آخر من الوراء ، فقام المجاهدون المهاجرون لبناء هذا الجدار الذي كان طوله أربعين أو خمسين ذراعاً ، وتجددت ذكرى غزوة الخندق ، وتوزع المهاجرون الأرض ، وأقبلوا على بناء هذا الردم ،

---

(١) تمالأ القوم على الأمر : اجتمعوا عليه وتعاونوا .

وقام السيد فقص عليهم قصة غزوة الأحزاب ، وكيف اقتسم المسلمون حفر الخندق ، وشاركهم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبشرهم بالأجر الجزيل ، والنصر المبين.

ومن الغد كان المجاهدون يستعدون لصلاة الفجر إذ أخبرهم فرسان الطليعة بوصول الجيش المقابل وراء الجدار ، فانتهى السيد والمجاهدون من الصلاة بسرعة ، وأمر بالتسلح ولبس اللأمة[1] ، وأسفر الفجر وأشعل الجيش النيران في القرى فتصاعد دخان عظيم ، وتقدم الجيش وتوجه السيد بالمجاهدين ، ووقف أمام الجدار ، ورتب الجيش ترتيباً عسكرياً ، ونصب الغزاة على عدة جهات ، وقام مولانا إسماعيل الشهيد فتلى آيات بيعة الرضوان من سورة الفتح وشرحها ، وذكر فضائل هذه البيعة ، فبايع الناس السيد من جديد ، وعاهدوا الله على الثبات ، وأن تكون لهم إحدى الحسنيين ، إما الفتح وإما الشهادة.

وانتعش الناس وتحمسوا ، وغمرتهم موجة السرور ، والشوق إلى الشهادة ، وسبق الشيخ إسماعيل فبايع السيد ، وتبعه الناس ، فتواثبوا وتسارعوا للبيعة ، وكان منظراً غريباً ذرفت له العيون ، وتأثرت منه القلوب ، ودعا السيد دعاءً أظهر فيه عجزه وضعفه ، وفقره إلى الله ، وكان الناس في ذهول عن نفوسهم ، وعما حولهم ، قد غشيتهم غاشية السكينة والحنين للشهادة ، واستعفى بعضهم بعضاً ، وعانقه وودعه ، وقالوا إما فتح فنتلاقى في هذه الدنيا ، وإما شهادة فالجنة هي الملتقى ، وما عند الله خير وأبقى ، وأوصى بعضهم بعضاً وقال: إذا وقع أحدنا شهيداً أو جريحاً فلا يتشاغل أحد بحمله ، بل ليتقدم إلى الأمام وليقبل على العدو.

ولبس السيد لأمة الحرب ، وأخذ السلاح والعدة وانطلق إلى الجدار ومعه نحو ثمانية آلاف أو أكثر من المجاهدين الهنود ، والقندهاريين ، وصفَّهم وأوصاهم بعدم التسرع ، وأن لا يطلق أحد بندقية ولا يقتحم الجدار ، حتى يبدأ هو ، وأوصاهم بقراءة سورة قريش والإكثار منها ، ثم وقف متوجهاً إلى الله ،

---

(١) اللأمة: الدرع ج لأم.

وانتشرت الرايات في الجيش ووقف تحتها المجاهدون ، وكانت راية في يد الشيخ محمد[١] ، أحد العرب.

وصعد «فينتوره» على هضبة ، وتناول الطعام ، ولما فرغ قام وأخذ المكبرة وصار ينظر بها إلى ساحة الحرب ، فرأى جيوش المجاهدين قد ملأت الميدان ، فرعب وارتاع ، وأقبل على خادي خان يلومه ، ويقول له قد خدعتني ، فهونت خطب المجاهدين ، وقلت إنهم قلة قليلة ، فانظر الآن إلى هذا الجيش اللجب من الفرسان والرجالة ، وانظر إلى هذه الرايات الكثيرة التي ملأت الفضاء ، ثم نزل بأصحابه ووقف أمام الجدار ، وجعل «السيخ» يهدمون الجدار ، وأمر السيد بإطلاق النار ، وزحف المجاهدون ، وأيقن «فينتورة» بالهزيمة ، فأمر جيشه بالتراجع ، وتبعه المجاهدون إلى مدخل «بنجتار» ولم يكن المجاهدون في هذا العدد الذي تخيله «فينتوره» ولكنه نصر من الله وتأييد منه ولله جنود من السموات والأرض.

ولما تحقق تراجع «فينتوره» فرح المؤمنون بنصر الله ، وتوضؤوا من النهر الذي يجري في «بنجتار» وصلوا لله شكراً ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

* * *

(١) كان من كبار المخلصين للسيد ، رافقه من الحج.

ولا يحيق المكر السيىء إلاّ بأهله

كان لانسحاب القائد الفرنسي المحنك[١] الذي كان النصر حليفه في معارك كثيرة ، عن مركز المجاهدين وتراجعه بجيوشه دوي في البلاد ، وتحدث الناس به من حاضر وباد ، وأقبل المسلمون من قبائل شتى في أوائل ذي الحجة سنة ١٢٤٤ هـ فبايعوا السيد ، وقبلوا النظام الشرعي ، وكان في «سمه» قرية محصنة تسمى «أمان زئى» كان يسكنها نحو اثني عشر ألفاً من الأفغان الذين كان دأبهم الغزو والحرب ، فبايعوا البيد ووعدوا بدفع العشر ، وظهرت استقامة رئيس قبيلة آخر اسمه مقرب خان ، وثبت وفاؤه ، وقد وضع الجزية على المشركين ، والعشر على المسلمين.

وبقي خادي خان والي «هند» متمسكاً بعناده وأنانيته ، قد ربط مصيره بأعداء الله وأثبت لهم وفاءه وصداقته ، وقد تحقق أنه حث القائد الفرنسي على الزحف على المجاهدين ، وزين له التقدم بجيوشه نحو «بنجتار» وهون له الخطب ، وأطمعه فيهم وبذل له ما يملكه من إعانة ووسائل ، وكان عيبة[٢] نصح له ، وقد كان بقاؤه على حاله ، والتغاضي عنه ، مما يضر بمصلحة المسلمين ، ويفقد النظام الشرعي هيبته ، ويطمع المنافقين ، والذين في قلوبهم مرض في البغي والغدر ، والأنانية ، فرأى عقلاء الجيش ، وفي مقدمتهم الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، أنه لا بد من تأديبه وإتمام الحجة معه ، وكف شره إذا أبى ورفض ، متمسكين بقول الله تعالى :

---

(١) المحنك: المجرب ، الذي حنكته التجارب فكان خبيراً بصيراً.

(٢) بالفتح ما يوضع فيه الثياب يحفظها ، والمراد أنهم موضع النصح له والأمانة على سره.

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وتوجه الشيخ إسماعيل في كتيبة مؤلفة من مئتي مقاتل، وقابل خادي خان، وألان له القول، وبالغ في التفهم والنصح، وحذره من البغي والعصيان، والتمرد والطغيان، ونقض العهد وخلع الطاعة، ولكن كل ذلك لم ينفع، وأجابه خادي خان بقوله: سامحني يا فضيلة الشيخ إذا قلت لك إننا معشر الأمراء والحكام لسنا مثلكم ومثل السيد من الفقهاء و«الدراويش». إن لنا شرعاً ولكم شرع، ولا طاقة لنا معشر الأفغان بالشريعة التي يدعو إليها ويأمر بها السيد، فلماذا يلج بنا السيد ويتشبث بنا، ليدعنا وشأننا وليفعل بنا ما يشاء.

ولما انقطع الكلام، وانقطع الأمل من عودته إلى الرشد ودخوله في طاعة الله ورسوله، وقبول أحكام الشرع رأى أهل الرأي أن لا بد من عقوبته وتأديبه، وفوض ذلك للشيخ إسماعيل الذي لم يكن يضارعه أحد في جيش المجاهدين، وفي أصحاب السيد وخاصته، في الشجاعة والحكمة، وحسن السياسة وقوة القيادة، وتوجه إلى «هند» في جيش من المجاهدين يتألف من خمسمئة مجاهد فائق في النشاط وممارسة الحرب، ودخل مع ضوء الصبح في القلعة.

وفوجىء خادي خان بهذه الحملة وقتل بيد المجاهدين، واستولى الجيش الإسلامي على هذه المدينة المحصنة المنيعة، ذات الأسوار، والأسلحة والغلات ولم يقتل إلا خادي خان وفلاح، ولم يصب أحد من المجاهدين بجراح فضلاً عن الموت.

وهكذا انتهى هذا الفصل، ونجا المجاهدون من فتنة شغلت بالهم، وتوزعت قوتهم من مدة طويلة.

وجاء دور يار محمد خان الذي قاد الفتنة وتولى كبرها، وتربص بالمجاهدين الدوائر، وقلب الأمور، وأراد أن يقضي على حياة السيد، وتآمر مع «السيخ» حتى كان من أمره أنه زحف بجيشه إلى «هند» ليقصي منها المجاهدين، ويحل أمير خان محل أخيه خادي خان، وعسكر في «هريانه» مركز أمير خان، ومعه

ستة مدافع ، وسرب من الأفيال والجمال ، وجيش عظيم ، وما إن وصل إلى «هريانه» حتى أطلق المدافع ليدخل الرعب على قلوب أهل البلاد الذين تطير قلوبهم شعاعاً بصوت المدافع ، وانضم إليه كثير من المضطربين والمنافقين ، ونهبوا القرى ، وأهلكوا فيها الحرث والنسل ، ونشروا الذعر والفزع في النواحي ، وكانت بين الجيشين مناوشات لا تقدم ولا تؤخر .

وترددت الرسل بين السيد والأمير يار محمد خان ، وبالغ السيد في النصيحة ، وذكرهم بالله ، وحذرهم من عاقبة البغي والعصيان ، وتلقى يار محمد خان رسالة الصلح ، في كبر وأنانية ، ورفضها رفضاً باتاً .

هنالك التجأ المجاهدون إلى الحرب فزحفوا ليلاً إلى جيش يار محمد خان ، ولا يزيد عددهم على ثمانمئة من الفرسان والرجالة ، يقودهم الشيخ إسماعيل ، وكانت المعركة في «زيده» وقد تقدم المجاهدون ببسالة نادرة ورفعوا صوت التكبير ، واستولت فرقة منهم على مدافع العدو بسرعة ، وزالت أقدام الجيش الدراني ، ففضل الفرار ، وترك كل عتاده وعدته في الميدان ، حتى وجدت أحذية كثيرة تركها أهل الجيش في خوف وذعر ، وكانت القدور على النار ، وقد أنى الطعام ، وأعجل الفرار عن تناوله ، وجرح يار محمد خان جرحاً شديداً ، ومات في طريقه إلى مكان كان يريد الوصول إليه ، واغتنم المسلمون ، ووقع بيد المسلمين مال عظيم وسلاح كثير ، ووجدت فتيات اختطفها الدرانيون من القرى المجاورة ، فردهن الشيخ محمد إسماعيل إلىٰ أهلهن .

ودخل السيد منتصراً في «بنجتار» حامداً الله تعالى على هذا الفتح العظيم وأقبل عليه الناس يهنئون وارتفعت الأصوات ، وعلا الهتاف بالتهنئة والحمد ، وقام السيد يذم الغلول ، والاستيلاء على الغنائم ، ويذكر ما ورد فيه من الوعيد ، وما يعود به على الدين ومصالح المسلمين من ضرر ، وكيف يحبط ذلك الأعمال الصالحة ، وأجر الجهاد في سبيل الله ، وأثرت الكلمة في قلوب أبناء البلاد ، فجمعوا ما انتهبوه في ميدان القتال مما كان من حق بيت المال في المسجد ، وكان فيما ردوه مئة وخمسون فرساً ، وخيام وأخبية كثيرة ، فأنفق خمس في سبيل الله ، ثم قسمت الغنائم على المجاهدين حسب ما أمر الله به ورسوله وجاء

في القرآن والسنة ، وكان للراجل سهم وللفارس سهمان.

ولما نال المجاهدون المهاجرون سهمهم من الغنيمة ، قالوا: إننا نأكل من بيت المال ونعيش عليه فلا حقّ لنا في هذه السهام ، فبيت المال أولى بها ، وعلم السيد بذلك فقال: إنه حق وملك لكم ، تتصرفون فيه كما تشاؤون ، فرد أكثرهم سهامهم إلى بيت المال ، ومن كان أهل خصاصة انتفع بها

وكان لهذا الفتح أثر كبير في قلوب أهل البلاد ، ففتحت الطرق التي كانت قد انسدت ، وبدات قوافل المجاهدين والمهاجرين تغدو من الهند وتدخل بسلام ، وبدأت رسائل أهل الهند وإعاناتهم التي يرسلونها تصل إلى المجاهدين ، وكانت للإسلام شوكة ، وجانب يرهب ويخشى.

وقتل أمير خان أخو خادي خانَ بيد أعدائه الذين كانت بينه وبينهم عداوة قديمة ، وخصومة في أرض وعقار ، وبذلك كله خلا الجو للدعوة والجهاد ، وزالت العقبات إلى حد كبير ، وكان عاقبة الذين أساؤوا السوأى ، صدق الله تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

* * *

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

استولى المجاهدون على عدة مواضع ومراكز حربية لأمراء القبائل الذين حاربوا المجاهدين ، أو ظهر منهم نفاق ، وموافقة للأعداء ، وإثارة للفتن ، كان من أهمها «عشره» و«أمب» التي كان يحكمها باثنده خان ، وقلعة «جهترباني» .

وكانت معركة كبيرة في «بهلره»[1] بين المجاهدين وبين «السيخ» واشتد القتال ، وحمي الوطيس ، واستشهد فيها السيد أحمد علي ابن أخت السيد الإمام ، وقد ثبت في المعركة ثبوت الجبال الراسيات ، وظهرت منه فتوة أعادت ذكرى شهداء غزوة «مؤتة» وقد كان في هذه المعركة مقتدياً بجعفر بن أبي طالب ، لأنه لما تعطلت بندقيته أخذ يقاتل بخشبتها إلى أن لقي الله ، وأبلى المجاهدون فيها بلاءً حسناً ، وقاتلوا قتال الأبطال ، وثبتوا ثبوت الجبال .

وكان من هؤلاء الفتيان مير أحمد علي البهاري ، فكان من البارعين في إطلاق البنادق ، ومن رماة الحدق ، وقد قتل برصاصاته عدداً كبيراً من الفرسان ، وأحاط به الأعداء ، وألقوا حوله شبكة من المقاتلين وكبار الفرسان ، وأهاب بهم الفتى المغوار ، وقال أنشدكم بالذي خلقكم أن لا يطلق أحدكم علي رصاصة ، بالله تنظرون إلى جلادي ، وكيف أحارب بالسيف ، وتشيدون بشجاعتي وتعترفون بها ، وأؤكد لكم أني لا أحاول الخروج من هذه الشبكة ، ثم بدأ يضرب بالسيف ويلعب به ، كأنه في ميدان اللعب ، أو مظاهرة فن ، وجاء بما يحير الألباب وصارت الرؤوس والأكتاف ، والسواعد تطير وتتناثر حوله ، وما لبث أحد الأعداء أن أطلق عليه النار ووقع شهيداً .

---

(١) موضع يبعد من «مان سهره» بعشرة أميال ، وكانت قرية بين الجبال عامرة يجري فيها نهر يسمى «سرن» .

ولما بلغ السيد نعي ابن أخته السيد أحمد علي استرجع ، وقال: الحمد لله ، لقد قضى نحبه ولقي ربه ، وبلغ الغاية التي جاء لأجلها ، وسكت طويلاً ، ولما أخبره الراوي أن جميع الجراحات التي أصيب بها ، إنما أصابته في وجهه ، فاضت عيناه ، وكان يمسح الدموع بيديه ، ويقول: الحمد لله الحمد لله ، وصدق الله العظيم :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

أرى العنقاء أكبر أن تصادا[١]

كان نشاط المجاهدين وراء نهر السند الشغل الشاغل ، والمقيم المقعد لحكومة «لاهور» وكان «رنجيت سنغ» من القادة العسكريين الذين يؤمنون بأنه لا ينبغي للإنسان أن يستقل شرارة ، ويستهين بخطبها مهما صغرت وضعفت ، وكان يعتقد أنه لا يزال الباب مفتوحاً للتفاهم مع قائد هذه الحركة ، والتخلص من معرته وخطره ، وكانت نفسه لا تزال تسول له أنه رجل دفعه طموحه إلى هذه المغامرة ، وأنه يمكن إرضاؤه بقطعة من أرض يحكمها ، أو رئاسة يتمتع بها ، وقد جرب في حياته عدداً كبيراً من هؤلاء الطامحين من رؤساء القبائل وأشراف الناس ، وعلماء الدين ، وشيوخ الطريقة رفعوا راية الجهاد ، والتف حولهم الراغبون في الغزو والطامعون في المناصب والغنائم ، ثم رضوا بإقطاعة[٢] أو ضيعة[٣] أو عقار[٤] ، أو راتب يرتب لهم من الحكومة واستراحت الحكومة من جهتهم في وقت قريب .

وقد رأى «رنجيت سنغ» أن يفتح هذا الطريق مع قائد المجاهدين وأميرهم ، وأن يساومه ويزيد له في الثمن إذا لزم ، فعسى أن يرضيه بإمارة صغيرة يكتفي بها ، ولا تتحول هذه الشرارة ناراً تنتشر في الحدود الشمالية ، وبلاد الأفغان ،

---

(١) شطر بيت لأبي العلاء المعري ، وتمام البيت :

أرى العنقاء أكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(٢) أقطع الأمير الجند البلد : جعل لهم غلته رزقاً ، والإقطاعة : قطعة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقاً ، ج إقطاعات .

(٣) الأرض المغلة .

(٤) العقار : الضيعة .

فتثير القبائل وتلهب نخوتها ، وتنفخ فيها روح الجهاد ، وهنالك تقوم العاصفة التي تطيح[١] ملكه وعرشه.

ولذلك أرسلت حكومة «لاهور» سفارة موقرة يقودها وزيره وبطانته الخاصة ، وأحد أركان الدولة الحكيم عزيز الدين الدهلوي الذي كان من كبار رجال السياسة والمخلصين للدولة ، وكان «مهاراجه» كبير الثقة بإخلاصه وعقله ودهائه ، وعززه بالقائد «فينتورة» وأمرهما بمفاوضة السيد وإقناعه ، وكانت مع الحكيم عزيز الدين رسالة رقيقة لطيفة من «مهاراجه» قد تلطف فيها ورقق الكلام ، وأطرى السيد ، واعترف بمنزلته الدينية الروحية ، وأن له في ذلك فضلاً لا ينكر ، ويقول إنه إذا جاء يريد ملكاً ، فإن «مهاراجه» مستعد ليقطعه ما وراء نهر السند ، يستأثر به السيد ويتصرف فيه كما يشاء ، ويتنازل «مهاراجه» عن جبايته والمطالبة بإتاوته ، ويشتغل فيه السيد بعبادة الله سبحانه ، وينصرف عن المحاربة والقتال ، وتحريش[٢] القبائل وإثارتها ، والحديث عن الغزو والجهاد ، أو يلتحق بمهاراجه فيوليه قيادة الجيوش.

تلقى السيد هذه السفارة برحابة صدر ، ودماثة خلق ، وفي تؤدة[٣] ووقار ، وفي صبر وأناة ، وشرح لقائدها المسلم أغراضه ومقاصده من هذه الهجرة والجهاد ، والدوافع السامية النزيهة التي ساقته إلى هذه البلاد النائية والحروب الدامية ، ومواجهة هذه الحكومة الواسعة ذات الحول والطول.

وكان السفير المسلم يفهم هذه اللغة التي يتكلم بها السيد ، ويفهم هذه الروح الإيمانية التي كانت تسيطر على الأمير المؤمن الغيور ، وتحلق على هذه الكلمات التي تنبع من القلب ، وكان يعرف بحكم تجربته الطويلة ، وعقله الكبير ، وعلمه الواسع ومعرفة طبقات الناس ، أن الذي يتحدث إليه من نبع[٤] آخر غير نبع القادة الطامحين ، والمغامرين المساومين ، الذين يتخذون جهادهم قنطرة للوصول إلى

(١) أطاحه : أذهبه ، وأفناه.
(٢) حرش بين القوم : أغرى بعضهم بعض.
(٣) الرزانة والتأني.
(٤) شجر تتخذ منه السهام والقسي.

رئاسة ، أو راتب كبير ، أو مال وفير ، وكان يشعر بالتيار الإيماني الذي يمس قلبه ، ويسري في جسمه وأعصابه ، وقد هزته قوة الإيمان وشدة الثقة ، لما قال له السيد : «إننا لم نقبل إلى هذه البلاد التي هي بلاد المسلمين ، مع هذا العدد الكبير لننتزع ملكاً ، أو نحكم أرضاً ، إنه لم يكن لنا غرض في هذه الرحلة الطويلة إلا الجهاد في سبيل الله ، والرغبة في إعلاء كلمة الله ، أما إذا كان «رنجيت سنغ» يغرينا بإمارة أو رئاسة فليعرف يقيناً أنه إذا قدم لنا مملكته بحذافيرها[1] ، وتنازل لنا عنها فلا شأن لنا بها ، ولكنه إذا أسلم كان لنا أخاً ، وتنازلنا له عن كل ما استولينا عليه ، وفتحناه بحد سيوفنا ، وتركنا له ملكه وما يحكم عليه.

سمع الحكيم عزيز الدين هذا الجواب الصارم ، ثم قال : لقد وجدناك أيها السيد فوق ما سمعنا عنك ، وتطابق فيك الخُبْرُ والخَبَرُ ، ولا يسعني إلا أن أقول «آمنا وسلمنا».

وأكرم السيد وفادة الحكيم ، وأحسن مثواه ، وعامله كما يعامل الأمراء الكبار وسفراء الدول ، وأهل الفضل والنبل.

وأملى السيد رسالة إلى «رنجيت سنغ» وأسلمها إلى الحكيم عزيز الدين ليبلغها إلى «مهاراجه» ، ورجع الحكيم معجباً بأخلاق السيد ونفسه الكبيرة ، وهمته الشامخة ، وإخلاصه العميق ، وأخبر «مهاراجه» بما رأى وسمع ، وقدم إليه الرسالة التي حملها من السيد.

وقدم القائد «فينتورة» والقائد «إلارد» بجيش عظيم على شاطىء نهر يجري قريب «بشاور» ليتسلم الأتاوة والهدايا التي يأخذها من أمراء «بشاور» سنوياً ، وطلب أن يزوره رجل عاقل من جيش المجاهدين ليتكلم معه ، فاختار السيد الشيخ خير الدين الشيركوني الذي كان من كبار عقلاء جيش المجاهدين ، وكان

---

(١) أخذ الشيء بحذافيره : أي بأسره وبجوانبه كلها ، وفي الحديث : فكأنها حيزت له الدنيا بحذافيرها.

قوي العارضة[١] حاضر البديهة ، حاذقاً في الكلام وأثنى عليه السيد وأبدى ثقته وإعجابه به .

زار الشيخ خير الدين القائد الفرنسي في خيمته وسلاحه معه ، وكان بجوار القائد الفرنسي ، القائد «إلارد» ، وكان الحديث بين الشيخ وبين القائدين الأوروبيين حديثاً صريحاً واضحاً تناول جوانب علمية ودينية وسياسية ، وكان «فينتوره» يحسن الفارسية ، ويتكلم فيها بطلاقة ، وكان لبقاً في الحديث ، وقد كان حريصاً على معرفة مقاصد السيد الحقيقية يبذل جهده في صرفه عن محاربة «مهاراجه» والانصراف إلى العبادة والأشغال الروحية ، ويستغرب كيف حلا له مع عقله وزهده أن يتحدى حكومة من أقوى الحكومات في هذا العصر ، وأن يخوض معها في حرب لا أول لها ولا آخر .

وانتهز الشيخ خير الدين هذه الفرصة ، فشرح للقائد الفرنسي حكم الجهاد في الإسلام ومكانته في الشريعة الإسلامية ، وما وعد الله عليه من الثواب ، وذكر أنه كتب على الأنبياء الأولين وأممهم وقد قاموا به في عصورهم ، وذكر شغف السيد بإحياء هذه الفريضة ، وذكر شروطه وأركانه ، ومنهجه الديني الشرعي ، حتى لا يكون علواً في الأرض ولا فساداً ، وكيف بايع الناس السيد واختاروه أميراً لهم وإمامهم ، وأنه لا شأن له بالاستيلاء والاستعلاء ، وإخضاع الناس واستعبادهم ، واستبدال شخص بشخص ، أو أسرة بأسرة ، إنما هو إخراج الناس من حكم الناس إلى حكم الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[٢] ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وأفاض في الحديث وذكر ما خص الله به السيد من الاعتماد على الله ، والتوكل عليه وقوة الإيمان ، واستشهد بالتاريخ ، وذكر كيف استطاع الضعفاء العزل أن ينتصروا على الأقوياء ، المسلحين بقوة إيمانهم ، ونصرهم للدين ،

---

(١) العارضة : الرأي الجيد وتنقيح الكلام ويقال «فلان ذو عارضة» أي ذو بيان ولسن وبديهة .

(٢) كلمات قالها رسول المسلمين في مجلس قائد الفرس .

وحماية الضعفاء والمظلومين ، والانتصار للحق ، وأن يؤسسوا حكومات عظيمة ، ومدنيات زاهرة ، وقد جاء في القرآن: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقد بدأ أكثر هؤلاء عملهم وهم لا يملكون شيئاً من السلاح والكراع[١] ، والقوة والشوكة ، ثم تهيأ لهم كل ما كانوا يحتاجون إليه في تحقيق غايتهم ، والله يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ويقول: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وهنا قاطعه «الجنرال إلارد» وقال : انه ليس من المعقول والثابت أن ينتصر الضعيف الأعزل على القوي المسلح ، وعارضه «فينتورة» وقال: لا إن الحق مع الشيخ ، والتاريخ يؤيده ويشهد له ، وقد وقع مراراً أن الكبار انهزموا أمام الصغار ، وأن القلة القليلة انتصرت على الكثرة الكاثرة.

وقال «فينتوره» : إنني أحب السيد وإنني مهتم بذلك في البلاط الملكي ولكن هذا الحب لا يمنعني عن أن أقوم بواجبي في ساحة القتال ، فلو تبادلنا الهدايا فأهديت إلى الخليفة ، ثم أهدى إلي فيكون لي عذراً في العودة ، ويكون رمز للولاء والصداقة ، وإذاً لا تتعرض حكومة «لاهور» بالسيد ، فيتصرف في المنطقة التي احتلها كما يشاء ، ولا تدخل جيوش «مهاراجه» في حدوده.

قال الشيخ : لا مانع من ذلك فالسيد على جانب عظيم من مكارم الأخلاق وسماحة النفس ، والاستهانة بالأموال والطرف ، صاحب أريحية[٢] وسخاء يحب أن تكون له اليد العليا دائماً ، والسبق في العطاء والإهداء . ولكن هداياه غالباً من جنس الملابس والأشياء التي تستعمل ، ويتزين بها ، وعنده أسلحة غالية نفيسة ، فربما أهدى إليك منها شيئاً.

وكان غرض «فينتوره» أن يهدي السيد إليه فرساً ، فيستطيع أن يقول لمهاراجه إن السيد قد أهدى إليك فرساً ، فقد انتهت الحرب وزالت الوحشة وقبل السيد أن

---

(١) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

(٢) خصلة تجعل الإنسان يرتاح إلى الأفعال الحميدة ، وبذل العطايا.

تكون لمهاراجه السلطة العليا ، وكان إهداء الفرس من جانب إلى جانب رمزاً للولاء والصداقة والدخول في الحماية والحضانة ، وكان ذلك عرفاً شائعاً في ذلك العصر ، وقد جرى على ذلك أمراء «بشاور» ورؤساء القبائل في شمال الهند الغربي، وقد تفطن الشيخ خير الدين بذكائه وفطنته لغرضه ، وكان القائد الفرنسي يراوده عن ذلك بلطائف الحيل وذلاقة اللسان ، فكان يريد أن يعده الشيخ بذلك ويتقيد به ، وقد تملص[١] الشيخ من هذا الوعد ، وأبى أن يقع في شباكه.

وانفض المجلس وعاد الشيخ إلى السيد الإمام ، وحكى له ما جرى بينه وبين القائد من الحديث ، فأقره السيد على ذلك وأثنى عليه ، وقال: لقد حققت ظننا ، وصدقت فراستنا فيك يا إياس[٢].

وصمم القائدان الأوربيان على الزحف إلى «بنجتار» وشاع في جيش «لاهور» أن المجاهدين ينوون التبييت والإغارة على الجيش ليلاً ، فانتشر الذعر في الجيش ، وبات الجيش ساهراً لا يهدأ له بال ، ولا ينطبق له جفن ، وقذف الله في قلوبهم الرعب وثنى الجيش عنانه إلى النهر ، وعبره ، ثم كسر الجسر خوفاً من لحوق المجاهدين ، ثم توجه إلى «أتك» و﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ولا بد أن القائد الفرنسي قد حكى لسيده القصة بنصها وفصها[٣] ، وذكر له أن السيد أعز منالاً ، وأرفع مكاناً من أن يساوم أو يراود عن غايته وعقيدته ، وأنه كالعنقاء التي لا تقتنص بالشباك ، ولا تستنزل بحثالة[٤] الشعير ، وفتات[٥] المائدة.

* * *

(١) تملص منه: أفلت وتخلص ، وتملص الشيء من يدي: زل انسلالاً لملامسته.
(٢) رجل حكيم يضرب به المثل في الكياسة والفراسة.
(٣) يعني بجملتها وتفصيلها ، مطابقة للأصل.
(٤) ما يسقط من قشر الشعير ، أو الأرز الخ.
(٥) أي الكسارة والسقاطة.

حرب فرضت على المجاهدين وانتصروا فيها

كان انتصار المجاهدين في حرب «زيده» رغم قلة عددهم وغربتهم في البلاد ، وهلاك الأمير يار محمد خان كبير الإخوة ووالي «بشاور» حادثاً يحسب له حساب كبير في حياة الأسرة التي كانت تسيطر على بلاد الأفغان وتملك زمامها ، وكانت أم سلطان محمد خان تعيره بقتل أخيه الأكبر ، وتثير فيه النخوة الأفغانية وتحمله على أخذ الثأر وغسل هذا العار .

وزحف الأمير الثائر الموتور بجيشه أخيراً إلى مركز المجاهدين خطر أن يستأصل شأفتهم[١] ويستريح من هذا العناء الطويل الذي شغله ، وأقلق باله منذ ورد السيد في هذه البلاد. والتحق به كل من كان يحقد على السيد من الأمراء ورؤساء القبائل ، وأصحاب الضياع والقرى ، وأصحاب المناصب ، ويرى في سيادة السيد وزعامته الروحية زوال سيطرته ، وضعف شوكته ، وهدد سلطان محمد خان الأمراء والأقيال[٢] ورؤساء القبائل بالبطش الشديد ، قال إنه ينكل بهم ويعاقبهم ، لأن قتل يار محمد خان قد وقع في أرضهم وبين سمعهم وبصرهم ولم يحموه ولم ينصروه وكان معه اثنان من إخوته سرداربير محمد خان ، وسردارسيد محمد خان ، وحبيب الله خان ابن أخيه الأكبر محمد عظيم خان والي كشمير .

واتفق الرأي على مواجهة هذا الخطر أو التفادي[٣] منه إذا أمكن ، فتوجه

---

(١) الشأفة : الأصل ، يقال استأصل شأفته أي أزاله من أصله .

(٢) القيل : الرئيس ، وكان يلقب به ملوك حمير .

(٣) تفادى الرجل من كذا : تحاماه ، وانزوى عنه .

السيد من قلعة «أمب» التي كان مقيماً فيها إلى معسكره القديم «بنجتار» وخيم جيش «بشاور» في موضع «هوتي» ونزل السيد في موضع يقابله ، يقال له «تورو».

كان السيد زاهداً كل الزهد في هذه الحرب التي ستقع بين طائفتين من المسلمين ، وكانوا جميعاً في غنى عنها ، كارهاً كل الكراهة لأي اصطدام يقع بين قوتين ، كان الإسلام والمسلمون أحق بأن ينتفعوا بهمه ، وأن تنصرفا إلى عدو مشترك.

وكان سلطان محمد خان في مقدمة من مد إلى السيد يد الولاء والنصر ، وبايعه على السمع والطاعة ، والجهاد في سبيل الله في «كابل» فأراد السيد أن يصرفه عن هذه المعركة التي هي جهاد في غير عدو ، وقتال في غير لزوم ، وأن يحرك فيه الشعور الديني ، والعاطفة الإسلامية ، التي لا يتجرد عنها مسلم ، فاختار الشيخ عبد الرحمن وهو من أهل «تورو» ومن كبار المخلصين ، والعلماء الربانيين ، ليكون سفيراً بينه وبين سلطان محمد خان ، ويبلغه رسالته ورجاءه ، ويقول له: إنما جئنا إلى هذه البلاد لنقاتل حاكم «لاهور» وكنا مؤمنين بأنكم ستكونون بجوارنا في هذا الجهاد الذي نقوم به لنصر الدين وحماية المظلومين ، ودفع الغاشمين ، وكنت أول من بايعني ووعدني بالنصر ، وكيف يسوغ لك أن توالي الكفار ، وتحارب المسلمين ، وتتربص بهم الدوائر فتخسر بذلك الدين والدنيا ، وتعض بنان الندم.

وكان رد سلطان محمد خان على هذه الرسالة اللطيفة ، والموعظة الرقيقة رداً عنيفاً قاسياً ، قطع كل أمل في المصالحة ، وتراجع عن موقفه ، وأعاد السيد الرسول ، وبالغ في النصيحة ، وأراد أن يفتل في غاربه[١] ويهدىء سورته[٢] ، وذكر له أن أخاه دوست محمد خان قد حذره منه ، وقال لا تثق بوفائه وعهده. ولكنه أراد أن لا يتسرع بحكم أو قطيعة ، وقد وقع ما وقع منه ومن أخيه الأكبر يار محمد خان في معركة «شيندو» وعفا عنهما وصفح ، وجزى السيئة بالحسنة ، حتى زحف يار محمد خان بجيشه العظيم ، ومدافعه الكثيرة على المجاهدين ،

---

(١) أي يلينه ويصرفه عن غلظته وصرامته.

(٢) سورة الخمر : حدتها ، وسورة السلطان : سطوته.

ليقضي عليهم نهائياً ، ولكن الله سلم ، وكان الفتح للمجاهدين ، فذهب يار محمد خان ضحية تهوره وعدائه للمجاهدين ، ولا ذنب في ذلك علينا ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

وتردد الرسول بين السيد وسلطان محمد خان ، وطال الحديث واحتد الكلام من والي «بشاور» وهدد وأوعد ، وبرق ورعد ، ومنع الشيخ عبد الرحمن عن أن يعود إليه ، ويتكلم معه في الموضوع ، وظهر أن لا مناص من الحرب ، فاستعد السيد للقتال مكرهاً ، وأقبل على التعبئة وإنزال الناس في منازلهم ، وبات الجيش ساهراً مستعداً للقتال ، وآخذاً له عدته لم يكتحل بنوم ، وعينهم على جبهات مختلفة ، وحضر صلاة الصبح مع السيد في «تورو» أكبر عدد من المجاهدين ، وهم يعرفون أنهم مستقبلون لحرب عوان[1] ستقرر المصير ، ولما انصرفوا من الصلاة أقبل السيد على دعاء ذرفت منه العيون ، وخشعت فيه القلوب ، وأكثر من التضرع والإقرار بالذل والافتقار ، وبراءة من كل حول وطول ، وأن لا ملجأ من الله إلا إليه.

ولم ينته من الدعاء ويمسح وجهه بيديه ، حتى أقبل رجل من جبهة القتال ، وأخبر بأنه سمع طبولاً تضرب إعلاناً بالحرب ، فأمر السيد بإعلان الحرب وشد الناس حيازيمهم[2] ونزل جيش المجاهدين في ساحة «مهيار»[3] وهو في سلاحه ، وعدته الحربية.

وكان سلطان محمد خان وأخواه ، وأنصارهم قد وضعوا أيديهم على المصحف ، وحلفوا على عادة أهل البلاد أن لا ينصرفوا عن القتال حتى يفوزوا أو يموتوا ، وأقيم قوس من الرماح ، وعلق على رأسه مصحف ، ودخل الجيش من تحته ونزل في ميدان الحرب ، وقام ذلك مقام الحلف بالقرآن على الصمود في

---

(١) الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى.

(٢) الحيزوم : وسط الصدر ، و«شد الحيازم» كناية عن الاستعداد للحرب والصبر فيها.

(٣) قرية كبيرة بين «تورو» و«هوتي» وقعت فيها الحرب بين المجاهدين وسلطان محمد خان ، ولا تزال هذه القرية معروفة بهذا الاسم حتى الآن واعتاد الناس أن يسموها «مايار».

وجه العدو ، وعدم الانسحاب ، وهكذا كانت للحرب مسحة دينية ، وتصميم على الاستماتة ، والقتال إلى آخر رمق.

ونشبت الحرب ، واشتبك الفريقان ، وكان جيش «بشاور» يتألف من ثمانية آلاف فارس ، وأربعة آلاف من الرجالة ، وكان جيش المجاهدين مؤلفاً من ثلاثة آلاف راجل ، وخمسة آلاف فارس ، وأمر السيد بالطاعة والانقياد ، وحذر من التفرق والتسرع والافتئات بالرأي ، وعن العدو والجري الشديد ، وكان السيد راكباً على فرس ، وكان يتوسط صف الرجالة يحث على الجهاد والثبات ، والاستعانة بالله ، فطلب منه بعض عقلاء الجيش ومن الناصحين المخلصين أن يترجل لأنه بائن للعدو ، شامة[١] بين الناس فيقصده المدفعيون ويتخذونه هدفاً للقنابل ، فقبل السيد رأيهم ونزل عن الفرس.

وحمي القتال واستعر ، وانطلقت المدافع ، وبدأ وابل من القنابل ، واشتغلت السيوف والأسنة ، وبدأ المجاهدون ينشدون نشيد الجهاد[٢] الذي نظمه الشيخ خرم علي[٣] البلهوري ، هو نشيد مؤثر مثير ، وصار المجاهدون يرجزون وأخذتهم نشوة الجهاد وترنحت بها أعطافهم.

وظهرت بسالة السيد في أروع مظاهرها ، وكان يخوض الحرب ، وهو لا يبالي أوقع عليه الموت ، أم على الموت وقع ، وكان رفيقه الأيمن ، ورفيقه الأيسر يناولانه بندقيتين مشحونتين يطلقهما في سرعة غريبة ، وجرأة عظيمة.

وظهرت شجاعة المجاهدين واستهانتهم بالحياة في شكل رائع ، وتقدم الشيخ

---

(١) أي واضح متميز كالخال في الجسم.

(٢) صادره الإنجليز ، وكان طبعه وتداوله جريمة قانونية ، لأنه يحث على الجهاد في سبيل الله.

(٣) هو العالم الكبير الشيخ خرم علي البلهوري «الكانفوري» أخذ الطريقة عن السيد الإمام ولازمه زماناً ، ثم سافر إلى «باندة» فقربه إليه النواب ذوالفقار خان وولاه على الترجمة والتصنيف ، نقل إلى أردو كتباً كثيرة في الفقه والحديث ، له «نصيحة المسلمين» في عقيدة التوحيد والسنة على غرار «تقوية الإيمان» للشيخ إسماعيل ، توفي سنة ١٢٧١ هـ.

محمد إسماعيل ، والشيخ ولي محمد فاستوليا على مدافع العدو وصوباها نحو العدو ، وأشرف السيد على عمليتها ، وأعطى تعليمات حكيمة ، وصلحها ، فصارت تعمل في العدو أحسن من ذي قبل ، وتزلزلت أقدام الدرانيين[١] ، ولجأ الجيش إلى الفرار ، وتم النصر للمجاهدين ، وعادوا إلى قلعة «مهيار» وقد مالت الشمس إلى الغروب ، وقد اجتمع إليهم من تفرق أو تشاغل بالحرب ، وأمر الشيخ مظهر علي العظيم آبادي بجمع الجرحى وإسعافهم الطبي ، وتضميد الجروح ، والصلاة على الشهداء ودفنهم ، وقد قضى المجاهدون النهار في حرب وقتال ، ولم يذوقوا طعاماً وقد غلب عليهم النعاس ، وشغل الجراحون بتضميد[٢] الجروح وربطها إلى نصف الليل.

وقد ظهرت في هذه المعركة روائع من الإخلاص ، والشجاعة النادرة ، والإيمان العميق والحنين للشهادة ، والحب للقاء الله واستقبال الموت بثغر باسم ، ونفس تواقة ، نختار منها بعضاً نحكيها باختصار.

* * *

(١) كان أمراء «بشاور» و«كابل» وأصحابهم يلقبون بالدرانيين غالباً.

(٢) ضمد الجرح : شده بالضماد ، والضماد : خرقة يشد بها العضو المجروح.

جهاد إخلاص وموت شهادة

قبل أن تنشب الحرب في ساحة مهيار ، أقبل إلى أمير المجاهدين السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد شاب قوي نشيط تلوح على محياه آثار النجابة والشرف ، ويظهر أنه من أقارب السيد وعشيرته .

أقبل الشاب وخاطب السيد بصوت فيه الإجلال ، وفيه دالة الأخوة والقرابة ، وبساطة الجندي ، وقوة الشباب .

يا أخي أيها الأمير : إني قد لحقت جندك وفارقت وطني لأنك من أهل قرابتي وعشيرتي ، فإذا منحك الله ملكاً ، لم أكن بك شقياً ولا بد أن تعود علي بفضل ، وهأنذا أتوب إلى الله مما قصدت ، وأبايعك على الجهاد في سبيل الله خالصاً مخلصاً ، فبايعني يا أخي ، وادع الله لي بالسداد والاستقامة .

سمع السيد كلام أبي محمد[١] وسمع الناس ، وبايعه السيد على الجهاد ودعا له ، وكان منظراً رائعاً جاشت له الصدور ، وفاضت له العيون ، فلا يرى في القوم إلا باك قد خنقته العبرات ، وسار السيد أبو محمد ـ والدموع جارية ـ وسمى الله ووضع رجله اليمنى في ركاب فرسه ونادى بأعلى صوته :

أشهدكم أيها الإخوان أني لم أزل أركب الجواد زهواً وخيلاء لا أريد به وجه

---

(١) هو السيد أبو محمد ، الرانبريلوي ، كان ضابطاً في جيش حكومة «أوده» وكان جميلاً وسيماً حاذقاً في أنواع الفروسية وخلال الفتوة ، وكان لطيف الطبع ، حسن الهندام ، يحب الأناقة والظرافة في كل شيء ، له مشاركة جيدة في أكثر الصنائع ، وكان عفيفاً عزوفاً عما لا يحل حريصاً على الخدمة وتمريض المرضى ، لما عزم السيد على الهجرة استقال من وظيفته وسار يشيعه من مكان إلى مكان حتى وصل إلى الحدود الشمالية

الله ، وهأنذا أركبه الآن التماساً لرضا الله سبحانه وطمعاً في ثوابه .

نشبت الحرب بعد قليل واشتبك الفريقان ، وكثر القتلى والجرحى ، وكان النصر للمجاهدين .

يقول فتح علي العظيم آبادي : بينما أنا أمر بين القتلى والجرحى إذا بالسيد أبي محمد يجود بنفسه ، وقد أثخنته الجراح ، فدنوت منه وصرخت في أذنه يا أبا محمد : إن الله قد نصر أمير المؤمنين وهزم الأعداء ، ولم يلتفت أبو محمد ولم يتكلم ، وما زال يلحس شفتيه ويقول : «الحمد لله الحمد لله» فحملته إلى القرية وبه رمق ونفس يتردد ، وهو يلحس شفتيه ويحمد الله ، وما لبث أن لفظ نفسه الأخير

* * *

كيف استقبل المجاهد الموت

جندي[١] قوي العضلات ، شديد البطش ، يظهر أنه كان مصارعاً التحق بالمجاهدين قبل وقعة مهيار ، وفيه بقية من حياته الأولى ، ونزعة من نزعات الشباب يحلق لحيته ولا يبالي ، ويراه السيد الإمام مع شدته في أمر الشرع وإنكار المنكر ولا ينهاه عن ذلك لحكمة يعلمها.

وكان الرجل مع صلابته شديد الحب ، قوي الإخلاص للسيد الإمام ، ذات يوم فاجأه السيد وقد حلق الجندي لحيته ، فأمر يده على ذقنه وقال في رفق ولطف: يا أخي: ما أملسه من ذقن! ونفذت كلمة السيد في قلب الرجل نفاذ السهم ، واستحيا في نفسه وسكت.

ولما جاءه الحلاق وأراد أن يحلق لحيته ، قال له الجندي: إليك عني أيها الرجل إن ذقناً قد مسته يد السيد لا تمسه يد حلاق ، وأعفى لحيته منذ ذلك اليوم.

وكان الجندي في فرقة الفرسان مع السيد الإمام يوم مهيار ، وكان يمر على الصف وينادي: سووا صفوفكم أيها الإخوان ، وكونوا كالبنيان المرصوص.

وبينما هو يطوف على الصفوف إذ جاءته قنبلة أصابته في كشحه الأيسر ، فوقع على الأرض جريحاً وأخبروا السيد بالحادثة فاسترجع وتأسف.

وأدركه الناس وبه رمق ، وحملوه إلى حجرة في مسجد القرية ، ولسانه رطب بذكر الله وهو يسأل مرة بعد مرة لمن كان النصر ، والأمر غمة لا يدرى من المنتصر ، حتى أسفرت الحرب عن انتصار السيد الإمام وانهزام الأعداء ، فأخبروه وبشروه بالنصر فقال: «الحمد لله الحمد لله» وفاضت نفسه.

---

(١) كان اسمه «كالي خان» وكان من المهاجرين الهنديين.

وفي سبيل الله ما لقيت

شاب في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره ، وهو قريب العهد بالعرس ، قتل أبوه[١] في معركة قريبة ، فما رؤي مسروراً ضاحكاً منذ ذلك اليوم ، وسمعه الناس يقول لأصدقائه وأترابه: إن شهدت معركة شفيت نفسي وقتلت في سبيل الله.

أخبروا السيد الإمام بكلمة السيد موسى[٢] وهو ابن ابن أخته السيد أحمد علي الشهيد ، فأحب أن يكون معه حتى لا يتهور ولا يأخذه طيش الشباب ، فقال له: أعط فرسك رجلاً آخر ، وكن معنا يا ولدي ، ولكن الشاب سأل جده أن يتركه وشأنه ، وأن يسمح له بأن يكون في فرقة الفرسان تحت قيادة الضابط عبد الحميد خان فأذن له السيد ، وعرف عزيمته.

ولما أقبل العدو في ساحة مهيار ، وهجموا على المجاهدين رفع الفارس الشاب عنان فرسه ، وغاص في صفوف الأعداء وخرقها ووضع فيهم السيف: يقتل ويجرح حتى شج رأسه وانخلعت كتفاه ، ووقع على الأرض جريحاً.

يقول خادي خان: بينما أمر إذ سمعت صوتاً من بعيد ، كأن قائلاً يقول «الله الله» ولما دنوت عرفت أنه السيد موسى وقد سال دم الرأس إلى الوجه ، فأطبق عينيه، فدنوت من الجريح ، وقلت له يا موسى: أأحملك وأنقلك إلى مكان؟ قال: من أنت؟ ولمن كان الفتح؟ قلت: أنا خادي خان وقد فتح الله لسيدنا الإمام! قال «الحمد لله» ونشط قليلاً وقال: دونك! فحملته على ظهري ونقلته إلى القرية.

يقول السيد جعفر علي: ذهب السيد ليعود سبطه الشاب المغامر فجلس إليه

---

(١) هو السيد أحمد علي ابن أخت السيد الإمام قتل في وقعة «بهارا» كما مر في فصل سابق.

(٢) كان اسمه حسن المثنى واشتهر بموسى في عشيرته تخفيفاً على عادة الهنود.

وقال: إن ولدي أبدى من الفتوة والفروسية ما لم يكن في حساب ، ووفى نذره ، وأرضى به ، ثم خاطبه بقوله: حمداً لله وشكراً له أن يديك ورجليك قد أصيبت في سبيل الله ولقد قال القائل قديماً:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وكان سعيك مشكوراً ، وعملك مبروراً ، وإياك أن تحسد شاباً يركب جواده ويركض ركضاً ، ويوجف[1] في السير ، ولا تذهب نفسك عليه حسرات وتقول : لو كنت سليماً صحيح البدن ، موفور القوة لكنت فارساً في الميدان ، مشاراً إليه بالبنان ، فإنه لا محل لهذه الحسرة ، ولا داعي إلى الغبطة ، فإن الله تعالى قد تقبل يديك ورجليك ، ويا ليد ورجل تصاب في سبيل الله ، وتستخدم لرضا الله ، وإياك أن تنظر إلى بطل ملاعب بالسيوف والأسنة بحسرة وغبطة ، وتحزن على أن لا سبيل لك إليه ، فإن القوائم السليمة يخشى عليها من التورط في معصية ، ولكن أطرافك قد ادخرت عند الله . وأمنت من اقتراف ذنب أو تلوث بمعصية ، ولك أسوة في سيدنا جعفر الطيار بن أبي طالب ، فلما أصيبت عضداه في سبيل الله لقب بذي الجناحين يطير بهما في الجنة ، وعوض عنهما بعضدين من زمرد.

قال الفتى الجريح السيد موسى: إنني أحمد الله بألف لسان ، وإن قلبي يفيض بالحمد والشكر ، ولا أجد في نفسي لله موجدة ، وقد رافقتك لهذه الغاية ، وقد نلتها ، ولكن لي أمنية واحدة ، وهي أن تشرفني بلقائك كل يوم ، فإنني قد حيل بيني وبينه لما أصابني من الجروح والتعطل ، ولست أحزن إلا على هذه الخسارة.

هنالك قال السيد لأحد أقاربه : إن هذا إليك ، فإذا رأيتني فارغاً ذكرتني بذلك فأزوره وأقضي معه بعض الوقت وأثنى عليه ودعا له.

ومات السيد موسى من أثر هذه الجروح وبلغ السيد نبأ وفاته ، وهو في طريقه إلى «بالاكوت»[2].

* * *

(١) أوجف الفرس: جعله يعدو عدواً سريعاً ، والوجيف: العدو السريع

(٢) كما سيأتي قريباً.

النظرة الإيمانية والعقل المؤمن

رجع المسلمون من ساحة القتال في «مهيار» ظافرين ، وقد اغبرت وجوههم وثيابهم بالنقع ، حتى تقنعت وجوههم وتنكروا.

وقام الرئيس بهرام خان بالمنديل لينفض النقع عن وجه السيد الإمام ، فقال السيد : مهلاً يا أخا الأفغان ، فإن هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»[١] وما جئنا إلى هنا ، وما تحملنا المشاق إلا لأجل هذا الغبار ، فمهلاً يا أخا الأفغان مهلاً! ومكث المجاهدون ولم ينفضوا عنهم الغبار في ذلك الحين.

وصلى المجاهدون الظهر وحسر السيد رأسه[٢] ، ودعا دعاءً طويلاً أكثر فيه من الحمد لله والثناء على قدرته وربوبيته ، وعظمته واستغنائه ، ومن إظهار الافتقار والبراءة من كل حول وطول ، والاطراح على عتبة عبوديته ، وكانت دموعه تجري غزاراً حتى اخضلت لحيته ، وكذلك كان شأن الناس ، ومكث برهة بعد الدعاء ، ثم توجه إلى «تورو» وصلى العصر هناك.

وجيء بالشهداء للدفن ولم يغسلوا ودفنوا في ثيابهم ، وقال الشيخ محمد إسماعيل : غطوا وجوههم بعمائمهم ، وانظروا إذا كان في ثيابهم وفي جرابهم نقود تأخذونها ، ونزل أحد المجاهدين في القبر ، وغطى وجوههم ، وفتش عن مناطقهم وثيابهم ، وقام بعض الناس فمدوا رداء ، وأهال الناس التراب عليهم ،

---

(١) في السنن.

(٢) كان من عادة السيد أن يحسر رأسه في أكثر الأوقات في الدعاء إظهاراً للذل والافتقار ، وليس من السنن الثابتة في الدعاء ولا من آدابه.

وقام الشيخ إسماعيل فدعا لهم بالمغفرة ، وقد غلب الناس البكاء ، وهم يقولون لقد بلغوا منيتهم ونالوا وطرهم ، وجعل الله لنا نصيباً من هذه الشهادة ، وأذن للمغرب وصلى الناس ، ودعا السيد للشهداء بالمغفرة ، ودعا لنفسه وللمجاهدين بالرضا والقبول ، والشهادة في سبيل الله وبالإخلاص في كل عمل ، وللإسلام بالقوة ، والانتشار والازدهار ، ولأعداء الإسلام بالذل والهوان ، ولضعاف الإيمان من المسلمين ، بالهداية إلى الصراط المستقيم ، بعلو الهمة في نصرة الدين .

وهنالك قال أحد المجاهدين : لقد بلغ عدد الشهداء إلى أربعين ، وجرح كثير ، وكان لكل بلد نصيب من هؤلاء الشهداء والمجروحين ، ولكننا لم نر من إخواننا من أهل «بهلت»[١] من أكرمه الله بالشهادة ، والجراحة في سبيل الله إلا الشيخ عبد الحكيم البهلتي ، قال السيد: رفقاً يا أخي بإخواننا البهلتيين ، لا تصبهم عينك ، فعسى أن يكرمهم الله بالشهادة في مكان واحد ، ويدفنون في مكان واحد .

هكذا كان ، فقد استشهدوا جميعاً في معركة «بالاكوت» الأخيرة ، وما عاش منهم إلا الشيخ ولي محمد ، والشيخ وزير ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «رب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره»[٢]

* * *

(١) «بهلت» قرية كبيرة في مديرية مظفرنكر في الولاية الشمالية ، نهض منها علماء كبار وكان فيها للسيد محبون وأنصار .

(٢) حديث صحيح .

فتح بشاور

وآن أوان فتح «بشاور» عاصمة الحدود الشمالية الغربية ، وأكبر مدينة بين «كابل» و«لاهور» وقد قامت الحجة على سلطان محمد خان الذي زحف على المجاهدين بجيشه اللجب[١] ، وحاربهم حرباً شعواء[٢] ولم يَأْل فيهم إلاًّ[٣] ولا ذمة ، ولم يراع حقاً ولا حرمة أهدر بذلك كرامته وفتح الطريق لفتح «بشاور»

وتوجه السيد بجيش المجاهدين إلى «بشاور» ، وكان راكباً على فرسه في فرقة الرجالة ، وخلفه وأمامه فرقة الفرسان ، وكانت في الجيش ثلاث رايات تخفق في الفضاء ، وكان الشيخ رحمن علي ينشد نشيد الجهاد الذي نظمه الشيخ خرم علي بأعلى صوته وفي لحن شجي يأخذ بمجامع القلوب.

وقضى السيد في «مردان» ليلتين ثم سار متوجهاً إلى بشاور وشكا إليه بعض أهل القرى أن جيش «بشاور» اعتدى عليهم وعاث في أرضهم فساداً وهم مسلمون خاضعون لحكمهم ، وقد أغرق الدرانيون السفن التي عبروا بها النهر لئلا ينتفع بها المجاهدون وعبر المجاهدون نهر «سوات» من أحد معابره ، وأقام في «مته» وكان أهلها مسرورين بقدوم هذا الجيش ، إنه يشتمل على نحو سبعة آلاف جندي بين فارس وراجل ، وقد نزل بأرضنا ولكن لا اعتداء ولا ظلم بعكس الجيش الدراني ، فإنه إذا ورد منه اثنان غادرنا بيوتنا ، وخرجنا إلى الجبال ، وهكذا لم يمر الجيش بموضع إلا ورحب به أهله ، وحمدوا الله على قدومه ، وشيعوه إلى

---

(١) الكثيف العظيم ، يقال جيش لجب أي ذو جلبة وكثرة.

(٢) حرب شعواء : متفرقة ممتدة.

(٣) الإل : العهد.

مكان بعيد ، وكان الناس بين رجال ونساء يقومون على حافتي الطريق ويحيون السيد تحية طيبة ، ويتبركون به .

وجاء عمد[١] القرى ودهاقينها[٢] إلى السيد ، وسألوه أن يتسلم حكومة «بشاور» وسألهم السيد عن عادة الدرانيين في الجباية ، فقالوا إنهم يأخذون نصف الحاصل والحبوب ، ويلزمون أهل القرية تكاليف الكتاب والكيالين والحرس ، فلا يبقى عند الرعية إلا ثلث الحاصل ، وقال السيد يكفي الرعية أن تدفع إلينا ثلث الحاصل نقداً ، والإمام مسؤول عن جميع النفقات ، والأمور الإدارية ، ولا سخرة عندنا ، فإذا استخدمنا أجيراً ، أو شغلنا رجلاً دفعنا إليه أجره ، ولكنه يجب على رؤساء القرى وملاكها أن يضيفوا العامل على الصدقات ، والجابي ، ويعتبروه أخاً لهم ، ولكن لا يجوز له أن يقترح شيئاً ، فإذا فعل حوسب . وشكا إليه بعض أهل الجيش من أن الدرانيين صادروا أملاكهم واستولوا عليها ، وقدموا الصكوك والوثائق ، فردت إليهم أملاكهم وضياعهم .

ولما دنا الجيش من «بشاور» بلغ السيد أن سلطان محمد خان قد أرسل أسرته إلى «كوهات»[٣] ولجأ بجيشه إلى قرية قريبة ، وهنالك جاء «أرباب فيض الله خان» رسولاً من سلطان محمد خان يخبره بأن سلطان محمد خان نادم على عمله ، مقر بخطئه ، يسأل السيد أن يسامحه ويصفح عنه ، ويرجع إلى مركزه ، ويقول: لو أن رجلاً من الكفار أسلم لقبل منه إسلامه ، وأنا مسلم وسليل المسلمين ، معترف بخطئي ، أتوب من ذنبي ، وسأظل وفياً للسيد ، مطيعاً له مدة حياتي ، قال السيد : لا بد من دخول «بشاور» وسندخل «بشاور» غداً بإذن الله ، ونستخلفه فيها ، إذا تحقق صدقه ووفاؤه ، فإنا لم نقبل إلى هذه البلاد ، إلا لنجمع كلمة المسلمين ، ونقاتل أهل الكفر والمفسدين «ولتكون كلمة الله هي العليا» أما إذا انصرفنا من هنا لم يعترف سلطان محمد خان بفضل أو منة ، بل نسبه إلى وهن فينا ، أو خوف ، أو رعب .

---

(١) جمع عمدة ، ما يعتمد عليه ويتكأ .

(٢) دهقان ج دهاقنة ودهاقين ، رئيس إقليم ، وهو كبير القرية والمسؤول عنها .

(٣) مدينة جبلية في الحدود الشمالية الغربية ثكنة عسكرية كبيرة في باكستان اليوم .

أصدر السيد الإمام تعليمات صارمة إلى الجيش ، وقال : سندخل اليوم بإذن الله في «بشاور» فلا يعتدين أحد على أحد ، وليلتزم الجيش الآداب الإسلامية والتعليمات النبوية بكل دقة وصرامة ، فإن سلطان محمد خان قد مد يد الصلح ، وإن أهل البلد في ذمتنا ، وفي جوارنا وحمايتنا.

وأعلن مسير الجيش ، وأخذ المجاهدون أهبتهم ، وأذن للعصر ، وصلى الناس ، ودعا السيد ، وسار إلى «بشاور» وكان الرجالة أمامه ، وفرقة الفرسان خلفه ، ودخل الجيش في «بشاور» وقد أغلق الناس دكاكينهم ، وأقيمت السقايات للسابلة ، وكان في بعضها الشراب المحلى ، وأنيرت المدينة فرحاً بدخول المجاهدين وقد غمر الناس سرور عام ، وأبدوا فرحهم واستبشارهم بدخول هذا الجيش المبارك وانطلقت الألسن بالدعاء والثناء.

ونزل السيد بجيشه في «الخان»(١) القديم ، المعروف بـ «كول كتهري» وعين الحرس ، وأخذ الجيش حذره ، حتى لا يؤخذ على غرة ، ونصب الحراس على الطرق والدروب والحارات ، وصلى السيد الفجر في منزله الذي نزل فيه ، ودعا الله ، وأرسل إلى التجار ، وأصحاب الدكاكين أن يفتحوا دكاكينهم ، وأن لا خطر عليهم ، فلا ظلم ولا اعتداء ، وفتحت الدكاكين ، وعادت الحياة إلى النشاط والهدوء ، والمدينة إلى الحركة ، واختفت البغايا والمومسات ، وغادرن البلد ، وإذا قصد إحداهن أحد الفساق ، حذرته وخوفته من جيش المجاهدين ، وأن لا مطمع في ذلك اليوم ، وغلقت الحانات ، ومراكز السكر والدعارة ، وتغيب زبائنها ، وأصدر السيد تعليماً صارماً إلى الجيش أن لا يقتطف أحد في الجيش فاكهة في بساتين «بشاور» ولا يقتطع ثمارها.

وظل الجيش جائعاً يومين كاملين ، وبات طاوياً(٢) ، وقد كانت في المدينة مخازن للحبوب ، ولم يطمح إليها الجيش ، ولم يمد إليها يد النهب والغارة ، وقام «أرباب بهرام خان» فاستدان الصرافين في البلد ، واشترى الدقيق من عدة دكاكين ، وأمر أصحاب التنانير أن يخبزوا الخبز ، ودفع إليهم أجرتهم وأكل

---

(١) محل نزول المسافرين.

(٢) جائعاً لم يذق طعاماً.

الجيش الطعام بعد يومين ، وكان كثير من الناس يتحدثون في الطريق عن فواكه «بشاور» ويمنون أنفسهم بها ، ويقولون إذا دخلنا «بشاور» أخصبنا ، وتوسعنا في المطاعم والمشارب ، فـ «بشاور» بلد الخيرات والطيبات معروفة بجودة رزها ولحوم النعاج والخروف ، فنطبخ ونأكل وننعم ، ولما طال عهدهم بالطعام ، فما وجدوه إلا في اليوم الثالث ، قالوا هذا عقاب استرسالنا في الأماني والأحلام ، واتباعنا غير سبيل المجاهدين المتقشفين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وكَمَنَ جزء من جيش الدرانيين وترصد لجيش المجاهدين يريد أن يغير عليهم على غفلة ، ولكنه لم يجد فرصة للإغارة ، وتفرق جيش سلطان محمد خان خوفاً من جيش المجاهدين ، وتعلل أكثرهم بعذر أو حاجة ، ولجؤوا إلى قراهم ، ولم يجد سلطان محمد خان سبيلاً إلى الحرب ، وقرر الاستسلام والخضوع ، فأرسل أحد خاصته ، وهو «أرباب فيض الله خان» إلى السيد ، وكان من المخلصين للسيد ، قد بايعه ، وكان وفياً ناصحاً لصاحبه سلطان محمد خان أيضاً ، وكان صاحب أمانة وصدق ، فاستأذن السيد في الدخول ، والكلام معه ، وبلغه رغبة سلطان محمد خان في المصالحة والطاعة ، وأنه نادم على فعلته التي فعل ، مقر بخطئه ، عازم على التوبة والإصلاح .

وحكى السيد الحكاية بطولها ، وما ظهر من سلطان محمد خان وأخيه من الغدر والنفاق ، وتقليب الأمور ، وتربص الدوائر بالمجاهدين ، والزحف السافر الوقح ، والحرص الشديد على استئصال شأفتهم ، وأنه لا ثقة بوعده وحلفه ، وأنه يتلون كالحرباء ، ويهب مع الرياح ، ويدور مع مصالحه ، ويخضع لأغراضه ، وأنه يريد بهذا الطلب للصلح أن يخرج من هذا المأزق[1] ، ثم يعود إلى ما كان عليه من عداء ، وحرب وكيد ، وأنه لا شأن لنا بـ «بشاور» أو «كابل» ولم نجيء لننتزع ملكاً ، أو نستولي على بلد ، إنما جئنا لإعلاء كلمة الله ، وتطبيق شريعة الإسلام وأحكامه ، وليكون للإسلام عز وغلبة ، فإذا تحقق لنا صدقه ووفاؤه ، وتاب عما نهى الله عنه ورسوله ، وكف عن موالاة الكفار ، ووالى المسلمين لم يجد منا إلا ما يسره .

---

(١) المأزق : المضيق ومكان الحرج .

وبلغ «أرباب فيض الله خان» رسالة السيد إلى صاحبه ، ونقل له كلامه حرفياً ، وأبدى «سلطان محمد خان» ندمه ، وأبدى عزمه على الطاعة ، وعلى قطع كل صلة عن الثوار والكفار ، وعن ولائهم ، وعلى مشاركة المجاهدين في الجهاد ، وطلب أن يأذن له السيد باللقاء ، فيجدد البيعة على يديه ويتوب عن كل ما نهى الله عنه ورسوله ، وأبدى استعداده لتقديم التعويض المالي ، وكل ما كلف الجيش في هذا المسير غرامة على نفسه ، وقال إنه مستعد لتقديم أربعين ألف روبية يدفع منها عشرين ألفاً نقداً ، وعشرين ألفاً بعد وصول السيد إلى مركزه.

وشاع في الناس أن السيد يريد تسليم «بشاور» إلى سلطان محمد خان ، وفزع الناس ، وجاء بعض أعيان البلد إلى الشيخ محمد إسماعيل ، وقالوا له : لقد فرحنا بدخول السيد في «بشاور» وحمدنا الله على أنه أنقذنا من براثن الظالمين ، ولكن أخبرنا أنه يعيدنا إليهم ، وأشار عليهم الشيخ محمد إسماعيل بأن يستعينوا في ذلك بـ «أرباب بهرام خان» رسالتهم إلى السيد أن أهل البلد يخافون أن تشتد وطأته عليهم يبطش بهم إذا رجع جيش المجاهدين ، لأنهم فرحوا بقدومه ، ووالوه، وذكر أن أهل البلد مستعدون لتقديم مئات آلاف من الروبيات إلى الجيش ليصلح بها شأنه ، ويستعين بها على الحرب ، والدفاع ، وأنهم يشكون في أمانة سلطان محمد خان وصدقه ، وذكر له أنه إذا كان لا بد من تسليم البلد فليسلمه إليه ، فإنه جدير بثقته واعتماده ، وأنه من أبناء هذه البلاد يعرف طبائع أهلها ، وأوضاعهم ، وأنه يستطيع أن يسوس البلاد ويضبط الأمور ، ويواجه الطوارىء

سمع السيد مقالته في هدوء ، وسكت هنيهة ، ثم تكلم فشكره على نصحه وإخلاصه ، وأثنى عليه ، وقال: إن ما أعلمه من حقيقتهم ، وما شرح الله له صدري ، وفتح علي به من معرفة كنههم ، وما تخفيه صدورهم هو أعظم مما علم الناس وتكلموا به ، ولو علموا ما جهلوه ، وفصلوا ما أجملوه لحاروا ودهشوا ، ولكننا يا أخي لم نهجر الأهل والوطن ، ولم نتجشم الخطوب والمحن ، ولم نركب الأهوال ، ونجازف بالنفوس والأرواح ، إلا لنعمل ما فيه رضا الله ، لا نخاف في ذلك لومة لائم ، ولا رضا مخلوق ، ولا سخط ساخط ، فلا قيمة عندنا لشيء من ذلك ، ولا يزن عندنا جناح بعوضة ، وإن عملنا بقول الشاعر :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب[١]

إن الذين لا يعرفون الحقيقة يعتقدون أننا أقبلنا طالبين للدنيا ، راغبين في ملك وسلطان ، لقد جهلوا الحقيقة وجانبوا الصواب ، ولم يعرفوا حقيقة الإسلام ، ولسنا أهل حقد وثارات ، وضغينة وترات[٢] ، لقد طهر الله نفوسنا عن الحسد والبغضاء ، والحقد والشحناء ، وقد وفقنا لنحسن إلى من أساء إلينا ، ونصل من قطعنا ، ونعطي من حرمنا ، ونجزي السيئة بالحسنة ، والشدة بالرحمة ، والجريمة بالعفو والصفح ، وإن لم نفعل ذلك فنحن أسرى نفوس ، وعباد شهوات ، لا فرق بيننا وبين الملوك الزاحفين ، والقادة الفاتحين إذا احتلوا بلاداً ونزلوا في أرض لم يتنازلوا عنها ، ولم يصرفهم عنها صارف ، ولم يعملوا فيها بحكم الله ، وإن هذا الجهاد الذي نعلنه ، ونقيد نفوسنا به ، لا شأن له باتباع الهوى ، وبطريق الملوك والسلاطين في الفتح والتسخير ، والاستيلاء والاستعلاء ، أما إشفاق أهل البلد من تنكيلهم بهم ، وبطشهم ، فلا محل له فإنهم قوام ملكهم وعماد سلطنتهم ، وبهم عمران بلادهم ، فكيف يخربون بلادهم بالقضاء عليهم ، واستئصال شأفتهم ، وهل يبيد صاحب الجنة جنته ، ويجعلها قاعاً صفصفاً[٣] ، وهل يهدم صاحب البيت بيته ، ويجعله خراباً بلقعاً[٤] ، أما تقديمهم لمئات آلاف من الروبيات لنقيم بها أودنا[٥] ، ونصلح بها شأننا ، فإنه لا شأن لنا بها ، فإننا لا نفعل ما نفعل إلا طمعاً في رضا الله وثوابه ، وإنا لا نبالي بعد ذلك هل أقبل الملك ، أو أدبر عنا ، أو رضي الناس ، أو سخطوا علينا .

---

(١) الأبيات للشاعر العربي ، والأمير الفارس أبي فراس الحمداني ، خاطب بها ابن عمه سيف الدولة ، وقد تمثل بها كبار الصالحين ، والأئمة المصلحون كالشيخ عبد القادر الجيلي ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وإنما أوردناها هنا على لسان السيد ، فهي خير ما تمثل فكرته ، وتعبر عن غايته وعقيدته .

(٢) انتقام وظلم .

(٣) مستو مطمئن .

(٤) البلقع : الأرض القفر .

(٥) الاعوجاج .

وإذا كان سلطان محمد خان قد ندم على فعلته ، وتاب من ذنوبه ، وقبلَ جميع أحكام الشرع ، ووعد بأنه لا يعود إلى الثورة ، والعصيان ، ويريد أن يصفح عنه ويمنح فرصة أخرى للإصلاح والتدارك ، كيف يسعنا أن نرفض طلبه ، ونشك في نيته ، وقد أمرنا بالعمل بالظواهر ، وأن نكل السرائر إلى الله ونحكم بعلمنا بما يأمر به الشرع في مثل هذا الحال ، وأي حجة لنا عند الله إذا رفضنا كلامه ، وإنني مستعد بحول الله أن أعدل عن رأيي إذا أقنعني أحد العلماء الراسخين ، وقامت عليه الحجة الشرعية ، فإننا لم نؤمن إلا بالله ورسوله ، ولا نتحاكم إلا إلى الشريعة والكتاب والسنة .

يقول الراوي الذي شهد المجلس : إن السيد كان يتكلم ، وكأن غاشية من السكينة والرحمة الإلهية تغشانا ، وقد أجهش «أرباب بهرام خان» وأخوه «أرباب جمعه خان» من البكاء ، وقد ذهلا عن أنفسهما ، وبقيا مدة في سكوت وإطراق ، ولما انتهى السيد من الحديث ، قال «أرباب بهرام خان» إن كلامه كله حق وصواب ، وقد ذقنا طعم الإسلام ، وحلاوة الإيمان في هذا الوقت ، وعرفنا أننا بمعزل عن معرفة حقيقة الإسلام ولبابه ، والتفاني في رضا الله ، والإصاخة[1] لأمره ، والتجرد عن الأنانية ، والانسلاخ عن غوائل النفس ومكائد الشيطان ، وهأنذا أتوب على يدك ، وأبايعك من جديد وادع الله لي .

وزار السيد وفد من التجار الكبار من المسلمين وغير المسلمين ، وتقدم منهم هندكي اسمه «بدهرام» وقد حمل عدة سلال من فاكهة ، ومالاً كثيراً ، وتكلم مع السيد ، وأبدى استعداده واستعداد زملائه لتقديم نفقات الجيش وما يستعين به من أموال ونقود ، وأنه يستطيع أن يستخدم من شاء للخدمة العسكرية ، ويقاتل بهم أمراء «بشاور» وحاكم «لاهور» وشرح السيد له فكرته وعقيدته ، ومقاصده من هذا الجهاد ، وانقياده لأوامر الله تعالى ، وما ورد في الشرع في شأن التوبة والتائب ، وما يجب على المسلمين إذا غزوا قوماً ، أو زحفوا على بلد من إنذار ، وإقامة الحجة والتخيير بين الإسلام والجزية والقتال ، فإذا كان ذلك في شأن الكفار ، فكيف في شأن المسلمين ؟!

---

(١) أصاخ له وإليه : أصغى واستمع

وسمع تاجر «بشاور» حديث السيد في هدوء واحترام ، واعترف بإخلاص السيد وحسن طويته وصفاء سريرته ، وسمو نفسه ، وأنه من طراز إنساني خاص لا يبلغ غوره ولا تكتنه حقيقته ، وأنه لا يصح قياسه على الملوك الفاتحين ، والقادة الطامحين الذين عرفهم وعرف كيف يخاطبهم ، وأما السيد فإنه لا يعرف لغة ضميره ومنطقه الإيماني إلا مؤمن رسخ في الدين وذاق حلاوة الإيمان ، فأذعن له بالطاعة والإجلال ، وانصرف عن مجلسه حائراً مدهوشاً[١] .

---

(١) لقد كانت قضية التنازل عن بشاور ، ومنحها لسلطان محمد خان الذي تولى كبر معارضة السيد ومحاربته ، مشكلة حار في تعليلها كثير من المؤرخين المدافعين عن هذه الحركة وقائدها ، فرأى بعضهم أنه كان تسرعاً في الحكم وخضوعاً زائداً للعاطفة النبيلة ، والكرم الأصيل الذي طبع عليه وأنه كان في ذلك تابعاً لسياسة جده سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي تقوم على المبادىء والأخلاق ، وكان خليقاً بأن يتبع فيه سياسة سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) التي تقوم على أصول الحكم .

ويرى بعض من تعمق في معرفة الأوضاع السائدة في ذلك العصر ، أن السيد اتبع في ذلك سياسة رشيدة عملية لا مغمز فيها ، وأنه كان عملياً أكثر منه خيالياً ، وأنه إذا اتبع الخط المعاكس لذلك ، فبقي مستولياً على بشاور ، أو ولاها أحد خاصته لم تختلف النتيجة اختلافاً كبيراً ، وكان نفس المصير ، وقد قال لي بعض الثقات الذين لهم اختصاص في معرفة طبائع الأفغان ، واطلاع واسع على ما كان يجري في ذلك العصر ، وعاشوا في أفغانستان زمناً طويلاً ، أن السيد كان بعيد النظر ، عميق الفكر في هذا المشروع ، فإن أسرة «بائنده خان» التي كانت مسيطرة على بلاد الأفغان والحدود الشمالية ، وكانت لها عصبية ليست لأي قبيلة في أفغانستان لم تكن لتحتمل أي حاكم بشاور غير سلطان محمد خان كبير الأخوة وزعيمها ، ووالي بشاور من زمن طويل. فأذعن السيد للأمر الواقع ، وجمع بين الإخلاص ، والتجرد عن الأنانية ، وحب الملك ، وبين السياسة العملية ، واختيار أفضل الطرق في ذلك الوقت ، وفي تلك الظروف والملابسات الدقيقة المعقدة ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وكل مجتهد يخطىء ويصيب. ويعجبني بهذه المناسبة ما قاله الأستاذ عباس محمود العقاد في الحكم على موقف سيدنا علي بن أبي طالب ونقد الناس لها :

«والذي يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي الذي سبق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر بل ربما كان الأمل في حاجة أضعف والخطر من أتباعه أعظم» .

هبة ملك ومنحة دولة

طلب سلطان محمد خان أن يجتمع بالسيد ويلقاه ، واجتمع رأي أهل الرأي من الجيش ، أن يكون أول لقاء بين والي «بشاور» وبين الشيخ محمد إسماعيل حتى يكون الشيخ على بينة من أمره ويتثبت من نيته وقصده ، ووافق على ذلك السيد الإمام واستحسنه .

وهكذا كان ، فتلاقيا للمرة الأولى في منزل «أرباب فيض الله خان» في قرية «هزار خاني» من ضواحي «بشاور» ومع كل أربعون أو خمسون رجلاً من رفاقهما ، وأخذ كل واحد منهما بالاحتياط ، وقد شاعت الأخبار بسوء نية سلطان محمد خان ، وأنه يقصد غيلة أو خديعة ، وتاب سلطان محمد خان على يد الشيخ وبايعه الشيخ نيابة عن السيد ، وتلاقيا مرة ثانية في نفس المكان ، وسأل سلطان محمد خان أن يلقى السيد الإمام فقبله السيد .

وصلى السيد والمجاهدون ثلاث جمعات في المدينة وقام الشيخ مظهر علي العظيم آبادي ، فألقى موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، وعلا النشيج[1] والبكاء ، وكانت موعظته تدور حول الدعوة إلى الجهاد ، وكان يلقيها بالفارسية والأردية ، وعين الحافظ عبد اللطيف ، وخضر خان القندهاري على الحسبة

= وقوله : ـ «هل خطر لأحد من ناقديه في عصره أو بعد عصره أن يسأل نفسه أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع»؟ .

(عبقرية علي بن أبي طالب)
للأستاذ العقاد

(١) النشيج : الصوت مع البكاء ، ونشجت القدر : غلت فسمع لها صوت .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فطافا بالبلد وأحيائه ومساجده ، ودعوا الناس إلى إقامة الصلوات والمحافظة عليها ، والتزام الجماعة .

وجاء اليوم الموعود للقاء سلطان محمد خان ، وأخذ المجاهدون حذرهم ، وعين «رحبة هزار هاني» للقاء ، واستعرض الشيخ محمد إسماعيل المحل ، وأخذ بالحيطة[1] وتأهب جيش المجاهدين ، وسيق إلى الميدان ، وتوضأ السيد وجمع عليه ثيابه وتسلح ، وصلى ركعتين في مسجد الخان ، وقلده كثير من المجاهدين ، ثم دعا دعاء مبتهلاً ، والناس في ذهول ، ثم ركب جواده ، وتقدم إلى الميدان ، وقد خرج آلاف من أهل «بشاور» ينظرون إلى هذا اللقاء التاريخي ، وصلى السيد الظهر هناك ، وتقدم سلطان محمد خان في رهط من أصحابه ، ونزل السيد عن الفرس ومشى إليه راجلاً ، ومعه الشيخ محمد إسماعيل و«أرباب بهرام خان» وتقدم سلطان محمد خان مشياً على الأقدام ومعه «أرباب فيض الله خان» وأحد ندمائه اسمه «مراد علي» وتبادلا التحية ، وتصافحا .

وافتتح السيد الحديث ، وقص على سلطان محمد خان قصة وروده في هذه البلاد ، وما جرى له ، وللمجاهدين وما كان منه ومن أخيه من نقض للعهد ، وتقليب للأمور وموالاة للكفار ، وسأله عن السر في ذلك ، وما حمله عليه ، واعتذر سلطان محمد خان واعترف بأخطائه ، وقدم إلى السيد سجلاً ملفوفاً ، وقال: ستعلم إذا تصفحت السجل السبب فيما كان بيننا من سوء تفاهم ووحشة وتوتر ، فإذا به محضر عليه توقيعات كثير من علماء الهند ، وأبناء المشايخ ، ومغزاه: إننا نخبركم يا أمراء بشاور! أن رجلاً يدعى بالسيد أحمد ، قد جمع حوله لفيفاً من علماء الهند وتوجه إلى بلادكم في جماعة كبيرة من أتباعه ، يعلنون الجهاد في سبيل الله ، ويضمرون الكيد والخديعة ، إنهم خالفوا ديننا ، ودين آبائنا ، واخترعوا ديناً جديداً ، إنهم لا يرون لولي من الأولياء ، ولصالح من الصلحاء فضلاً وحقاً ، بل يذمونهم وينكرون عليهم ، وإنهم جواسيس الإنجليز وعيونهم ، قصدوا بلادكم لاستطلاع شؤونها وأوضاعها ، فإياكم أن تنخدعوا بهم وتقعوا في شباكهم ، فإن في ذلك ذهاب ملككم ، وزوال سلطتكم ، وقد بذلنا

---

(١) الحيطة اسم من احتاط .

لكم النصيحة ونبهناكم على الخطر ، وستندمون إذا فرطتم في هذا الأمر ، ولا ينفعكم الندم.

ولما قرأ السيد هذا المحضر أخذته الدهشة والاستغراب ، وقال السلطان محمد خان: إن في الهند جماعة كبيرة من العلماء المحترفين ، والشيوخ المتكسبين الذين اتخذوا العلم والطريقة صناعة ووسيلة للمعاش ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ويغالون في تقديس المشايخ ، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد وأعياداً تقصد ، ويرون ذلك ديناً وشريعة ، ولا يميزون بين حلال وحرام ، وكفر وإيمان ، وتوحيد وشرك ، ولما هدى الله بدعوتنا ،موعظتنا مئات ألوف من الناس ، وتمسكوا بالدين الخالص ، والسنة الصريحة المحضة ، كسدت سوق هؤلاء المحترفين ، وركدت ريحهم وزهد فيهم أهل الحق ، وانصرف عنهم الناس ، ولما عجزوا عن مقاومة هذه الحركة المباركة ، وعن الصد عن سبيل الله تشبثوا بالبهت والافتراء ، والتقول والإرجاف ، وكتبوا هذا المحضر ، وقد أخطأت خطأ كبيراً إذ لم تخبرنا بأمر هذا المحضر ، وكان في ذلك ضرر على دينك ودنياك ، ولو كنت فعلت لبينا لك الأمر ، وأثلجنا صدرك ، وحسمنا الشك والريبة من قلبك ، ولعل في ذلك حكمة خفية لله ، ولف السيد المحضر وقدمه إلى الشيخ محمد إسماعيل ، وقال له: كن ضنيناً بهذا المحضر ، فلا يطلع عليه أحد ، ولا تحدث به أحداً ، فإن في أصحابنا من إذا أطلع على البهت والافتراء ، دعا على هؤلاء العلماء وأبناء المشايخ فلحق بهم الضرر ، وكان وبالاً عليهم ، وقد عقدنا النية على أن نحسن إلى هؤلاء المسيئين إذا جمع الله بيننا وبينهم فلا يروا منا إلا ما يسرهم ويرضيهم.

وأقبل السيد على سلطان محمد خان ، وقال له: إن أرباب فيض الله خان قد بلغنا استعدادك لتقديم أربعين ألفاً من الروبيات تعويضاً لجيش المجاهدين ووعدت بذلك ، فلا تشغل بالك به ، ولا يهمنك هذا ، فقد تنازلنا عنه وتساهلنا لك فيه «ولله خزائن السموات والأرض» وأنت أخونا في الدين والإسلام ، فلا نريد أن نغرمك ، ونرهقك من أمرك عسراً.

قام السيد بعد ذلك ، وتوجه قافلاً ، وقام سلطان محمد ، وانتهى المجلس ،

وطلب سلطان محمد خان أن يعين السيد في «بشاور» قاضياً من أصحابه يحكم بالشريعة بين الناس ، ويعظ في الجمعة ، قال: نحن نطيعه وينتفع الناس بوعظه ونصائحه ، واختار السيد الإمام الشيخ مظهر علي العظيم آبادي ، وولاه قضاء «بشاور» وأرفقه برهط من المجاهدين ، ووضع يده في يد أرباب فيض الله خان ، وقال : نستخلفه في «بشاور» على طلب صاحبك فاستوص[1] به خيراً.

وأمر السيد جيش المجاهدين بالقفول والعودة إلى معسكره ، ولما دنا الجيش من «بنجتار» استقبله أهل البلاد استقبالاً عظيماً ، وكانوا يغنون الأبيات في مدح السيد ، ويضربون الطبول ، ويأتيه الناس أرسالاً وفي جماعات ، ويطلبون الجوائز ، وكان السيد يجيزهم ولا يردهم إلا مسرورين ، وقد أطلق من بقي من المجاهدين في «بنجتار» إحدى عشرة طلقة من المدافع ، ونزل السيد من الفرس ، وبدأ بالمسجد ، وصلى فيه ركعتين ، وتبعه أكثر المجاهدين ، ودعا دعاءً طويلاً أمن عليه الناس ، وأذن للناس أن ينزلوا في منازلهم ومخيماتهم ، ونزل في منزله القديم ، ولما كانت الجمعة خطب الشيخ أحمد الله الميرتهي وصلى السيد بالناس ، وخطب فيهم ومما قال في هذه الخطبة :

«يا إخواني! إن الله قد نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وانتصرتم على جيوش كبيرة ، وعدو قوي ، وتطاول كثير منكم وقال: لقد انتصرنا في الحرب ، وهزمنا العدو ، فلا يغرنكم هذا ، اتقوا الله يا إخواني واخشوه ، وأكثروا من التوبة والاستغفار ، إن العظمة لله وحده ، وقد ورد: العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته[2].

هو الذي غلّب الضعفاء على الأقوياء ، والفقراء على الأغنياء ، وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لأمره ، يملّك أحداً في طرفة عين ، وينتزع منه الملك في طرفة عين ، و﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

* * *

(١) استوصى بفلان : قبل وصية من وصى به.

(٢) رواه مسلم.

بين الشريعة الإلهية وشرع الناس وأعرافهم

لقد نشأت في بلاد المسلمين ومجتمعهم وخاصة في بلاد العجم وفي الأقطار البعيدة عن مركز الإسلام عادات جاهلية وأعراف محلية كانت لها جذور عميقة في العقول والنفوس وتمسك بها المسلمون على مر الأيام كتمسكهم بالشريعة الإلهية والمنصوصات الدينية والواجبات والفرائض الشرعية بل أشد وأقوى وعضوا عليها بالنواجذ وتواصى بها الآباء والأبناء وتوارثتها الأجيال بعد الأجيال وتغلغلت في أحشاء الأسر والقبائل فامتزجت بلحومهم ودمائهم حتى أصبح الفصال عنها أشق على النفس من فطام الصبي عن الرضاع ، وفصل الرجل المتدين عن الدين وشعائره ، وكان لهذه العادات والأعراف كل ما يكون للأديان والشرائع السماوية من قدس وحب ، وحمية وعصبية وحماس ، يتهالكون عليها ويستميتون في سبيلها ويتعيرون من التهاون فيها والخروج عليها ويتفاخرون بالتمسك بها والمحافظة عليها.

هكذا نشأت شريعة إزاء شريعة ، وفقه وتشريع إزاء فقه وتشريع ، تزاحم هذه الشريعة البشرية الجديدة الشريعة الإلهية الخالدة بكل قوة وسلطان ، وبكل دليل وبرهان ، وتريد أن تستولي على مكانها من النفوس والقلوب وعلى رقعتها ومنطقتها من الحياة والعادات وهي تستخدم جميع المصطلحات التي استخدمها الشرع وأهل الدين ، ففيها فرائض وواجبات وسنن ومستحبات من خرج عليها سمي مبتدعاً متبعاً غير سبيل المؤمنين ومن حفظها وحافظ عليها سمي مستقيماً راسخاً في الدين ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣].

ولما نبعت هذه الشرائع والأعراف من أهواء النفوس وأغراض الكبراء والأمراء وتجارب الشعب وعامة الناس وقياس بعض العقلاء والأذكياء ، وكان كثير منها من فلتات العقول وسوانح الآراء ، ولم يكن مصدرها تشريع الحكيم العليم ، كانت مزيجاً عجيباً من بقايا الجاهلية ونزعات النفوس وقصر النظر وضيق التفكير والشدة والمغالاة والإسراف والتبذير ، أجحفت[١] بحقوق كثير من أعضاء الأسرة وجرت على المجتمع بلاءً عظيماً وشقاءً طويلاً ، وأفقدت الدين يسره وبساطته والحياة حريتها وسرورها وأصبحت إصراً وأغلالاً وقيوداً وأصفاداً على المجتمع الذي آمن بهذه الشرائع وتمسك بهذه الأعراف ، يعيش منها في سجن ضيق مظلم ، وفي حياة نكدة منكوبة ، قد أحلوا ما حرم الله وجرموا ما أحله الله ، وضيقوا ما وسعه الله ، فصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقد فاقت في ذلك القبائل الأفغانية التي ضعفت فيها الدعوة ـ لأسباب تاريخية كثيرة ـ إلى الدين الخالص والسنة المحضة ، واقتصر أكثر علمائها في الزمن الأخير على دراسة كتب الفقه وما إليه والعلوم الآلية والعقلية ، وعرفت من القديم بشدة التمسك بالعادات والأعراف وطريق الآباء والأسلاف ، ترى العدول عنها قيد شعرة مروقاً من الدين واتباعاً لغير سبيل المؤمنين[٢] ، ونشأت فيها مع تطاول الزمن وتهاون العلماء والمشايخ عادات جاهلية رسخت في الناس وتواضعوا عليها.

فكان مما جرت العادة أن كثيراً منهم كانوا لا يزوجون بناتهم إلا إذا تسلموا ممن رغب في ذلك من الشبان والرجال مبلغاً من المال يختلف باختلاف القبائل والمستوى المالي والنسبي حتى يصبحن عوانس[٣] قد تجاوزن سن الزواج ، وقد

---

(١) الإجحاف: النقص الفاحش والإضرار.

(٢) بقيت هذه القبائل مدة طويلة وهي ترى رفع السبابة في التشهد بدعة منكرة وذنباً لا يغفر حتى كان بعض المتحمسين منهم يكسرون سبابة المصلي وهو في الصلاة لما جاء في بعض الكتب الفقهية ـ كخلاصة الكيداني ـ من تحريم رفع السبابة في التشهد.

(٣) عنست الجارية: طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج فهي عانس ج عوانس.

يتورطن من ذلك في معصية وقبائح أو يضر ذلك بصحتهن ويعشن حياة غير طبيعية مرهقة[١].

وقد أرسل عدد من بنات الأشراف العوانس رسالة إلى السيد الإمام على لسان أحد أتباعه من الأفغان وهو أحمد خان كاكا يستغثنه فيها على هذا العرف الظالم والقانون الغاشم ، ويطلبن منه العناية بهذا الموضوع ومحاربة هذه العادة الجاهلية ويناشدونه الله أن ينتهز لذلك أول فرصة ، واهتم السيد بهذه الرسالة وفزع لها وبقي برهة صامتاً لا يتكلم ثم شكر الرسول وقال: كن على ثقة بأننا سنبذل جهدنا في القضاء على هذه العادة الجاهلية واجتثاثها[٢] من هذه البلاد وقل لبنات المسلمين إننا سنحارب هذه العادة الجاهلية بكل طاقتنا ولا ندخر في ذلك وسعاً.

وجمع السيد الناس من غد ووعظهم برفق وحكمة وذكر فضل النكاح وأهميته وحاجة الإنسان إليه ، وأن قيام السلالة البشرية والمدنية الفاضلة والشريعة السمحة به وما في تعطيله أو تأخيره عن أوانه وإحداث العقبات والمصاعب في طريقه واشتراط الشروط المجحفة من مفاسد وقبائح ، وقال: إنكم قد بايعتموني وقبلتم أحكام الشرع وتبتم عن جميع المعاصي والمنكرات فعليكم خاصة أن تتوبوا عن هذا المنكر والظلم الفاحش وأن تزوجوا بناتكم في أقاربكم وقبائلكم كما تقول الشريعة ويأمر به الله ورسوله ، وتقلعوا عن هذه المساومة الظالمة التي ما أنزل الله بها من سلطان وعن هذا التعويض الجاهلي الذي لم يأمر به الشرع.

وكان من هذه العادات الجاهلية أن كثيراً من الآباء لا يسرحون بناتهم لأزواجهم ولا يخلون بينهم وبينهن حتى يتم ما يجهزونهن به ، وقد لا يتحقق

---

(١) وفي بعض المناطق الهندية وخاصة في ولاية بهار عكس هذه العادة الجاهلية فهنالك يطالب الراغبون في الزواج والمرشحون له من الشباب بمبالغ خطيرة وهدايا وطرف من آباء البنات فلا يتزوجون إلا إذا وعدوا بذلك أو تسلموه ، وأصبحوا يغالون فيه إلى حد الإرهاق والتكليف مما لا يطاق ، حتى بدأت تقع حوادث الانتحار لأجل ذلك ، ويفضل كثير من الآباء التخلص من هذه الحياة والذل والعار ، وصدق الله العظيم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

(٢) الاجتثاث: الاقتلاع من الأصل.

ذلك ولا يتيسر لهم هذا الجهاز سنين طوالاً فيبقين في بيوت آبائهن معطلات معلقات لا هن من ذوات الأزواج ولا من الأيامى[١] وشكا إلى السيد كثير من الشبان الذين طال على نكاحهم العهد وبدؤوا يدخلون في سن الكهولة وقد أملكهن الشرع وأحلهن لهم ولكن آباءهم قد حالوا بينهم وبينهن لأسباب مصطنعة مفروضة ، وشق ذلك عليهم أضرَّ بهم ، واستغاثوا بالسيد في محاربة هذه العادة كما استغاثت به الفتيات المسلمات ، وطلبوا منه التوسط في ذلك وزجر الآباء وتنبيههم.

وقد عني بذلك السيد كما عني بقضية الفتيات العوانس ، وأصدر أوامر بتسريح هذه المتزوجات إلى أزواجهن في مدة قريبة وأن يعلم بذلك وعين عمالاً من عنده أن يتولوا ذلك إذا رفض آباؤهن أو اعتذروا ، وتقرر أنه إذا استغاث الزوج إلى الحاكم الشرعي أو القاضي أن صهره لا يسرح منكوحته وقد بلغت: طلب أبو المرأة مع الأولياء الشرعيين ونبه على ذلك ، فإذا قبل عين له يوم وإن لم يقبل عين الحاكم يوماً وذهب مع رجال قد عينت أسماؤهم وجاء بزوجه إلى بيته.

وكان عمل القبائل الأفغانية بقانون وضعوه ووضعه لهم رؤساء القبائل وأمراء البلاد ودرجوا عليه من قرون وأجيال وتمسكوا به تمسكاً شديداً ، وكانوا يسمونه «آئين أفغاني» أي القانون الأفغاني ، وكان يقوم على أغراضهم ومصالحهم ويشتمل على تقاليد قديمة وعادات محلية ، وكان فيه للأمراء والعلماء حظوظ معينة وحقوق ثابتة ، كان الناس يدفعونها كالزكاة والصدقات ، وقد أحسن أحد رؤساء القبائل وهو «عناية الله خان السواتي» التعبير عن هذه النفسية ، وكان ممثلاً في ذلك لأهل بلاده ، متكلماً بلسانهم إذ قال جواباً لخطاب الشيخ محمد إسماعيل لما أراد أن يمر ببلاده ويدخل «باجور»:

«إنكم لا تحيدون عن الكتاب والسنة قيد شعرة وإن الكتاب والسنة والعلماء في جانبكم ولكن الأحكام التي ثبتت من الكتاب والسنة يشق علينا أن نعمل بها ، لذلك نمنعكم من التوجه إلى «باجور» ولا نسمح لكم به أبداً وسنحاربكم إذا لجأنا

---

(١) ولا تزال لهذه العادة الجائرة بقايا في الهند خصوصاً في البيوتات الكبيرة ذات النسب والحسب.

إلى ذلك وسنظل متمسكين بتقاليدنا الأفغانية فإذا كان الظفر لكم ودخلت هذه البلاد في حكمكم غادرناها ولجأنا إلى بلد من بلاد الكفار حتى نستطيع أن نعمل بطريق آبائنا وأجدادنا ونعيش عليها».

وقد كانوا دخلوا في بيعة السيد وإمارته واختاروه إماماً وأميراً وهم يظنون أنه لا يتدخل في قضاياهم الخاصة وتقاليدهم وأعرافهم القديمة ويقتصر على الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الأعمال الصالحة والعبادات الدينية شأن المشايخ والعلماء وكثير من الصلحاء والأولياء ، وإذا توسع فإنه يأخذ منهم العشر وهم أحرار فيما يفعلونه وفيما يؤدونه ، ولا شأن له بالحياة المنزلية والعادات القبلية والأعراف المحلية ، وخاب ظنهم ورأوا أنه نظام شرعي جامع مستوعب للحياة كلها لا يؤمن بمبدأ فصل الدين عن السياسة والعبادات عن العادات ، ولا بمبدأ «أدوا لقيصر ما لقيصر وأدوا لله ما لله» ويرى أن الإسلام دين ودنيا وعبادة وتشريع وأخلاق ومعاملات ، وأن المسلم لا يجوز له أن يجمع بين الإسلام والجاهلية وبين الله والطاغوت وبين التمسك بالأحكام الإسلامية في العبادات والأحكام الجاهلية في العادات والحياة ، وفاجأهم ذلك وفزعوا له وصاروا يحاولون التخلص منه وخلع ربقته ويلتمسون له حيلة ووسيلة.

وساعدهم في ذلك استثقال العلماء لهذا النظام الشرعي وكراهيتهم له ، فقد زاحمهم في حقوقهم ونصيبهم الذي جروا عليه من أحقاب وأجيال ورأوه حقاً لهم بالوراثة وبالعرف والعادة.

وزاد الطين بلة ما رأوا في جماعة السيد من تصرفات لم تسغها عقولهم من التنكيل بالمنافقين والمفسدين والبغاة والخوارج من رؤساء القبائل وأمراء العشائر كما وقع «لخادي خان» و«يار محمد خان» من الهلاك والاستيلاء على حصونهم وأملاكهم

وكذلك ما قد كانوا يرونه من التحقيق في بعض المسائل والعمل فيها بنص الكتاب[1] والسنة واختيار بعض الجزئيات التي هي أقرب إلى التطبيق بين الفقه

---

(١) كان في جماعة المهاجرين والمجاهدين عدد قليل من العلماء الذين كانت لهم اختيارات =

والحديث ، وذلك كله في إطار المذهب الحنفي السائد المنتشر في الهند وبلاد الأفغان وتركستان ، ولم يألفه علماء الأفغان من مدة طويلة لضيق الدائرة العلمية التي نشؤوا فيها ، وعدم وصول كتب المحققين المحدثين كشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي إلى بلادهم ومدارسهم وللجمود العلمي الذي سيطر على هذه البلاد من زمن طويل ، زد على ذلك ما نقل إليهم ووشى به من أتباع قائد هذه الجماعة وأصحابه الكبار للطريقة السلفية التي لا تقوم على تقليد إمام وإنما تقوم على اتباع الهوى[١] والاعتماد على العلم والتحقيق الشخصي.

ومما لا شك فيه أن بعض من عهدت إليه الحسبة على الناس في هذه الأعراف الجاهلية والعادات الشائعة ، وإزالة هذه المنكرات ورد المظالم والسعي في تزويج الفتيات العوانس وتسريح البنات المتزوجات إلى أزواجهن كان قاسياً غير لبق ولا مرن في إجراء هذه الأحكام وفي ممارسة السلطة الشرعية متسرعاً فيها في بعض الأحيان ، غليظاً شديداً في أحيان أخرى ، وقد ظهر من بعض العمال على الصدقات وبعض رجال الحسبة والشرطة سوء تصرف وشعور زائد بالقوة والحكم ، وقد كان ذلك من أسباب سخط أبناء هذه البلاد الذين تمتعوا بحياة الحرية والنظام القبلي زمناً طويلاً وكانوا معتزين بنفوسهم وأنسابهم وكانوا مرهفي[٢] الحس رقيقي الشعور في هذا الشأن.

وكان الباعث الحقيقي لحركة السيد ونهضته ودعوته ، وكان رائد جميع أفعاله وأقواله وفي كل ما يأتي ويذر ، هو الحرص على إعلاء كلمة الله وإظهار دينه

= فقهية وكانوا يعملون بالحديث الصريح في بعض الأحكام والعبادات كان على رأسهم الشيخ محمد إسماعيل حفيد الإمام ولي الله الدهلوي وصاحب رسالة «تنوير العينين في إثبات رفع اليدين» وكانت الجماعة تعمل بالتسامح في مثل هذه الاختلافات فكانوا إخواناً متحابين ومتعاونين على البر والتقوى لا ينكر بعضهم على بعض في المسائل الخلافية.

(١) اقرأ ذلك مفصلاً في الرسالة التي أرسلها السيد رداً على هذه الشائعات وتبييناً لمذهبه ومنهجه إلى علماء بشاور ـ سيرة سيد أحمد شهيد ج٢ ص ٣٢٤ ـ ٣٣٠

(٢) أرهف السيف : رقق حده. ومرهف الحس : صاحب حساسية سائدة وانفعال.

وإحياء سنة نبيه وتطبيق شريعته وتنفيذ حدوده ، وأن يعيش المسلمون حياة إسلامية لا حظ فيها للجاهلية والأهواء النفسانية والعادات والأعراف القديمة المضادة لله ولرسوله ، وأن يخرجوا من حكم الطاغوت إلى حكم الله ومن الحرب إلى السلم ومن عبادة النفس إلى عبادة الله ، ذلك الذي حمله على الهجرة والجهاد وعلى مفارقة الأهل والأوطان ومواجهة الأهوال والأخطار ، وذلك الذي نذر له نفسه ووهب له حياته ، ولا قيمة عنده للهجرة والجهاد ولا لحكومة إسلامية إذا لم يتحقق ذلك المطلوب ، يقول في كتاب أرسله إلى سليمان شاه والي «جترال» :

«لا شأن لهذا الفقير بالمال والثروة ولا بحصول المملكة والدولة ، فمن قام من إخواننا المسلمين بتحرير بلاد المسلمين عن نير الكفار وحكمهم وقام بترويج أحكام رب العالمين وتطبيق سنة سيد المرسلين ، وتقيد بقوانين الشريعة في الحكومة والعدل تحققت أمنية هذا العبد ونجح في مشروعه» .

ظلت هذه العوامل الخفية تعمل لإثارة سخط القبائل الأفغانية التي نشأت على هذه العادات والأعراف والتقاليد والنظم والعقائد والأفكار ورأتها ديناً يتبع وشريعة تطاع ، وألهب هذا السخط رؤساء القبائل وأمراء البلاد واتخذوه ذريعة للتخلص من هذا النظام المزاحم لنظامهم ولهذه السلطة المنافسة لسلطتهم وقد نشط السيد الإمام وأصحابه بعد العودة من «بشاور» في نصب القضاة والمحتسبين والعاملين على الصدقات ، والوعاظ والدعاة وفي محاربة العادات الجاهلية وذمها وتهجينها ، ورأى الناس منهم الجد والعزم ورأوا تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وكان رد الفعل على كل ذلك هي المجزرة الهائلة التي نحكي قصتها في اختصار بقلب متفطر وقلم متعثر .

* * *

بأي ذنب قتلت؟

وطفحت الكأس عند الدرانيين ورؤساء القبائل والذين حد من سلطتهم المطلقة وحريتهم الزائدة ، وعيل[١] صبرهم ورأوا أنه إذا طال الأمد على هذا النظام الشرعي ودرج عليه الناس فلا أمل في عودة الحياة الحرة الأولى وصاروا يشعرون بأن الأرض تنقص من أطرافها وأن المجال لا يزال يضيق وأن التأخير في التخاص من هذا الوضع يزيد النظام والإمام قوة وشوكة ويزيدهم ضعفاً وتخاذلاً .

وكان سلطان محمد خان لم تنسه الأيام وتطاول الزمان وبر السيد الإمام وإحسانه إليه ورده إليه ملكه السليب وعهده إليه بالنيابة والسلطنة ، لم ينسه كل ذلك المصير الذي صار إليه أخوه يار محمد خان ، ولم يندمل الجرح الذي أحدثته في قلبه وفاته جريحاً قتيلاً ، طريداً ذليلاً ، وكان صلحه مع السيد هدنة على دخنة[٢] وتسليماً للأمر الواقع ، لم تطب له نفسه ولم ينشرح له صدره فصار يتحين الفرصة للخلاص من هذا الكابوس[٣] الذي يخيل له ويزعجه والذي يرى معه أنه مكتوف اليد مقيد السلطة ، وفي «بشاور» الشيخ مظهر علي العظيم آبادي نائب السيد والقاضي الشرعي يأمر المعروف وينهى عن المنكر ويفصل الخصومات ويحكم بالشرع ، وفي «سمه» ـ موطن القبائل الأفغانية الذي كان يحلم من قديم الأيام ببسط نفوذه وسلطته عليها وقد حاول ذلك هو وأخوه مراراً فأخفقا ـ قوة تنمو وتكبر وتستطيع أن تفتح بشاور وتتحدى حكومة «لاهور» فلا

---

(١) عال وعيل صبره : غلب .

(٢) الهدنة : المصالحة ـ والدخنة ، كدرة في سواد ومنه حديث «هدنة على دخن» أي على فساد واختلاف تشبيهاً بدخان لما بينه من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر .

(٣) ما يحصل للإنسان في نومه فيزعجه وكأنه يخنقه .

بقاء مع هذه القوة لسيادته وقيادته لهذه البلاد وأبنائها وكان يرى له ولأسرته التي حكمت أفغانستان والحدود الشمالية وقادتها حقاً دائماً على هذه المنطقة ، لا يسمح لأحد أن يشاركه فيه أو يزاحمه .

وكان في كل قرية كبيرة وفي كل مركز من مراكز المنطقة السهلية الواقعة بين «بشاور» «ومردان» قاض ومحتسب ، وجاب للعشر وعامل على الصدقات يحدون من سلطة رؤساء هذه القبائل ، وقد يتدخلون في شؤونهم ، ويملؤن عليهم أحكام الشرع فيتضايقون بذلك ويحتملونه على غصص[١] .

التقت هذه العناصر الكثيرة المختلفة فيما بينها على نقطة واحدة هي نقطة التذمر[٢] من هذه الحياة التي لا عهد لهم بها ، ومن هذا النظام الذي لم يألفوه ، ولم يكن عندهم من قوة الإيمان والعقيدة والذكاء والوعي ، والشعور بالسيف المصلت على رقابهم ما يتغلب على النزعات الجاهلية والأغراض الفردية والأنانية المضرة بالمصلحة الاجتماعية .

ولم ينسجم مع الأسف أبناء هذه المنطقة مع إخوانهم في الدين والذين نزح آباء كثير منهم في مدة قريبة من هذه البلاد إلى أرض الهند لالتماس رزق كريم أو إظهار فروسيتهم وروحهم العسكرية ولا يزالون محافظين على كثير من العادات الأفغانية والخصائص القبلية ، وذلك لوجود التفاوت الكبير بين أخلاقهم وأخلاق أبناء هذه البلاد ، ولتربيتهم الدينية الجديدة ، وكان كثير منهم قد تزوجوا فيهم وصاهروهم ، وتلمذ كثير من أبناء هذه البلاد عليهم في الدين والأشغال الروحية ، ولكن الفجوة لا تزال قائمة بينهم ، وإن للمصالح الشخصية والفوائد المالية منطقاً ساحراً لا يقاوم ، ورنيناً في الآذان والقلوب يخلب العقول ويبلد الشعور .

وعلى كل فقد ظلت القدر تغلي في القبائل والمؤامرة تدبر وتحاك في بشاور ، ويتردد رؤساء القبائل إلى سلطان محمد خان ويستشيرونه ويأخذون منه تعليمات

---

(١) غص يغص غصصاً : اعترض في حلقه شيء فمنعه التنفس .
(٢) تذمر : لام نفسه على فائت وتغضب .

سرية ويرجعون إلى بلادهم والمهاجرون في شغل شاغل بأداء واجباتهم والقيام بأعمالهم منصرفون إلى الاستعداد لمحاربة حكومة «الاهور» ، وتوسيع النظام الشرعي إلى المناطق القبلية التي لم تدخل في هذا النظام وقمع الثورات التي تحدث بين حين وآخر في المناطق التي يحتلونها ، وكانت تربيتهم الدينية التي نشؤوا عليها لا تسمح لهم بالتشكك في نية هؤلاء الذين بايعوا أميرهم على السمع والطاعة وعاهدوا الله على نصره وولائه وقبلوا النظام الشرعي عن طواعية ، وأعان على ذلك أنهم يجهلون لغة البلاد التي يتكلم بها أبناؤها ، والتي كانت تستخدم في تبليغ هذه الرسالة السرية وخطة المؤامرة بين القبائل وزعمائها .

وقد شعر الشيخ مظهر علي العظيم آبادي بأن هنالك تغيراً في معاملة سلطان محمد خان وأن وجهه غير الوجه الذي كان يلقاه به ، وقد أثار معه موضوع قتل أخيه يار محمد خان وخاض في الحديث بعض علماء «بشاور» فأفحمهم الشيخ بالدلائل الشرعية وسكتوا على غصص ، وسلطان محمد خان على غيظ وحنق ، وكتب الشيخ إلى السيد يخبره بذلك ويطلب من الشيخ محمد إسماعيل أن يكتب إليه بالدلائل الشرعية والنصوص الفقهية ويستطلع رأيه في وجود النفاق والمنافقين في هذا العصر ، فقد ادعى بعض العلماء أن النفاق كان في عصر النبي ﷺ وانقرض هذا العصر ، فلا نفاق بعد ، فإما مؤمن مخلص أو كافر مجاهر[1] ، ويستشير السيد في بقائه أو لحوقه به ، وأشار عليه الشيخ محمد إسماعيل بأن يستأذن سلطان محمد خان وينتقل إلى مركز المجاهدين .

وسمع المجاهدون بعض أهل البلاد يتهامسون بذلك ، ونبههم بعض المخلصين من أبناء البلاد على أن الأمر له حقيقة وأنه ليس مجرد شائعة وإرجاف وأن سلطان محمد خان ورؤساء القبائل قد تواعدوا على يوم معين ينفذون فيه خطتهم ، ويقتلون القضاة والعمال في مناطق نفوذهم في وقت واحد ، وقد عينوا

---

(١) قد انحسم الخلاف في هذه المسألة واتفق على أن النفاق من طبائع البشر وخواص الفطرة الإنسانية التي لا تختص بعصر دون عصر، وقد بسط هذه المسألة شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في رسالته الفريدة «الفوز الكبير في أصول التفسير» وقد بحثنا فيها في كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» راجع ترجمة الإمام الحسن البصري .

لذلك رمزاً خاصاً واصطلاحاً فإذا نطق بهذا الاصطلاح نفذ المشروع وانطلقت موجة القتل والفتك فلا تبقي وتذر.

ولما بلغ السيد هذا الخبر أصدر تعليمات سريعة إلى العمال والمهاجرين المتفرقين في القبائل أن يغادروا مراكزهم ويلحقوا به قبل أن يأتي اليوم الموعود للقضاء عليهم ، ولما علم المتآمرون أنه قد تسرب السر أعجلوا الأمر وأرسلوا إلى جميع المناطق بتنفيذ المشروع فوراً.

وانفجر البركان وانطلقت موجة عارمة للقتل والفتك تحولت بسرعة إلى مجزرة هائلة لم يشاهدها التاريخ الإسلامي من مدة طويلة ، وكان أول فريستها العالم الرباني الشيخ مظهر علي العظيم آبادي وأرباب فيض الله خان الذي شفع عند السيد لسلطان محمد خان فطال تردده بينهما ، وكان صاحب الفضل عليه في البقاء في «بشاور» ، والتمتع بالحكم والسيادة فقد طلبهما سلطان محمد خان يوماً وأمر بضرب رأسيهما.

وأصبح المهاجرون المنتشرون في القبائل المعينون على القضاء والحسبة والجباية وهم أفراد معدودون أو جماعات قليلة العدد مغمورة محاطة بأهل البلاد الأصليين هدفاً لهمجية نادرة وضراوة بالدم الإنساني لم تشهد من زمن بعيد ، وصار أبناء البلاد يقتنصونهم اقتناص الصيادين الماهرين لظباء وادعة أو نعاج ضعيفة ، وصاروا يتخطفونهم بالسيوف والأسنة ويرشقونهم بالرصاص ويذبحونهم في كثير من المواضع ذبح النعاج في أيام الأضاحي ، وليس لهم راحم ولا راث ، ويستغيثون بالإسلام وينشدونهم بالله فلا يسمع لهم ، ولجأ كثير إلى المساجد فحوصروا حصاراً شديداً وهددوا بالإحراق عليهم وهدم المساجد فاضطروا إلى الخروج وقاتلوا قتالاً شديداً وقتلوا على بكرة أبيهم[1] ، وقد قتل الحاج بهادرشاه خان الرامفوري في الصلاة ساجداً في الركعة الأولى.

وقد ثارت العاطفة الإنسانية في كثير من أبناء البلاد وكان في مقدمتهم العلماء والسادة من أبناء الرسول ﷺ والنساء فناشدوا هؤلاء القساة واستعطفوهم على

---

(١) يعني عن آخرهم فلم يبق أحد ، وجاء القوم على بكرة أبيهم أي لم يتخلف منهم أحد.

هؤلاء الغرباء الضعفاء ، وخوفوهم من عقاب الله ، ومن بطشه الشديد ، ونشدوهم بالله ، وقالوا هؤلاء إخوانكم المسلمون يجمعون بين فضيلة الحج والهجرة والجهاد في سبيل الله ، وتشبث كثير من النساء بأزواجهن أو أبنائهن أو إخوانهن وتعلقن بثيابهم ويقلن لهم: اتقوا الله في هؤلاء المسلمين الذين لم يصدر منهم ذنب يهدر دمهم ويوجب قتلهم ، فلا يمتنعون ولا يرثون.

وتعدى الأمر إلى الهنادك وغير المسلمين وشفعوا لهؤلاء البائسين يقولون للمسلمين المحاصرين والعازمين على قتلهم: إننا معاشر الهنادك ، لا نستحل قتل حيوان ولا نسمح به لغيرنا وأنتم تقتلون بني جلدتكم وإخوانكم في الدين ، خذوا منا ما تشاؤن من الأموال فدية لهم وتعويضاً لقتلهم ونحن نعاهدكم على أننا سنوصلهم إلى «نجتار» إلى إمامهم وأميرهم أو نعبر بهم نهر السند وننقلهم إلى أرض الهند ، فيذهبون حيث يشاؤون ، ورفضوا طلبهم ولم يصغوا إلى استغاثتهم ومناشدتهم.

ووقف بعض العلماء موقفاً محموداً في حماية هؤلاء البؤساء وخاطروا بحياتهم وأهلهم ، فألجؤوهم في بيوتهم وأجاروهم وأبوا أن يسلموهم ، ولم يجد الظالمون إليهم سبيلاً ، وظهرت حوادث معدودة تجلت فيها العاطفة الإنسانية ورقة البشرية والوفاء.

ونجا من هذه المجزرة العامة التي تفرق بين إنسان وإنسان وفرد وفرد عدد من المهاجرين بحزمهم وحكمتهم ورباطة جأشهم وحضور عقلهم ، كان في مقدمتهم الشيخ خير الدين الشيركوتي. فقد استطاع أن يخرج بجماعته من هذا التطويق الذي كان حوله ، ونجا بجماعته كلها مع مال المسلمين الذي كان معه ، ووصل إلى السيد سالماً ، فأثنى عليه وحمد الله على حياته ، وأطلق المدافع إعلاناً بقدومه سالماً وتخويفاً للمفسدين ، وأطلق إحدى عشرة طلقة وأمر الناس بتضييفهم يوماً وليلة وأمر لهم بكسوة جديدة وأحذية جديدة وإصلاح شأنهم.

واجتمع في «بنجتار» عدد كبير من أهل البلاد وأبناء قبيلة فتح خان البنجتاري مضيف المهاجرين الذي آواهم ودعاهم إلى «بنجتار» متسلحين يحملون رايات ، وجاءت جماعات تترى ونزلوا عند فتح خان ولما سئلوا قالوا: إنما جئنا لننصر

السيد ونأخذ ثأره من المفسدين الظالمين ونحقق أنها مؤامرة خفية وأن لفتح خان إصبعاً في هذه الفتنة وأن هواه مع المفسدين وهو الذي دعا هؤلاء ليستخلص البلاد له ويقصي المهاجرين منها ، وكان قد خرج من بنجتار قبل هذا الحادث ولم يعد إلا بعد أن انتهت المجزرة فأثار ذلك ريبة في نفوس المهاجرين ، ودلت القرائن على أنه كان من المتآمرين ، ولما علم بتشكك المهاجرين في اجتماعهم أشار عليهم بالعودة والتفرق فرجعوا إلى مواضعهم.

وكان ممن استشهد في هذه المذبحة الشيخ مظهر علي العظيم آبادي قاضي بشاور والحاج بهادرشاه خان الرامفوري والشيخ رمضان شاه رئيس القضاة والحافظ عبد العلي ، والحاج محمود خان الرامفوري مع عشرين من رفاقه وبيرخان المورانوي مع عدد من زملائه ومنهم من قتل مقاتلاً ومنهم من قتل في الصلاة ومنهم من قتل وهو يتوضأ يستعد للصلاة ومن قتل غيلة وعلى غرة ، وكانوا صفوة المهاجرين المجاهدين علو همة وزهداً في الدنيا وإقبالاً على الآخرة وقوة أمانة ، وكانوا أنضاء[1] عبادة وأطلاح[2] سهر ، يقضون نهارهم في الفروسية وخدمة المسلمين ونصرة الدين ويبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦] وهكذا لقيت هذه الجماعة حتفها على أيدي المسلمين الذين جاءت لنصرهم وحماية أعراضهم وتحرير بلادهم قبل أن تمكن من محاربة عدوهم.

وهاتف الغيب يتساءل ويقول: ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير: ٩].

* * *

(١) النضو : المهزول.
(٢) الطليح : الهزيل.

هجرة في هجرة وجهاد في جهاد

كان أثر الحادث عميقاً في قلب السيد وقد رزق من كرم النفس ورحابة الصدر وقوة الاحتمال والصبر على الأذى والإحسان إلى الأعداء ما يحير العقول ولا يرزقه إلا الأفذاذ في قرون وأعصار ، وكان في ذلك مقتفياً لأثر جده ونبيه ﷺ ، يصل من قطعه ويعطي من منعه ويحسن إلى من ظلمه ، لا يعرف الغضب لنفسه ولا يحمل حقداً على إنسان فضلاً عن مسلم ، وقد عفا عمن سعى في إهلاكه بالسم وفي قتله غيلة وأنعم عليهم وزودهم واجتهد أن لا يقعوا في عنت أو يتعرضوا لسخط ، يظن من رآه أن المسيء إليه محسن وجب حقه عليه واستحق الشكر والجائزة ولعله كان أوفر نصيباً وأسعد حظاً من الذي أحسن إليه .

ولكن هذا الحادث كان من نوع آخر ، إنه كان صدمة عقلية وقضية اجتماعية لا تختص بشخصه ولا تتطلب رحابة ذرع وسعة صدر وسماحة نفس فحسب فعنده منها ما يسع هذا الحادث وحوادث كثيرة ولكنها تدعو إلى تفكير جديد واستعراض شامل للظروف والملابسات ، ومقارنة جدية بين الربح والخسارة .

إن مثله كمثل زارع بذر أكرم ما عنده من البذور السليمة الكريمة بل بذر حبات القلوب ومهج النفوس وسهر عليها وجاهد في سبيلها وسقاها بدموعه ودمائه وأذاب فيها مهجته وحشاشة نفسه وسمدها بأكرم سماد ، ثم لما نما هذا الزرع وانتوى على سوقه قصده أحد الجيران فأتلفه وعاث فيه وأشعل فيه النار ، وهكذا وقع مراراً كثيرة فكان ألف هادم أمام بانٍ واحد ، فهل يعود إلى الزرع وبذر الحبوب وانتظار الحاصل في هذه الأرض التي لم تقدره قدره ولم تشكر نعمته أم

يقصد بقعة كريمة طيبة نقية في أرض الله الواسعة ، ويضن بهذه البقعة الباقية من البذور الكريمة التي انتقاها وتخيرها وبالفرصة القصيرة التي منحها.

إنه يعرف أن الكلب إذا تردد إلى بيت كان أليفاً ، عرف له أهل البيت حقاً وقدموا إليه كسرة خبز ، وألف هو ذلك البيت فلا يفارقه ولا يخونه ، فهل هو وجماعته أخس من الدواجن ومن الطوافين الآلفين من الحيوانات والدواب؟ وهل لا يزال ينفخ في رماد ويصيح في واد ويجاهد في غير جهاد؟.

ومما زاد هذا الجرح عمقاً والنفس ألماً هو أنه تحقق له أن فتح خان البنجتاري الذي دعاه إلى النزول في أرضه ووعد بأن يكون هو وقومه كالأنصار للمهاجرين الأولين ، كان من المتآمرين المفسدين وأصبح بعد ذلك كل شيء مشكوكاً فيه لا يوثق بأحد ، ولا يعتمد على وفاء ، وقد أحسن السيد التعبير عن ذلك فقال فيما قاله لفتح خان: «لقد أصبحت قلوبنا في حاجة إلى المداواة وأصبحت تشك في صدق من يدعي الإسلام وينطق بالشهادة وكلمة التوحيد ، وقد صدر منهم من قسوة واستهانة بحياة المسلمين وانتهاكهم لحرماتهم ما يتحاشى عنه كثير من الكفار».

وأراد السيد أن لا يتسرع بحكم ولا يبت في الأمر حتى يتحقق الأسباب التي حملت أهل البلاد على هذا الفتك الذريع والفعل الشنيع ، فوجه دعوة إلى علماء المنطقة والسادة والأشراف ، وبعض رؤساء القبائل وأمراء العشائر واستعان في ذلك بفتح خان أيضاً وأملى رسائل كثيرة وأرسلها إليهم ودعاهم إلى بنجتار وأوصى أصحابه بالمبالغة في ضيافتهم وإكرامهم ، وأنهم إذا رأوا أحداً كانت له مشاركة في هذه المجزرة أن لا يتعرضوا له بعتاب ولا يتجهموا له[1] وأمرهم بأن يزيدوا في تكريمه ورفادته.

واجتمع عدد كثير فيهم الأبرياء ، وفيهم المتلوثون بدماء الشهداء ، ولم يفرق المهاجرون بينهم ووسعوهم ببرهم ورفدهم ، وطال الحديث بين السيد وبين المجتمعين فسألهم عما حملهم على هذا الفتك فذكروا الأسباب التي جرى

(١) تجهمه وتجهم له : استقبله بوجه عبوس كريه.

البحث فيها مراراً ، والشائعات التي أشيعت حول هذه الجماعة وما يشكوه بعض أبناء هذه البلاد من سوء تصرف من بعض العمال وتسريح البنات العوانس إلى أزواجهن الذين قام بينهم وبينهن رباط النكاح الشرعي وتزويج البنات اللاتي تأخر زواجهن وذلك كله برضا الآباء والأولياء وتمسك بعضهم بأمر المحضر.

وقد أجاب السيد عن كل ذلك جواباً شافياً وتكلم المنصفون من علماء البلاد وأعيانها وظهرت أن حجتهم داحضة[1] وليس هنالك ما يبرر هذه المقتلة العظيمة التي قتل فيها خيار الناس وصفوة المهاجرين المجاهدين.

وقرر السيد أخيراً الانتقال من هذه المنطقة التي أحبطت مساعيه وجزت الإحسان بالإساءة والوفاء بالغدر وقطعت كل أمل في المستقبل ، ثم دعا الحاضرين وودعهم وكان اليوم القادم يوم جمعة وقد حضره جم غفير فأعاد ما قال بالأمس ووعظ ونصح وقد فاضت العيون ، وكلمه بعض أصحابه في البقاء في هذه المنطقة فذكر أن نفسه قد عزفت عن الإقامة في هذه البلاد وأنها تعافها كما يعاف الإنسان من قيئه ، وأنه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، وذكر أن من استشهد في هذه المقتلة كان خلاصة بلادهم ولبابها وقد اعتمدنا على الدعوة والتربية الدينية والترغيب والترهيب أولاً ثم لجأنا إلى السياسة وإقامة الحكم الإسلامي واستخدام القوة أخيراً ولم ينجح كل ذلك فإن الأرض غير قابلة للزرع الكريم وأن القلوب جافة جامدة لا يؤثر فيها الإخلاص والإحسان.

وكان أربعة أمراء من «هزاره» وفي «وادي كاغان» يكررون دعوتهم إلى قصد بلادهم واتخاذها منطلقاً للدعوة ومركزاً للجهاد ، ورأى السيد وأهل الرأي في جيشه أن يتوجه إلى كشمير ويتخذها لحركته ونشاطه.

ولما انتشر الخبر في النواحي قصده المخلصون من كل صوب وناحية وأرادوا أن يصرفوه عن هذه الهجرة وقابلهم السيد بلطف وألان لهم الكلام ورق في الحديث ودعا لهم وأشار إلى فتح خان وقال: لو أشار علي كل الناس بالهجرة ومغادرة هذه البلاد وأشار على الناس هذا بالبقاء لقررنا البقاء ، ولو أشار علي هذا

---

(١) داحضة : باطلة واهية.

بمغادرة هذه البلاد وأشار على الناس بالبقاء لقرونا المغادرة ، ثم أدنى السيد أذنه إلى فم فتح خان ليفضي بسره إليه ويخبره بما تضمره نفسه وتناجيا طويلاً لا يعرف أحد ما جرى بينهما من الحديث. ثم أقبل السيد على قبيلته وقال إننا لا نحكم عليكم بالثورة وإننا لا ننتقل من هذه البلاد إلا لمصلحة وإننا نستخلف فتح خان فيكم تدفعون إليه ما كنتم تدفعونه إلينا من العشر وتطيعونه في معروف ، وأوصيكم في من يقصدكم من الهند فتحسنون ضيافتهم وتكرمونهم ، وخلع على فتح خان قميصه وكساه إياه ولاث عمامته على رأسه وكتب له بالخلافة.

وشكر رفاقه على النصر والوفاء وأقر بفضلهم وخيرهم بين مرافقته وبين تخلفه وقال إن الطريق شاق والسفر طويل فلا يختاره إلا من وطن نفسه على الصبر والتقشف وتحمل المكاره ، أما نحن فقد وهبنا نفوسنا لله وعزمنا على الجهاد في سبيل الله وإلى أن نلقى الله ، واختار جميع رفاقه من المهاجرين المخلصين مرافقته ولم يتخلف منهم أحد.

* * *

«من بنجتار إلى بالاكوت»

وفي يوم من ايام رجب سنة ١٢٤٦ آذن السيد بالمسير واستقبل السفر وقابله في الطريق سبطه الجريح السيد موسى بن أحمد علي الشهيد وكان في آخر حياته وكان ينتظر السيد بصبر نافذ ، ومكث السيد يوماً تطييباً لخاطره ، وفي اليوم القادم بلغه نبأ وفاته وفي الطريق لحق به بعض زعماء الثورة وأرادوه على العودة ويكى بعضهم وأكثر من الملق والإلحاح ولقيهم السيد ببر وترحيب ووعدهم خيراً واعتذرهم عن العودة واعترى فتح خان ندم شديد واستعان ببعض أصحابه في صرف السيد عن الهجرة وحمله على العودة ، فاعتذر السيد وأهدى إلى هؤلاء الثوار بعض الهدايا الكريمة وودعهم توديعاً حسناً.

وكان في الطريق يقوم السيد بالتذكير بالله وذكر فضل الجهاد والهجرة وما أعد الله للشهداء من رضا ورضوان وروح وريحان فتنتعش قلوب المهاجرين وتعمل فيهم هذه المواعظ عمل الأمطار في الحقول والمزارع فتهتز وتربو وترق وترف.

ولم يكن طريق هذه الهجرة أقل وعورة من الطريق الذي مر به المهاجرون بين الهند وأفغانستان فكانت تعترضهم جبال شامخة الذرى صعبة المرتقى ، وواجههم برد شديد في بعض الأمكنة وجوع ومسغبة وتعب ، والقائد الداعي يطمعهم في ثواب الله ويشحذ عزمهم على الجهاد واحتمال المشاق ويشاركهم في عسر ويسر ، يفيض وجهه بشراً وتتهلل أسارير وجهه كأنه يتقلب في نعيم ويطير على جناح الشوق إلى وكره ، ويؤنس الناس بحديثه ، ويلاطفهم بأخلاقه وشفقته ، يقيم في القرى أياماً ويصلح بين المتنازعين ، ويدعو إلى الجهاد في

سبيل الله. ويرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ، وتفاجئهم الضيافة الكريمة والإيواء الكريم وتتمثل الحياة الإسلامية بمساواتها وإيثارها والتعاون على البر والتقوى.

وفي الطريق بلغه أنه لم يمض على خروجه من «بنجتار» قليل حتى زحف «هري سنغ» حاكم «هزاره» بجيش كثيف يشتمل على خمسة وعشرين ألفٍ من الرجال وعبر نهر السند ونكل بأهل القرى وسطا بهم وبيوتهم وأملاكهم ، واختطف جيشه كثيراً من بنات المسلمين وأزواجهم.

وأقبل السيد على شعف[1] الجبال التي تقع في طريق كشمير ، وأمر بحراستها وضبطها ، وفي «راج دواري» بايعه المجاهدون بيعة أصحاب الصفة وعاهدوا أن لا يسألوا غير الله في حاجاتهم وأن يحبوا لإخوانهم المسلمين ما يحبون لأنفسهم.

وكان يسود في هذه المنطقة الجبلية اضطراب وعدم استقرار لغارات «السيخ» واعتداءاتهم وبسبب الحروب الأهلية التي يخوضها الأمراء المسلمون وقد استعان السيخ ببعض الأمراء على بعضهم وجلا كثير من الأمراء من مراكز سلطتهم وتشرد منهم كثير واستعانوا كلهم بالسيد.

وكان لا بد من جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم للاستيلاء على كشمير واتخاذها مركزاً للدعوة والجهاد ، وكانت «بالاكوت» التي تقع في مركز «وادي كاغان» محصورة بالجبال من ثلاثة جوانب خير مكان للإقامة وخير منطلق للتحركات العسكرية وكانت كقلعة حصينة ساعدتها الطبيعة على الحصانة والمناعة ، فاتفق الرأي على اختيارها مركزاً للمجاهدين وأمر السيد الشيخ محمد إسماعيل بالتوجه إليها وتقدم الشيخ خير الدين فنزل بها ثم لحقه الشيخ محمد إسماعيل وكانت الطرق مكسوة بالجليد وأصبحت بساطاً مستوياً لا تعرف فيه الوهاد والنجاد وكان الناس يزلقون على الثلج ويسقطون ، وكانوا يحملون الأثقال والعتاد الحربي ويخشى عليهم التلف والهلاك ويصيبهم البرد الشديد فيكادون

(١) الشعفة: رأس الجبل ج شعف.

يتلفون ، وما وصل الشيخ محمد إسماعيل إلى بالاكوت إلا بشق النفس وقد خرج من مخالب الموت.

وبقي الشيخ محمد إسماعيل والشيخ خير الدين ينتهزان كل فرصة لجمع كلمة الأمراء وحملهم على الجهاد وإعداد العدة له ، ومكث السيد زماناً في الطريق يدعو إلى الجهاد ويلهب الغيرة الإسلامية ويؤلف بين المتخاصمين المتحاربين ويقيم نظام العشر وبيت المال ويبايعه الناس على العمل بالشريعة والسعي في الجهاد ، ولحق به الشيخ محمد إسماعيل وأقام عنده زماناً يدرس في المشكاة ويعظ الناس.

وهنا في ذي القعدة سنة ١٢٤٦ جاءته دعوة من حبيب الله خان كبير الأمراء في الوادي إلى القدوم إلى «بالاكوت» وأخبره بأن «شيرسنغ بن مهاراجه رنجيت سنغ» قد نزل بجيشه على بضعة أميال من بالاكوت في جنوب نهر «كنهار».

* * *

في بالاكوت

توجه السيد لأربع خلون من ذي القعـ ـة سنة ١٢٤٦هـ بجيشه من «سجون» إلى بالاكوت يرافقه الشيخ محمد إسماعيل وكانت رحلة شاقة مضنية في الجبال ، وكان الشيخ محمد إسماعيل إذا أعيا جلس وشرع في الوعظ فينشط وينشط الناس ، وكان يتلقاهم الناس في كل موضع ببرّ وترحيب ، ويرزقهم الله من حيث لا يحتسبون حتى وصلوا إلى «بالاكوت».

وقرية «بالاكوت» تقع على فم وادي «كاغان» وقد قامت الجبال الشامخة من ثلاثة جوانب ، الشرق والغرب والشمال ، وليس للوادي إلا منفذ في الجنوب يدخل منه نهر «كنهار» وقد قام جبلان في الشرق والغرب كجدارين متقابلين بينهما فجوة لا يزيد عرضها على نصف ميل ، وفي هذه الفجوة قامت قرية «بالاكوت» على ربوة عالية وجرى نهر «كنهار» ولا سبيل للوصول إلى «بالاكوت» إلا هذا المنفذ الجنوبي الذي يدخل منه نهر كنهار أودريبة في الجبال في الجانب الجنوبي الغربي كانت في تخطيط ملوك الهند القدماء ونحتهم ، وقد نبتت فيها الأشجار العالية ونشأت فيها غابة وغطتها أحجار سقطت من قلل الجبال فلم يكن يعرفها إلا الذين نشؤوا في البلاد وعرفوا مسالكها.

وقد نزل شيرسنغ على شرقي نهر كنهار على بضعة أميال من «بالاكوت» ولا سبيل له للهجوم على المجاهدين إلا عن طريق المسلك الجبلي الذي لا يسلك إلا بدلالة خِرِّيت ماهر من أبناء القرية أو إذا سلك مع النهر على الشاطىء الشرقي فيواجه قرية «بالاكوت».

وقد عين السيد الإمام فرقاً من الجيش على كلا الطريقين وكان قليل من الجيش يكفي لصد جيش كثيف لضيق المسلك ووعورته ، وأخذ بالحيطة في كل مكان قد نصب جسراً من خشب على نهر بالاكوت ليتيسر العبور للجيش وإرسال الأمداد وقد كتب إلى صديقه وتلميذه وزير الدولة أمير «تونك» رسالة كتبت لاثنتي عشرة خلون من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ ، وكان الكتاب الأخير الذي أملاه ، يذكر فيه أسباب الهجرة وأهمية بالاكوت «الاستراتيجية» ويذكر جيش العدو الذي نزل إزاءه ويبدي ارتياحه إلى التنظيمات ورجاءه للنصر والفتح .

وقد أخبره الجواسيس بأن جيش «شيرسنغ» قد وصل إلى قرية «متى كوت» ليسلك الطريق القديم الذي لا يعلمه إلا الخبيرون من أهل البلاد ، وقد وجد من يقوده إلى هذا الطريق ويهديه ، وأرسل السيد مدداً من الجيش لتقوية من كان يحرسه ولكن «السيخ» كانوا قد سلكوا هذا المسلك واستولوا على المكان الذي يبدؤون منه زحفهم .

ولم ينقض النهار حتى فوجيء الناس بوجود الجيش على قلة الجبل المطل على القرية .

أشار الناس على السيد بالانسحاب من بالاكوت واللجوء إلى بعض الجبال وحينئذ يتراجع الجيش المهاجم ويرجع خائباً ، ورفض السيد هذا الاقتراح وقال : سنقاتل العدو في هذا الميدان فلا تفوتنا إحدى الحسنيين إما الوصول إلى «لاهور» عاصمة «سيخ» وإما الدخول في الجنة ، والجنة لا تعدلها الدنيا بحذافيرها وبجميع حكوماتها ودولها ، وهنالك ملكه الإيمان وغلب عليه الشوق فقال إنني أتمنى أن أقدم إلى الله أحبَّ شيء إلي حتى أنال رضاه ، أما بذل النفس له والموت في سبيله فهو أهون شيء عندي ولا فرق عندي بينه وبين حشيش آخذه وأرمي به مكسوراً محطماً .

وقال إننا لم ندخر وسعاً في الدعوة إلى الجهاد وقد أرسلنا خلفاءنا ودعاتنا إلى الهند وخراسان وتركستان وما قصروا في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة ، وما مررنا بقرية ولا نزلنا في منزل إلا ودعونا أهلها إلى إحياء هذه السنة المماتة وإقامة هذا الركن العظيم فلم يجبنا إلا أمثالكم من الفقراء ، وقد ظل كتابنا يكتبون الرسائل

إلى الأمراء المسلمين وملوكهم وانطلق سفراؤنا ورسلنا يحملون السفارات إلى هؤلاء العظماء والزعماء يخاطبون فيهم الإيمان ويثيرون فيهم الغيرة ويحركون فيهم الحمية الدينية فلم يلقوا منهم استجابة ، فصدقوهم المعركة الخيرة بيننا وبين الكفار فإما يكتب الله لنا النصر فنطأ أرض «لاهور» وإما يرزقنا الشهادة فنحل دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها لغوب ، وكان الناس صامتين لا حراك بهم ، قد غمرهم الإيمان وغشيتهم سحابة من السكينة وتمثلت لهم الجنة بنعمائها ، ثم أقبل على الحاضرين فقال لهم : أكثروا من التوبة والاستغفار في هذه الليلة واغتنموا هذه الفرصة فمن يدري من يكرمه الله بالشهادة غداً ، ومن تطول به حياته ويفسح في أجله ، ثم قام بالاستعداد لحر حاسمة وأمر بالتحصينات وفتح عدة جبهات في وجه العدو وعين فرقاً من الجيش يقودها كبار المجاهدين كالشيخ محمد إسماعيل والشيخ ولي محمد وناصر خان وحبيب الله من أمراء البلاد وأمر بتحصين المساجد.

ونزل السيد من المسجد الذي كان يتكلم فيه إلى مخيمه وصنع له الغداء وطلب ملابسه وأسلحته وأهدى بعضها إلى بعض خاصته ، واختار بعضها لنفسه كأنه يستعد للدخول في مجلس ملك عظيم أو يشهد عرساً أو يحضر عيداً ، وكانت الليلة ليلة مظلمة موحشة ، وكانت السماء متغيمة وباتت الطيور تصيح.

* * *

مشهد بالاكوت

وأسفر صباح اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦ هـ، أذن للفجر وتوضأ الناس ولبسوا السلاح وصلى بالناس السيد فكانت صلاة أخيرة، صلاها إماماً وأذن لهم بالانصراف، وجلس السيد مشغولاً براتبه، ولما ارتفعت الشمس صلى صلاة الإشراق ثم توضأ وابتهل ومشط لحيته، ولبس أحسن ما عنده من الثياب، وأخذ الأسلحة.

وتمثلت الجنة للمجاهدين الذين تغنوا بذكرها وحنوا إليها طويلاً وأعدوا العدة لها، وقوي إيمانهم ورفع الغطاء عن عيونهم فإذا بهم يبصرون ما لا يبصره غيرهم يجدون ريح الجنة من دون جبل[1] «بالاكوت».

يقول أحد من شهد هذه الوقعة: كان السيد «جراغ علي البتيالوي» قد نصب قدراً على النار يطبخ الطعام مسلحاً مستعداً لأي مفاجئة وكان السيخ نازلين من الجبل وكان في يده مغرفة يديرها في القدر وينظر إلى السيخ مرة وإلى قدره مرة أخرى وحانت منه التفاتة إلى السماء فانفجر قائلاً: انظروا بالله إلى الغانية من حور الجنة في أحسن ثياب وأجملها، ثم رمى المغرفة على القدر وقال سآكل الطعام من طبخك ثم طار إلى السيخ والناس يقولون له: مهلاً أيها السيد فسنرافقك ولم يلتفت إليهم وخاض في العدو وقتل شهيداً.

وكان السيد الإمام على جبهته في فناء مسجد وكان الناس يتناوبون الحرس

---

(١) كلمة أثرت عن سيدنا أنس بن النضر وقد قال في غزوة أحد «إني لأجد ريح الجنة من دون أحد».

وكانت القنابل تسقط يميناً وشمالاً ولا تصيب أحداً ، وحضر الحلاق في هذه الساعة الدقيقة الحرجة فأصلح شعره ومشط لحيته ونزل عدد كثير من الجيش وصار يدنو من المجاهدين ومنع الناس من أن يبدؤوا القتال حتى يحضر ، ثم قام من فناء المسجد ودخل المسجد وأغلق الأبواب واشتغل بالدعاء ثم فتح نافذة وسأل من ناداني؟ قالوا: لا أحد ، وهكذا عاد مرتين أو ثلاثاً وفي المرة الثالثة خرج من المسجد ونزل في الميدان كليث ثائر وكانت القنابل تقع كوابل من البرد ، وأمر أحد رفاقه السيد أبا الحسن أن يتقدمه بالراية ثم رفع صوته بالتكبير ، وهجم على العدو وكان أرباب بهران خان يمشي أمامه كأنه مجنة وأمر الشيخ محمد إسماعيل أن يحيط به المجاهدون المسلمون فتحلقوا حوله وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر ويفدونه بنفوسهم وأرواحهم ولما دنا العدو منه رشقهم المجاهدون بالرمي ، فأنزلوا وابلاً من الرصاص ومات منه الكثير.

وكان آخر أمر السيد أن رأه الناس جالساً على هضبة مستقبل القبلة يطلق البنادق وحوله جثث الشهداء ، وهو لا ينثني ولا يكل ، ورأى الناس أن خنصره اليمنى مجروحة تدمى ولعله أصيب برصاصة في كتفه اليسرى فسال الدم إلى أصابعه ، وفي يده بندقية وفي الأخرى سيف مصلت يحث على القتال ويقول: أحصوهم[1] عدداً واقتلوهم بدداً ولا تتركوا منهم أحداً.

وقد تصاعد دخان البارود وملأ الفضاء فلا يعرف أحد أحداً وقراطيس السيخ تطير في الجو كالجراد المنتشر وكانت تظل الجميع سحابة من وحشة وظلام وحزن وكآبة ولجأ المجاهدون إلى السيوف ورفعوا صوت التكبير ، وهاجموا العدو ، وقد انهزم السيخ إلى الجبل ووصل المجاهدون إلى سفحه وكانوا يأخذون بأرجلهم فيجرونها إليهم ويقتلونهم بالسيف.

وبينما هم كذلك إذ توارى السيد عن عيونهم ورؤي الشيخ محمد إسماعيل معلقاً بندقيته في عنقه ، بيده سيف مسلول وجبينه ينضح دماً وهو يمسحه بيده ، ولا يشعر أحد بأحد.

---

(١) بدداً ـ لفظ الحديث «أحصهم عدداً واقتلهم عدداً ولا تترك منهم أحداً» والبدد بكسر الباء جمع بدة وهي الحصة والنصيب.

ودارت الدائرة على المجاهدين واستشهد الشيخ محمد إسماعيل وظهرت شجاعة المجاهدين وبسالتهم وحنينهم إلى الشهادة ، واستهانتهم بالحياة ، وحبهم للإمام وإيثاره على أنفسهم وانقيادهم للأمير وخضوعهم للنظام ما جدد ذكرى القرون الأولى ورد التاريخ على أعقابه قروناً كثيرة.

ومن المرجح المعقول أن السيد الإمام قد أكرمه الله بالشهادة وقد التبس الأمر على كثير من الغزاة لشدة القتال واشتباك الفريقين وكثرة القتلى وشبه لكثير من أنصاره وأعدائه فلم يتبين موضعه ، ومن الروايات ما تقول: «أن قائد السيخ بحث عن جثته فلم يهتد إلا بصعوبة وبدلالة ولد صغير لبعض المجاهدين. فكفنه في كسوة صوفية فاخرة وأمر المسلمين بأن يصلوا عليه ويدفنوه ، ومنها ما تقول: إن رأسه انفصل عن جسده فدفنا في مكانين مختلفين وليس هنالك قبر يوثق به ويعتمد عليه»[١].

وهكذا أجاب الله دعاءه وحقق أمنيته فقد روي أنه كان شديد الكراهة لإقامة الضرائح والبناء على القبور ، وكان شديد الإنكار على ذلك. كثير الاعتناء بإزالتها فقيل له: إن المسلمين يعتقدون فيك الخير والصلاح ويحبونك حباً شديداً ومن كان هذا شأنه لم يهمله الناس فبنوا على قبره وشيدوه فقال: إني دعوت الله أن يلبس على الناس ويخفي عنهم مدفني فلا يتمكنوا من بناء الضريح واتخاذه عيداً[٢].

أما الشيخ محمد إسماعيل فقبره معروف في بالاكوت ، وأما الشهداء الآخرون فيزيد عددهم على ثلاثمئة شهيد وهم خلاصة بلادهم ولبابها كما قال السيد فقد دفنوا في مكان واحد.

ولما بلغ النبأ إلى لاهور فرح به «رنجيت سنغ» فرحاً عظيماً فأمر بإطلاق المدافع إعلاناً بالسرور والانتصار ، وأمر بتنوير مدينة «أمرتسر» بالمصابيح ،

---

(١) والقبر المنسوب إليه في «بالاكوت» والذي بنت عليه حكومة باكستان تذكاراً له لا تصح نسبته إليه والمرجح أنه لغيره.

(٢) رواه نواب وزير الدولة والي «تونك» عن السيد في كتابه «وصايا الوزير».

المدينة المقدسة عند السيخ ، وإعلان الأفراح ، وأنعم على الرسول الذي حمل هذه البشرى بسوارين من ذهب وعمامة من شال ثمين ، وأنعم على ولده القائد بإقطاعة جديدة وأصدر أمراً إلى حاكم قلعة «كوبندكهر» الكبرى أن يطلق تَل بندقية إعلاناً بالسرور والفتح ، وهنأ السفير الإنجليزي المعين في البلاط الملكي «مهاراجا» على هذا الفتح العظيم وذلك في ٢٣ من مايو سنة ١٨٣١ م نيابة عن الحاكم العام الإنجليزي[١] في شملة[٢].

هذا ، وكانت وقعة «بالاكوت» في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ست وأربعين ومئتين وألف (٢٤ ذي القعدة من سنة ١٢٤٦ هـ الموافق ٦/ مايو سنة ١٨٣١ م).

* * *

(١) هذه المعلومات مستقاة من الوثائق الرسمية المكتوبة بالإنجليزية المشتملة على رسائل «الكبتان سي ، ايم ، ويد» المفوض عند حكومة لاهور وسكرتير الحاكم العام ، المحفوظة في المتحف الحكومي في لاهور وقد اطلع عليها المؤلف بنفسه وأخذ نقولها بإذن حكومة باكستان.

(٢) مصيف الحكومة الإنجليزية في الهند.

امتداد تاريخ الجهاد والبطولة

لم يتمتع «رنجيت سنغ» بهذا الفرح طويلاً ، فقد عاش بعد وقعة «بالاكوت» ثماني سنوات ، ومات في سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ م) وتوالت بأخلافه الخطوب ، فمنهم من اعتبط واخترمته يد المنية في الشباب ، ومنهم من كان فريسة حادثة أو مفاجأة ، ومات ولده «شيرسنغ» فاتح «بالاكوت» وولده الذي كانت تلوح عليه علائم النبوغ والنجابة في مدة قريبة في سنة ١٨٤٣ م ، ووقع بين أبناء هذا البيت تنافس شديد ، وحروب داخلية إلى أن استولى الإنجليز على هذه المملكة الناشئة في سنة ١٨٤٩ م وانقرضت هذه الدولة انقراضاً كلياً ، ولم يبق لها عين ولا أثر .

أما المجاهدون ، فقد أفاقوا من دهشة النكسة ، وشهادة الإمام ، وشهادة عدد كبير من المجاهدين ، في وقت قريب ، واختاروا لهم الشيخ ولي محمد البهلتي ـ من كبار أصحاب السيد ـ أميراً لهم ، وخلفه الشيخ نصير الدين المنكلوري ، ثم الشيخ نصير الدين الدهلوي (م ١٢٥٦ هـ ـ ١٨٤٠ م) .

ثم آلت قيادة الجماعة إلى العالم الرباني والمصلح الكبير مولانا ولايت علي العظيم آبادي أحد كبار خلفاء السيد ، في سنة ١٢٦٢ هـ[1] ١٨٤٦ ، ومات في ٢٢/ محرم سنة ١٢٦٩ هـ (٥/ نوفمبر ١٨٥٢ م) وتولى القيادة بعد وفاته شقيقه

(١) قد ألجأه الإنجليز إلى العودة إلى الهند ولزوم بيته «وقضى هذه المدة في قلق عظيم كأنه سمك أخرج من الماء ، ولم تكد تنقضي هذه المدة حتى توجه الشيخ إلى مركز المجاهدين كأنه طائر يعود إلى وكره في المساء ، ووصل إليه في ٨/ من ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ هـ ـ ١٠/ نوفمبر سنة ١٨٥١ م.

المجاهد الجليل مولانا عنايت علي العظيم آبادي ، وفي عهده تم استيلاء الإنجليز على بنجاب والحدود الغربية الشمالية ، فأصبحوا المنافس الحقيقي لنشاط المجاهدين وأهدافهم ، وقد ثبت أن الحكومة الإنجليزية التي كانت تملك جميع وسائل التوسع والانتصار ، وكانت زاخرة بالحيوية والطموح ، كانت الخطر الحقيقي في شبه القارة الهندية بل في الشرق الإسلامي كله ، وكان السيد وجماعته مطلعين على هذه الحقيقة التاريخية ، وقد أنذر بذلك السيد قادة المسلمين وملوكهم وزعماءهم ، في رسائله البليغة التي وجهها إليهم في الهند وأفغانستان وتركستان ، وقد جاء في إحدى رسائله التي كتبها إلى الأمير كامران بن شاه محمود الدراني حاكم هراة «أن هدفه الحقيقي هو إقامة الجهاد على الهند التي استولى عليها الإنجليز فأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة».

فكان طبيعياً أن ينصرف المجاهدون إلى محاربة الإنجليز وقد بدت طلائعه في عهد مولانا ولايت علي العظيم آبادي وقد كان من أعرف الناس بمقاصد السيد الحقيقية وكان صاحب سره وبطانته ، وتكامل ذلك في عهد شقيقه مولانا عنايت علي وبلغ أوجه ، واستمر إلى عهد خلفائه كالأمير عبد الله والأمير عبد الكريم بني الشيخ ولايت علي العظيم آبادي. وهو تاريخ حافل بالبطولات والمغامرات ، وحوادث وخطوب ، تشيب لهولها الولدان ، وكانت حروب دامية وقتل وفتك ومصادرة للأملاك والأموال ومحاكمات طويلة عريضة ، ونفي وتشريد ، وتفتيش يذكر بتاريخ محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى ، وتعذيب وتنكيل تقشعر منهما الجلود ، ولو وضعت مآثر الفداء والإيثار والبطولة في الهند كلها ، التي يحكيها تاريخ حركة التحرير والكفاح الوطني ، في كفة ، ووضعت مآثر أهل[1] صادق بور (أسرة مولانا ولايت علي العظيم آبادي) وبطولاتهم في كفة

(١) أسرة ربانية مجاهدة كانت في طليعة أنصار السيد الإمام وكان منها صفوة أصحابه وكبار «الفدائيين» وقد نهضت بأعباء هذه الدعوة والجهاد في سبيلها ، وكان لها القسط الأوفر في ذلك و«صادق بور» اسم حي من أحياء مدينة عظيم آباد المعروفة الآن بـ «پتنة» ، وهي عاصمة بهار ، وكان منها الشيخ ولايت علي ، والشيخ عنايت علي ، والشيخ أحمد الله ، والشيخ يحيى علي وتسلسلت فيها إمارة الجماعة في مركز المجاهدين.

أخرى لرجحت هذه الكفة الأخيرة رجحاناً ظاهراً[١]

وكانت للجهاد وتنظيم الجماعة وتسريب الأموال والشباب المجاهدين إلى «ستهانة» المركز الرئيسي (عبر الحدود الهندية الإنجليزية) شبكة دقيقة قد انتظمت الهند كلها ، وكانت لهذه الأغراض مراكز سرية في ولاية بهار وبنغال ولغة رمزية يتراسلون بها ، ومتطوعون أوفياء يعدون بمئات الألوف[٢] ، لم تستطع الحكومة الإنجليزية أن تصرفهم عن غايتهم بتغريبهم بمال أو تهديد[٣]

وقد نفخت هذه الحركة في الشعب «البنغالي» روحاً جديدة من الشجاعة والحماسة الإسلامية ، والحمية الدينية ، والاستهانة بالحياة ، وروح المغامرة ، وحب الشهادة في سبيل الله ، والتمسك بالجامعة الإسلامية ، وإيثار مصلحة الإسلام والمسلمين على كل مصلحة ، والاستقامة على المبادىء ، حولت هذا الشعب الوادع الذي عاش بعيداً عن حياة الفروسية ، وعن ميدان القتال إلى شعب باسل مناضل ، حتى اعترف بعض كبار القادة الإنجليز بأن المجاهد البنغالي لم يكن دون الأفغاني بسالة وشجاعة ، بل كان يفوقه أحياناً في شدة البأس والمراس ، ولم تستطع «المباحث» والمخابرات والمخاوف التي كانت تعترض في هذا الطريق الطويل أن تحول بين هؤلاء المتطوعين البنغاليين وبين عملهم الشاق الدقيق[٤].

ولم يتمكن الشيطان ـ لاستحواذ العقيدة الإسلامية والدعوة الدينية عليهم ـ من إثارة حمية جاهلية ، أو عصبية لسانية وثقافية ، أو عنصرية ، أو دموية ، ولم

---

(١) اقرأه مفصلاً في كتاب «الحركة الإسلامية الأولى في الهند» للأستاذ مسعود الندوي ، والجزء الثالث والرابع من سلسلة تاريخ السيد أحمد الشهيد للمؤرخ الباكستاني الكبير غلام رسول مهر.

(٢) يقول رئيس البوليس الإنجليزي في بنغال «لا يقل عدد أتباع قائد واحد من قادة هذه الحركة عن ثمانين ألفاً من الأتباع ودواليك».

(٣) اقرأ التفاصيل المدهشة في كتاب (Mussalmans Our Indian) للمؤلف الشهير (W. W. Hunter).

(٤) اقرأ التفاصيل في كتاب «مسلمو الهند» لوليم هنتر ، السابق ذكره.

يتفاخروا إلا بالإسلام ، والسبق في ميدان خدمته ونشره ، أو بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق.

وقد اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى أن ترسل بعوثاً حربية يبلغ عددها إلى عشرين بعثة شارك فيها ستون ألفاً من الجنود المدربين ، وقد أقر الدكتور هنتر بأن ثكنات بنجاب قد خلت من الجيش الإنجليزي في بعض الأيام لتشاغل الجيوش بمحاربة المجاهدين ، وانسحبت الجيوش الإنجليزية في عدة معارك ، حتى اضطرت حكومة بنجاب إلى استرجاع جيوشها في آخر سنة ١٨٦٣ م ، إلى أن تمكنت من القضاء على هذا الخطر المتحدي لها بسياستها المعروفة القديمة في التحريش بين القبائل وعزل المجاهدين عن أنصارهم وخلفائهم من أبناء البلاد في سنة ١٨٦٨ م.

وبدأت محاكمة المتآمرين في الهند ودامت مدة طويلة ، وحوكم عدد من قادة هذه الحركة كان على رأسهم وفي مقدمتهم الشيخ يحيى علي العظيم آبادي ، والشيخ أحمد الله العظيم آبادي ، والشيخ جعفر علي التهانيسري ، والشيخ عبد الرحيم الصادق بوري ، حكم عليهم بالإعدام ثم بدل هذا الحكم بالنفي المؤبد إلى «بورت بلير» اندمان (في جزائر سيلان) ومات الشيخ يحيى علي ، والشيخ أحمد الله في الجزيرة ، ورجع الشيخ محمد جعفر وزملاؤه بعد أن قضوا في المنفى ثماني عشرة سنة في سنة ١٨٨٣ م ، وهي قصة مشجية مثيرة حكاها محمد جعفر في كتابه «المنفى الأسود»[1] أو «التاريخ العجيب».

وتاريخ هذا الجهاد الطويل والبطولات النادرة موضوع كتاب مفرد وسفر مستقل ، وإلى القارىء فصلاً من فصول هذا التاريخ العجيب.

* * *

(١) اسمه في أردو «كالاباني» أو «تاريخ عجيب» وقد طبع هذا الكتاب مراراً وذاع واشتهر.

من الشنق إلى المنفى

في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ) جلس (ايدورس) القاضي الإنجليزي على كرسي في محكمة «أنبالة»[١] وجلس بجانبه أربعة من المساعدين المستشارين من وجهاء البلد ليروا رأيهم في القضية ، ووقف أمام هؤلاء أحد عشر رجلاً تنطق وجوههم وملامحهم بشرفهم وبراءتهم ، ولكنهم اعتبروا من كبار الجناة والمجرمين ، فإنه يقال إنهم دبروا مؤامرة ضد الحكومة الإنجليزية في الهند ، وكانوا يساعدون أنصار السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والمجتهد الجليل الشيخ إسماعيل الشهيد على حدود أفغانستان بالمال والرجال يرسلونها سراً من داخل البلاد بحكمة عجيبة ، وقد وضعوا لمراسلاتهم لغة رمزية ، وكانوا يجمعون إعانات من رعايا الإنجليز أنفسهم ويرسلونها إلى مركز الثوار ، عثرت على ذلك الحكومة بوشاية جندي مسلم في جنود الإنجليز وألقت القبض عليهم في «بتنه» و«تهانيسر» و«لاهور» وحاكمتهم ، وهذا يوم يصدر فيه الحكم عليهم.

غصت المحكمة بالزائرين فقد كانت القضية حديث المجالس ، وحان صدور الحكم فشخصت الأبصار وأصغت الآذان واضطربت القلوب وخفتت الأصوات وإذا بالقاضي يتكلم في صوت الغضبان ويخاطب شاباً جميلاً قوياً يظهر أنه ربيب نعمة وسليل شرف:

---

(١) مدينة كبيرة في شرقي بنجاب وكانت ثكنة إنجليزية ومركزاً إدارياً كبيراً في العهد الإنجليزي.

«إنك يا جعفر رجل عاقل متعلم ، ولك معرفة حسنة بقانون الدولة وأنت عمدة بلدك ومن سراته ، ولكنك بذلت عقلك وعلمك في المؤامرة والثورة على الحكومة ، وكنت واسطة في انتقال المال والرجال من الهند إلى مركز الثوار ولم تزد إلا أن جحدت وعاندت ، ولم يثبت أنك كنت مخلصاً وناصحاً للدولة ، وها أنا ذا أحكم عليك بالإعدام ومصادرة جميع ما تملكه من مال وعقار ، ولا يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك ، بل يدفن في مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، وسأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقاً مشنوقاً».

استمع الشاب في سكينة ووقار ، ولم يتغير ولم يضطرب ، ولما انتهى القاضي من كلامه قال محمد جعفر: «إن النفوس والأرواح بيد الله تعالى. يحيي ويميت وإنك أيها القاضي لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدري من السابق منا إلى منهل الموت».

فو الله ما أدري وإني لأوجل على أينا تغدو المنية أول

ثار الرجل غضباً وجن جنونه ولكنه قد أطلق آخر سهم من سهامه لا يملك ه.

استبشر محمد جعفر حين صدر عليه الحكم فتهلل وجهه فرحاً ، كأنما تمثلت له الجنة وتمثلت له الحور والقصور وتمثل بيت الشاعر:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا

أخذ الناس العجب مما رأوا ، ودنا إلى محمد جعفر ضابط إنجليزي يقال له «بارسن» وقال له: لم أرك كاليوم قد حكم عليك بالإعدام وأنت مسرور مستبشر ، قال محمد جعفر: «وما لي لا أفرح ولا أستبشر وقد رزقني الله الشهادة في سبيله وأنت يا مسكين لا تدري حلاوتها».

وحكم القاضي على رجلين آخرين بالإعدام أحدهما شيخ تلوح عليه سيما الصالحين وآية العابدين ، قد تلقى النبأ في سرور وشكر ، وهو مولانا يحيى علي الصادق بوري أمير هذه الجماعة ، والآخر شاب يظهر أنه من الأغنياء والتجار الكبار ، وأن أصله من بنجاب ، وهو الحاج محمد شفيع ، وحكم على الثمانية الآخرين بالنفي المؤبد.

سمع الناس المجتمعون الحكم في حزن وأسف شديد ، وفاضت العيون وسالت الدموع ، واجتمع الناس من رجال ونساء على جانبي الشارع إلى السجن ينظرون إلى هؤلاء المظلومين ويرثون لهم.

ووصلوا إلى السجن ونزعت ثيابهم وألبسوا ثياب المجرمين ، وسجن كل واحد من الثلاثة في حجرة ضيقة مظلمة لا يدخل إليها الهواء ولا ينفذ فيها النور ، وباتوا فيها في حر شديد ، بشر ليلة بات بها قوم ، وجاءت بكرة برقية تسمح لهم بالمبيت في الميدان.

وفي النهار أعيدوا إلى حجراتهم الضيقة ، كان لا يمكن لأحدٍ أن يعيش في مثل هذه الحجرة الضيقة مدة أسبوع ، ففتح بابها وعين جندي يحرس هؤلاء ، وكان هؤلاء الجنود أكثرهم من غير المسلمين ، فكان مولانا يحيى علي ينتهز الفرصة ويأتسي بأسوة يوسف الصديق عليه السلام ، ويخاطب الحارس ويقول: «أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» فيظل الرجل باكياً ، فإن نقل من مكانه حزن حزناً شديداً.

وهكذا غرس الشيخ في قلوب كثير من أصحاب السجن عقيدة التوحيد ، وبذر فيها بذور الإيمان وكم من رجال أسلموا ، وكم من ناس تابوا ، وكان الشيخ لا يضيع فرصة فإذا صادف أحداً أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر.

وبدأ زبانية السجن يصنعون لهؤلاء حبلاً وعوداً للشنق على مرأى منهم ومسمع ، وهؤلاء يرون كل ذلك مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

أما مولانا يحيى علي فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنة في الجنة ، ومن انتظار النعيم في النعيم ، ينشد الأبيات في حنين ووجد ، ويتمثل بما قال سيدنا خبيب رضي الله عنه عند شنقه :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

وكذلك رفقته ، وجوه ضاحكة مستبشرة ، ونفوس هادئة مطمئنة ، وقلوب

---

(١) الشلو : العضو من أعضاء اللحم ، والممزع المقطع.

راضية مسرورة ، خشوع في الصلاة وعبادة في نشاط ، وذكر وتسبيح وتلاوة آيات ، وحنين ووجد وإنشاد أبيات.

مات القاضي الإنجليزي ـ الذي حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدام ـ فجأة على إثر الحكم ، وجن الضابط الإنجليزي «بارسن» الذي ألقى القبض على محمد جعفر ، وضربه يوماً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة مساءً ، ومات في جنونه شر ميتة ، فكان كما أنذر محمد جعفر ، و«رب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره»[1].

وكان يدخل إلى السجن كثير من الإنجليز والإفرنجيات يتفرجون على هؤلاء السجناء يشمتون بمصير الأعداء ، وكانوا يقضون العجب من سرورهم ونشاطهم ويسألونهم لماذا لا تحزنون يا هؤلاء وأنتم على عتبة الموت وعلى موعد من الشنق؟ فيجيبونهم: هذا لأجل الشهادة التي ليس فوقها نعمة وسعادة.

ويرجعون إلى الحكام الإنجليز ويحدثونهم بما رأوا وبما سمعوا ، فيزدادون غيظاً على غيظ ، ولكن ماذا يصنعون؟ إنهم إذا أطلقوهم فقد أطلقوا أعداء قد ثاروا على الدولة ، وأنهم سيرجعون إلى ذلك ، وإذا شنقوهم وقتلوهم فقد بلغوهم أملهم واجتهدوا في سرورهم.

قد عز على الإنجليز كل ذلك ولم تطب أنفسهم به.

فكّروا في القضية ، وفكّروا ، وفكّروا ، ووجدوا طريقاً وسطاً بين القتل والإطلاق ، والإنجليز أمة قانونية ذكية.

في يوم من الأيام جاء حاكم المدينة الإنجليزي إلى السجن وتلا على الثلاثة المحكوم عليهم بالإعدام ، حكم محكمة الاستئناف.

«إنكم أيها الثوار تحبون الشنق وتعدونه شهادة في سبيل الله ولا نريد أن نبلغكم أملكم ، وندخل عليكم السرور ولذلك ننسخ حكم الإعدام ونحكم عليكم بالنفي المؤبد إلى جزائر سيلان».

---

(١) حديث صحيح.

وهنا قصت لحاهم وشعر رؤوسهم ، وكان مولانا يحيى علي يرفع الشعر ويخاطب لحيته المقصوصة ويقول :

«وفي سبيل الله ما لقيت»

وشنق إنجليزي بحبل وعود أعد لأولئك المسلمين فانعكست الآية .

وأمر المسجونون بالاشتغال بأعمال شاقة ، وأمر مولانا يحيى علي بنزع الدلاء من بئر ، وكانت كبيرة وثقيلة لا ينزعها الشبان الأقوياء إلا بشق الأنفس ، والأستاذ شيخ قد أضنته العبادة والسهر والسجن الطويل ، وكان اليوم صائفاً شديد الحر ، فنزف الدم في بوله ، ولكنه استمر في شغله صابراً محتسباً لا يشكو ولا يئن ، ثم نقل إلى عمل سهل فكان يقوم به بأمانة ونصيحة ويوصي المسجونين الآخرين بذلك أيضاً ويقول لهم : إذا كنتم تتمتعون هنا بطعام ولباس فما بالكم لا تؤدن وظيفتكم بأمانة ونصيحة .

ولم يزل الشيخ في السجن آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، داعياً إلى الله ، واعظاً مرشداً حتى تاب كثير من المجرمين وأنابوا إلى الله .

ونقل الشيخ من «أنباله» إلى «لاهور» وأقام في سجنه عاماً كاملاً وكان هناك الجناة واللصوص وقطاع الطريق والفساق ، فكان يقبح لهم الجنايات والفسوق والعصيان ، ويزين لهم الدين والتقوى والعفاف ، ويحثهم على الطاعة والتوبة والإنابة وإصلاح الحال ، ويدعوهم إلى التوحيد والمحافظة على الصلوات والصيام ، ويحذرهم من عذاب الله ونقمته ، فتاب كثير من اللصوص وقطاع الطريق وحسن حالهم ، وأخلصوا لله الدين وتابوا وأقاموا الصلاة .

وكان من هؤلاء رجل من «بلوجستان» شديد البطش جباراً ، وقد سطا بخدم السجن مراراً وضربهم بسلاسله ، وكان لا يقوم بأعماله ووظائفه ، وقد عوقب عقاباً شديداً ولم يتب ولم يلن ، ويئس منه زبانية السجن وقطعوا منه الرجاء وصادف مبيته مرة بالقرب من الشيخ وأثر كلامه في قلبه ، فحسن حاله وصار يؤدي وظيفته وفكت سلاسله وأغلاله ، فصار يحافظ على الصلوات الخمس ويبكي خوفاً من الله ، ومن رآه شهد بأنه ولي من أولياء الله .

ولم يزل الشيخ ورفقته ينتقلون من سجن إلى سجن ومن محبس إلى محبس

حتى وصلوا في الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٠ م إلى «بورت بلير» من جزائر إندمان ، ومات الشيخ هناك بعد عامين قضاهما في عبادة ودين ودعوة الخلق إلى الله وكان ذلك سنة ١٢٨٤ هـ (٢٠ من فبراير سنة ١٨٦٨).

أما الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعفو عنه وإطلاقه في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٨٨٣م بعد ما لبث في السجن ثمانية عشر عاماً.

* * *

شهداء بالاكوت يتكلمون[١]

ونعود إلى حديث بالاكوت فنقول.

لقد استشهد في معركة بالاكوت نفوس أبية زكية ، كانت زينة الدنيا ، وبركة الوجود ، ومفخرة الإسلام ، وشرف المسلمين ، إن الرجولة والشهامة ، والصدق والأمانة ، والعفة والنزاهة ، والورع والتقوى ، والتمسك بالسنة ، واتباع الشرع ، والحمية الدينية ، والبطولة الإسلامية التي كانت عصارة أزهار وورود كثيرة ، بل حدائق منوعة ، وجنات مختلفة من هذه البلاد المترامية الأطراف الواسعة الأرجاء ، وكانت تستطيع أن تصنع للمسلمين تاريخاً جديداً وتفتح لهم عهداً زاهراً سعيداً ، وقد تُعَطِّر الدنيا كلها بشذاها إذا قدر لها البقاء بعض الوقت ، إنما أريقت على الأرض وضاعت في تراب «بالاكوت» في اليوم الرابع والعشرين من ذي العقدة سنة ١٢٤٦ هـ وصار قيام الدولة الشرعية والحكم الإسلامي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة حلماً بعيد المنال ، أو ضرباً من الوهم والخيال.

إن أرض «بالاكوت» رويت بدماء طاهرة نقية لم تتلوث بالدنيا وأوضارها واعتزت وتجملت بشهداء لم نجد لهم نظيراً في القرون المتأخرة ، في الإخلاص والربانية ، والهمة والشهامة ، والبطولة والاستقامة ، والشجاعة والبسالة ، وفي

---

(١) فصل من فصول كتاب «سيرة سيد أحمد شهيد» ج ٢ للمؤلف ، نقله إلى العربية بطلب من المؤلف ابن أخيه الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» ليكون خاتمة هذا الكتاب

عاطفة الجهاد ، وحب الشهادة ، إن من يطأ اليوم هذه المنطقة الجبلية الوعرة بأقدامه ، ويقطع هذه الوهاد والأنجاد لحاجة من حوائجه ، وغرض من أغراضه ، لا يستطيع أن يتصور ما ضم هذا الوادي في أحشائه من كنز ثمين من المحبين والشهداء ، وما أخفي بين جوانحه ، من ثروة غالية من إعلاء كلمة الله ومن الحب الخالص في سبيل الله .

لقد عاهدوا الله على أنهم سيجاهدون إلى آخر أنفاسهم ولحظات حياتهم ، لإعلاء كلمته وإظهار دينه ، ورفع رايته ، وتنفيذ شريعته ونشر هديه ونوره ولو كره المشركون ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وظلوا يجاهدون بكل نشاط وحماس وشوق ، لا يثني همتهم شيء ، لفظوا نفسهم الأخير ووقعوا على وثيقة الحب والفداء بدمائهم السخية النقية ، ويا له من توقيع ، ولعل ليلة الخامس والعشرين من ذي القعدة كانت الليلة الأولى التي ناموا فيها نومة هادئة ، وقد تحرروا من أثقال رؤوسهم ، وأغلال أجسادهم ، ويا له من تحرر!

إنهم رجعوا بعد أن حملوا أوسمة الشهادة على صدورهم إلى ربهم الكريم الذي لا يبالي بتحقيق الأماني وبلوغ الأهداف ، ونتائج الكفاح ، ولا يعاتب على الهزيمة والانكسار ، ولا يحاسب على الإخفاق في إنشاء دولة وإقامة حكم ووضع نظام وتحرير بلاد ، إنه ينظر فقط إلى شيئين اثنين :

الصدق والإخلاص ، واستخدام الوسائل وبذل المجهود.

وقد تحقق أن شهداء «بالاكوت» لم يدخروا وسعاً في بذل أنفسهم وأموالهم واستخدام وسائلهم ومواهبهم مخلصين صادقين ، حتى نالوا شرف الدنيا والدين ، وحظوا بالقبول عند الله وعند المسلمين.

إن تلك الدماء التي غابت في تراب «بالاكوت» بمرأى من الجميع فلم يبق منها عين ولا أثر ، تلك الدماء التي لم تنجب دولة ولم تنشىء أمة ، ولم تحقق حلماً ، أكبر وزناً وأكثر قيمة وأرفع منزلة في ميزان العدل الإلهي من دول كبيرة قوية ، وإمبراطويات ضخمة ، إن هؤلاء المجاهدين الفقراء الغرباء الذين ضحوا

بأرواحهم في غير مواطنهم وبلادهم ، وما وجدوا ميرة ولا مدداً[١] ، أشرف عند الله وأكرم عليه من أباطرة وملوك مستكبرين ، حكموا إمبراطوريات وأنشؤوا حكومات ، والذين قال الله عنهم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤].

مما لا شك فيه أن دماء شهداء «بالاكوت» لم تحدث تغييراً في خريطة العالم السياسية الجغرافية وإن هذا الخط الدقيق من الدم الذي فاض في زواية صغيرة من الأرض لم يجد مكاناً في الأطلس[٢] الطبيعي ولا في التاريخ السياسي ، ولكن من يدري ما هي مكانتها في سجل القضاء والقدر ، وما هي حرمتها عند المليك المقتدر؟ وكم غسلت من وصمات عار ، ولوثات إدبار ، عن طالع المسلمين ، وكانت سبباً في إجراء أحكام ومحو أخرى عند الله ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩] فليس من المستغرب إذا هي آذنت لدولة قوية عتيدة بالأفول والزوال ، وقضت لشعب متأخر فقير بالانتصار والازدهار ، فطلع بها نجم ، وأفل بها نجم ، وليس ببعيد إذا هي حولت المستحيلات ، وكذبت القياسات والتخمينات ، إن كل ذلك في علم الله ، وليس بمقدور بشر أن يستعرض آثار هذا الدماء في مسيرة الزمن بمجرد العقل والذكاء.

إن كل شهيد من شهداء «بالاكوت» ينطق ويقول: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧] إنهم يقولون بلسان حالهم: إننا جاهدنا ليجد المسلمون فرصة طيبة وجواً صالحاً يقيمون فيه شعائر الله ويمثلون فيه الحياة الإسلامية أصدق تمثيل ، ويتمكنون من تحكيم شرعه وإجراء أحكامه وحدوده على عباده وفي بلاده ، ويقدمون نموذجاً مثالياً حياً للمجتمع الإسلامي ، يكسبون به للإسلام أعواناً وأنصاراً ، ويقيمون به على صلاحيته وخلوده دليلاً وبرهاناً ، مجتمع إسلامي حر لا تسيطر عليه النفس ، ولا يقوده الشيطان ، ولا يستبد به حاكم أو سلطان ، ولا تتحكم فيه التقاليد والعادات الجاهلية ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] مجتمع يفتح أبوابه على

---

(١) المدد: الغوث وما يمد به الجيش.

(٢) الأطلس: مجموعة خرائط جغرافية مجلدة ، والكلمة من الدخيل.

مصاريعها[١] للطاعة والعبادة ، والبر والتقوى ، ويسدها على الفسق والفجور ، والمعصية والعدوان ، تطبيقاً للآية ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٤١].

لقد قدر الله لنا الشهادة في سبيله والفوز بمرضاته مقابل تحقيق هذه الأمنية الغالية والفوز والنجاح في الدنيا ، ونحن بقضاء الله راضون ، وبحكمه مرتاحون ، وبنعمته فرحون ، فإذا قدر الله لكم فرصة لإعادة الحياة الإسلامية وإقامة المجتمع الإسلامي في أي دور من أدوار التاريخ ، ووجدتم جواً حراً لتطبيق الشريعة الإسلامية ، ولم تحل بينكم وبين إقامة شرع الله وإعادة حكم الله ، دولة دخيلة أو غاضب أجنبي ثم انسحبتم عن الميدان وتخليتم عن هذا الواجب ووليتم على أعقابكم مدبرين ، ورميتم بتلك الشروط والصفات والخصائص والسمات التي امتاز بها المهاجرون والمستضعفون في عهد نهضتهم واستعلائهم وتمكينهم في الأرض عرض الحائط[٢] كان ذلك نكراناً للجميل ، وجحوداً بالفضل ، وكفراً بالنعمة ونقض عهد وإخلاف وعد قد يندر نظيره في التاريخ.

إن دماءنا التي أهرقناها بسخاء في ساحات الوغى ومعارك الفداء ، وفي مشهد «بالاكوت» في آخر المطاف توقيعات ووثائق على جهادنا وشهادتنا ، فهذه المنطقة كلها مقبرة الشهداء ، أما أنتم فقد نلتم بمحاولة بسيطة حيناً ، وبجرة قلم بعض الحين مساحات واسعة شاسعة ، جميلة خضراء من الأرض ، بل ورثتم بعض الأحيان دولاً عظيمة مرهوبة الجانب ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤] فإن لم تنتهزوا هذه الفرصة السانحة وجعلتم هذه الحرية وهذا الانتقال مطية لأغراضكم وأداة لتحقيق شهواتكم ، ولم تقيموا حكم الله وشريعة الإسلام على نفوسكم وعشيرتكم ، وعلى شعبكم ، وأصبحت دولكم وحكوماتكم لا تختلف عن الدول الأجنبية ، والحكومات العلمانية المادية ، في الحضارة والمدنية ، والتشريع والقانون ، وأصبح حكامكم

---

(١) مصراع الباب : أحد غلقيه . يقال فتح الباب على مصراعيه يعني فتحاً كاملاً.

(٢) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٣٩].

لا يختلفون عن هؤلاء الحكام في الأخلاق والسيرة ، والثقافة والتربية ، لم يبق عندكم عذر أمام شعوب العالم التي كنتم معها في صراع باسم الاسلام ، أمام الله العليم الخبير يوم يقوم الأشهاد ، حيث تحاسبون على كل صغير وكبير .

لقد أتاح الله لكم فرصة لم نتمتع بها ، فرصة ذهبية لا يجود بها الزمان إلا نادراً ، فرصة تعاقب لها الليل والنهار ، وقلب لها التاريخ الإسلامي آلاف الصفحات ، وعاش في آمالها المعسولة وأحلامها اللذيذة عدد لا يحصى من النفوس المؤمنة الزكية ، وأصحاب الطموح والهمة ، والغيرة والحمية ، وفارقوا هذه الدنيا قبل أن يبلغوا مناهم ويرووا غلتهم ، فإذا ضيعتم هذه الفرصة الغالية ، فرصة تمثيل الحياة الإسلامية الجميلة ، بأجمل صورها وأروع معانيها ، وأوضح أشكالها ، كان ذلك مأساة رهيبة في التاريخ ، وكارثة أليمة تقصم الظهور وتقلع الأمل من القلوب والصدور

إن هؤلاء الشهداء الذين ينامون نومة هادئة وادعة في زاوية صغيرة في هذه القرية الجبلية البعيدة «بالاكوت» يتحدثون اليوم إلى شعوب إسلامية نالت الحرية ، ونعمت بالاستقلال وملكت زمام القيادة ويقولون :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢].

* * *

فهـرس المـوضـوعـات

لمحة موسعة عن حياة الشهيد ٣
مقدمه المؤلف ٣١
السيد الامام أحمد بن عرفان البريلوي ٣١
سموه باسمه ٤٣
توبة نصوح ٤٦
من الترف الى الشظف ٥١
مجتمع اسلامي متجول ٥٣
روح التطوع والخدمة ٥٦
المساواة الاسلامية ٥٧
التائب من الذنب كمن لا ذنب له ٦٠
لقد هبت ريح الايمان والتوبة ٦٢
من النافلة الى الفريضة ٦٥
لا نستطيع دفع الضريبة ٦٧
في سبيل الجهاد ٦٩
هدية طريفة ٧٢
وداعاً أيها الوطن العزيز ٧٤
نداء التوحيد في قصر أمير وثني ٧٨
جهاد قبل الجهاد ٨٠
في عاصمة بلاد الأفغان ٨٣
اعذار واندار ٨٦
لماذا سحبت اسمي ٩٠
يدالله على الجماعة ٩٢
فرصة ضيعها المسلمون ٩٧
الحياة في المعسكر الاسلامي ١٠٢
فمن عفا وأصلح فأجره على الله ١٠٨

احدى يدي أصابتني ولم ترد ١١٠
أمانة مع العدو ١١٢
تأثير المحيط في أخلاق الأجانب ١١٥
النظام القضائي والحسبة في المستعمرة الاسلامية ١١٧
ثكنة عامرة ومدرسة حربية ١١٨
نشاط المجاهدين ١٢٠
تجديد النظام الشرعي ١٢٣
في مواجهة القائد الفرنسي ١٢٥
ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ١٢٩
من المومنين رجال صدقوا ١٣٣
أرى العنقاء أكبر أن تصادا ١٣٥
حرب فرضة على المجاهدين وانتصر وافيها ١٤١
جهاد اخلاص و موت شهادة ١٤٦
كيف استقبل المجاهد الموت ١٤٨
وفي سبيل الله ما لقيت ١٤٩
النظرة الايمانية والعقل المؤمن ١٥١
فتح بشاور ١٥٣
هبة ملك و منحة دولة ١٦١
بين الشريعة الالهية وشرع الناس وأعرافهم ١٦٥
بأي ذنب قتلت ٧٢
هجرة في هجرة و جهادفي جهاد ١٧٨
من بنجتار الى بالاكوت ١٨٢
في بالاكوت ٥
مشهد بالاكوت ١٨٨
امتداد تاريخ الجهاد والبطولة ١٩٢
من الشنق الى المنفى ١٩٦
شهداء بالاكوت يتكلمون ٢٠٢
فهرس الموضوعات ٢٠٧